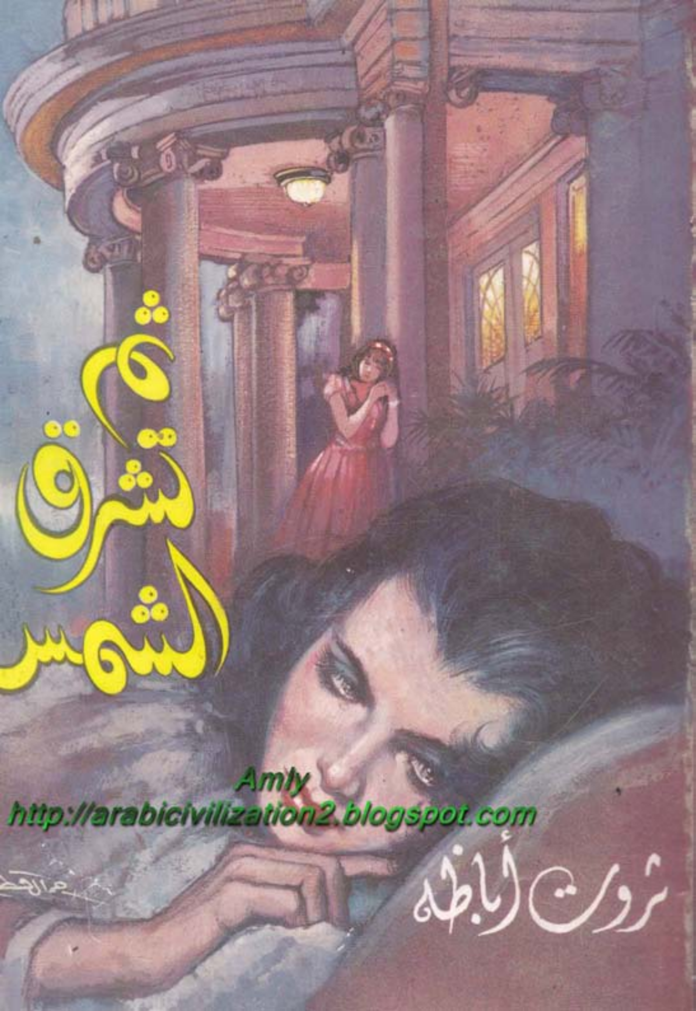

ثم تشرق الشمس
ثروت أباظة

ثم تشرق الشمس

تأليف

ثروت أباظة

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

١

صعد همام بك الأزميرلى إلى الطابق الأعلى من منزله ، وابتسامة فرحانة تشيع فى وجهه كله ، وكانت زوجته سميرة هانم تجلس فى البهو الذى تعودت أن تنتظره فيه . وما لبثت ابتسامة وجهها أن ترقرقت على وجهها . وأحس الزوجان الكبيران فرحة مشرقة بينهما ، فقد عاشت سميرة هانم مع زوجها السنوات الطوال فلم تلقه يوما حين عودته إلا بهذه الإشراقة ، وعاش هو معها يطيب نفسا بلقائها وبكل شيء تقوم به ، فلم يكن غريبا إذن أن تطفر السعادة بينهما عند اللقاء . ولكن همام بك كان يحمل لزوجته فى يومه هذا هدية أراد أن يشفعها بهذه الابتسامة التى صحبته فى طريقه إلى الطابق الأعلى من منزله .

جلس الزوج إلى كرسيه وأخرج من جيبه ورقة مطوية وأعطاها زوجته ، ولم يزد على قوله :

— مبروك يا ستى .

وأخذت الزوجة الورقة وقد شاع فى وجهها فرح مستطلع ، وفتحت الورقة وهى تقول :

— خيرا .

ثم لم تنتظر الإجابة ، بل راحت تقرأ الورقة التى تبينت فيها أول ما تبينت أنها ورقة رسمية عليها أختام وتوقيعات كثيرة ، ثم ما لبثت أن تجهم وجهها هونا وقالت لزوجها :

— ما هذا ؟

— ماذا ؟ ألم تعرف ؟

— ما الذى جعلك تفعل هذا ؟

وفهم الزوج مبعث غضبها ، وازداد بهذا الغضب فرحا وازداد به حبا لزوجته وإعجابا ، وقال وفى صوته رعشة :

— عشرون فدانا ، قصدنى صديق أن أشتريها منه بدل أن يشتريها منه غريب لا يعرفه ، ورأيت أن أكتبها باسمك ، ولم أشأ أن أخبرك حتى أسجل الشراء فى المحكمة المختلطة .

وقالت سميرة هانم وقد اختلج وجهها ، وطفرت إلى عينيها دموع حبسها أن تسيل خشية من إغضاب زوجها الذى يريد رضاءها .

— ومن قال لك إنى أريد أرضا أو فدادين !

— وماذا يغضبك فى هذا ؟

— يغضبنى أننى لا أريد منك إلا أنت ... أنت وحدك ... وتفكيرك فى كتابة أرض لى ، تفكير لا أحب أن يجول فى ذهنك لأنى لا أحب أن يجول فى ذهنى ... أنت غناى كله ، وما كنت أحب أن تظهر رضاءك عنى فى أرض . تكفينى منك ابتسامة رضا ، ويغنينى فى حياتى أن أراك مرتاحا فى بيتك وبين أولادك .

— الله يبقيك يا سميرة ..

وكادت الدموع تطفر إلى عينى الرجل ، ولكن رجولته ما لبثت أن تغلبت ، وما لبث هو أن غير موضوع الحديث :

— أين الأولاد ؟

— خيرى ويسرى ما زالا فى المدرسة .

— تقولين خيرى ويسرى فى المدرسة ؛ وكأن يسرى أصبح تلميذا كبيرا

مثل خيرى .

وعادت الابتسامة هونا إلى وجه سميرة هانم وهى تقول :

ـــ لو رأيته وهو يغالب النوم مصمما أن يسهر مثلما يسهر أخوه ، عاجزا فى الوقت نفسه أن يغالب رأسه المائل وجفونه المقفلة ، وكلما صحت به أن يقوم للنوم انتفض لحظات معارضا ، ثم ما لبث رأسه أن يعود إلى الميل وجفونه إلى الانطباق .

ـــ أرجو أن يصبح مثل أخيه فى المذاكرة .

ـــ خيرى ... الله يحميه .

ـــ الحمد لله ... فيه البركة ... لا أذكر أننى طلبت منه أن يذاكر أبدا .

ـــ الحمدلله ، ناجح دائما ، ولكنى يا همام بك غير مرتاحة لاستذكاره خارج البيت فى هذه الأيام .

ـــ لماذا ... إنه يذاكر عند محسن ابن عمه ، والبكالوريا محتاجة لتعاون الطلبة .

ـــ نعم أعرف .. ولكن هل يا ترى يقدمون إليه حاجته من طعام وشاى وقهوة كما نفعل هنا ؟.

ـــ بيت عزت مفتوح .

وابتسم همام ابتسامة تخفى معنى ما ، أو لعلها تبين عن ذلك المعنى وهو يقول :

ـــ ولعل هناك يا ست سميرة من يهتم بشأنه أكثر مما تفعلين ... أين نادية ؟

ـــ فى حجرتها .

ـــ ناديها تجلس معنا .

وقبل أن تقوم سميرة هانم تأتى الخادمة لتنبئ البك أن صديقه فواز بك فى

الطابق الأسفل ويريد أن يلقاه ، ويقوم همام بك إلى صديقه وتعود سميرة إلى الورقة تقرأها ثم ما تلبث دمعات لها أن تسيل ، فقد كانت هذه الورقة تجسم لها الخوف من يوم تحتاج فيه إلى ريع أرض ... ويومذاك ... ما الأرض وما المال ، بل وما الدنيا جميعا إذا فارقها زوجها ؟ هذا العطوف الطيب السمح الذى يحول بينها وبين هموم الحياة ... لا كان ذلك اليوم ... لا كان .

٢

انتهى اليوم الدراسى فى مدرسة الخديوى إسماعيل وخرج التلاميذ ، وكان خيرى مع جماعة من إخوانه يعرفون أن عليه أن يذهب إلى مدرسة المنيرة لينتظر أخاه يسرى ويصحبه إلى البيت ، فرافقوه الطريق ، ولكن محسن عزت لم يشأ أن يصحبهم وقال لخيرى :

ـــ لا بد لى أن أذهب إلى البيت ، فقد تركت أختى الصغيرة مريضة وأريد أن أطمئن عليها .

وقال خيرى فى لهفة شفوق :

ـــ من ؟ فايزة ؟

ـــ نعم .

ـــ مسكينة ! وهل تتحمل المرض ؟.. طيب اذهب أنت وسألحق بك .

وانفصل محسن عن الجماعة ، فساروا إلى مدرسة المنيرة ، ولما بلغوا بابها كان ما يزال أمام انصراف تلاميذها بضع دقائق ، وظل خيرى ورفاقه أمام الباب يتحدثون ، ولكن نجيب كامل صديق خيرى المقرب أحس الجزع الذى يعانيه

خيرى فقال له فى صفاء :

ـــ إن شئت فاذهب أنت إلى محسن ، وسأصحب أنا يسرى إلى البيت .

ـــ أترى ذلك ؟

ـــ وما البأس ؟

ـــ أخشى أن يجزع يسرى لغيابى .. سأنتظره حتى يخرج ثم أذهب أنا إلى محسن . ولكن وحياة والدك يا نجيب احرص على يسرى فى الطريق فهو كثير الحركة لا يهدأ .

ـــ ألا أعرف يسرى ؟.. لا تخف يا أخى .

ـــ واحذر أن تدخل به فى مظاهرة .

ـــ مظاهرة ؟... آه ... أظنها الآن بلغت عابدين .

وقال صلاح الفولى :

ـــ بهذه المناسبة ... ألا تعرف ماهية هذه المظاهرة يا خيرى ؟

ـــ هل يمر يوم من غير مظاهرة ؟.. حزب الوفد وحده كان يقيم المظاهرات كل يوم فى وزارة محمد محمود ، فما بالك والوفد اليوم مع الأحرار الدستوريين ... المظاهرات كل ساعة ... هل مر علينا يوم فى وزارة صدقى من غير مظاهرات ؟.

ـــ يا أخى وكأن الرجل معجون من حديد ... صلب ... كأن المظاهرات تخرج لتحيته .

ـــ المهم أن تحافظ على يسرى يا نجيب ... احذر منه .

ـــ لا تخف .

وتدخل صلاح الفولى فى الحديث سائلا خيرى :

ـــ قل لى يا خيرى ، هل محسن ابن عمك مباشرة ؟.

ـــ تقريبا .

ـــ لا أفهم ... ما معنى تقريبا ؟.

فقطع نجيب الحديث قائلا :

ـــ هل تمت شجرة عائلة خيرى عندك ولم يعد ينقصها إلا صلة خيرى بمحسن .

واغتاظ صلاح فقال فى حدة :

ـــ يا أخى ما شأنك أنت ، هل سألك أحد ؟.

وقبل أن يجيب نجيب دق الجرس ، وما هى إلا بضع دقائق حتى انفرج باب المدرسة عن أفواج التلاميذ وقد تباينت جسومهم وأعمارهم تباينا شديدا ، فهذا طويل فارع الطول ، وهذا نحيل ضئيل لا يكاد يبين فى الحشد الذى يجاهد للخروج من الباب ، وآخر سمين مفرط السمن . وبينهم من يتعهد شاربه فى اعتزاز ، وبينهم من يتعهد طربوشه فى تأنق ، ومنهم من لا يعتز بشىء أو يهتم بشىء إلا أن يخرج من المدرسة وينفتل إلى بيته ... أو إلى الرفاق الألى ينتظرونه عند بيته . وبين التلاميذ من ينتظره خادمه ، وبينهم من ينتظره ذووه ، ومنهم من لا ينتظره أحد ؛ ولا فارق ثمة عندهم بين هذا وذاك ، فكلهم فى هذا الرحاب سواء .

وتكسر فيهم غرور الثراء   وزهو الولادة والمنصب
بيوت منزهة كالعتيق   وإن لم تستر ولم تحجب

ويظهر يسرى وعينه إلى المكان الذى تعود أخوه أن ينتظره فيه ، فيقصد إليه فى غير ترحيب ولا ضيق غير ملتفت إلى هذه الابتسامة التى أشرقت على وجه خيرى حين رآه . فما كان يفهم لها معنى ... إلا أنه كان فرحا على أية حال أن خرج من المدرسة ليستقبل البقية الباقية من يومه فى لعب ومرح .

وطلب خيرى إلى أخيه أن يسير مع نجيب حتى البيت ، وطلب إليه أيضا أن يكلمه فى التليفون عند عمه عزت بك ليطمئنه على وصوله ، فوعده يسرى بالطاعة . وانصرف هو ونجيب وبقية الرفاق وعين خيرى تصاحبهم حتى حاد بهم الطريق ، فانصرف هو إلى بيت صديقه وقريبه محسن .

كانت فايزة طفلة فى سنتها السادسة ، ضحكة البيت المرحة الطروب ، إليها يلجأ الأب إن ضاق بالسياسة التى يعمل فى ميدانها ، وإليها تلجأ الأم كلما وجدت من بيتها فراغا ، وحولها يجلس محسن وخيرى كلما ضاقا بالمذاكرة ... كانت فايزة عند محسن أخته الحبيبة الضاحكة ، وكانت عند خيرى كل هذا وشيئا آخر أكثر من هذا وأعز . كانت وسيلته إلى وفيه ، فحولها كانوا يجلسون كلما عن لهم أن يتركوا المذاكرة حينا ، وحولها كانت تصاحبهم وفية تلهو معهم وتفتح لأختها الصغيرة موضوعات الأحاديث التى تظهر لشغتها ، وبين الضحكات الصاخبة تلتقى عيون صافية ، وقلوب شغفها الحب الطاهر ، ومنعها الحياء أن تبين عن حب بها زاخر موار .

هى وفية أمل الصبا والشباب ، كانت الطفولة تجمعهما فى الملعب ، ثم استقبلا الشباب معا فنزل بينهما ستارا رقيقا دقيقا عنيفا لا يلين . فالخلوة بينهما لا تتاح ، واللقاء بينهما بمقدار ، والعيون حولهما رواصد ، والرقيب عليهما عتيد ، يحسانه فى دعوة الأم لوفية إن طال بقاؤها فى الغرفة ، ويحسانه فى نظرة محسن العاتية إذا علت ضحكة لها ، ويحسانه أول ما يحسانه فى نفسيهما التى تحول بينهما وبين الانطلاق الذى كانا يمرحان فيه حين كانت الطفولة تظلهما . وهما مع ذلك يحمدان الشباب ، ذلك الوافد الجديد ، ففى بريقه عرفا معنى هذا الخفق العنيف الذى كان يزحم صدريهما ولا يدريان له سببا ، وفى هذا الخفق عرفا الحياة ، وفى هذا الستار الذى أسدله الشباب عرفا الحب ، وفى هذا الرقيب الذى حل بهما

عرفا لذة ناره . إنهما يحمدان الشباب ويحمدان ما فرضه عليهما من قيود ، فهى قيود لم تستطع على شدتها أن تمنع العين أن تلتقى بالعين ، والابتسامة أن تلاقيها ابتسامة ، والإشراقة أن تستقبلها إشراقة . وحول فايزة كانت تلتقى العيون والابتسامات والإشراقات

هكذا جزع خيرى لمرض فايزة جزعا شديدا ، فذهب إلى منزلها يريد أن يطمئن عليها ، ويرجو من صميم قلبه ألا يطول هذا المرض . واستقبله البيت فى وجوم صاخب ، فالخدم مشغولون بتنفيذ الأوامر التى لا ينقطع لها سيل ، والجميع حول سرير فايزة يحيطون بها فى إشفاق وخوف ، ينتظرون الطبيب أن يفرغ من فحصه . وصعد خيرى إلى الطابق العلوى ، وحين عرف بوجود الطبيب مكث خارج الغرفة ينتظر . ولم يطل به الانتظار وإن أحسه هو طويلا ، وخرج الطبيب ومعه وفية ، وسارع خيرى إلى وفية يسألها عما قال فطمأنته فى ابتسامة تكاد تشرق . وهدأت نفسه بعض الشىء ، ودخل الغرفة وراح يضحك فايزة مقلدا طريقة نطقها للحديث ، وهى تضحك فى ابتسامة واهنة ، وعمه عزت بك يحاول أن يضحك ليهون على زوجته إجلال ما كانت تنوء به من خوف شديد من هذه الحرارة المرتفعة التى تعانيها ابنتها

ولم يطل خيرى مقامه ، بل سرعان ما طلب إلى محسن أن يؤجلا المذاكرة إلى الغد ، وما أسرع ما ارتاح محسن لهذا الطلب . وخرج خيرى من الغرفة ، وقبل أن يصل إلى السلم التقى بوفية مرة أخرى فطالعته منها ابتسامة عذبة ، وسؤال هامس ناغم لم يزد على كلمة واحدة حملت معها معانى نعم بها أى نعيم .

— خارج ؟

وفى هناءة غامرة أجاب :

— أجلنا المذاكرة إلى الغد

ــ وماله ، ولماذا لا تبقى معنا قليلا ؟

ــ أنتم مشغولون بفايزة ، وأنا أريد أن أذهب إلى البيت لأطمئن على يسرى ، لأنى لم أوصله اليوم .

ــ لماذا ؟.

ــ كنت مشغولا على فايزة فأرسلته مع أحد أصحابى وطلبت إليه أن يكلمنى هنا بالتليفون ، ولكنه لم يتكلم ، وأخاف أنا أن أتكلم ويكون حضرته فى الشارع يلعب دون أن يرى وجهه لنينا فتشغل لغيابه .

ــ طيب يا سيدى ... نشكرك .

ــ علام الشكر ؟.

ــ على اهتمامك بفايزة .

ــ أنت لا تعرفين كم هى عزيزة على يا وفية ... فايزة عندى مثل نادية تماما ...

وأوشك أن يستطرد فى حديث عن المكانة التى تشغلها فايزة فى قلبه ، بل أوشك أن يبين لها مكانة هذا البيت جميعا فى نفسه ، ولعل أملا متهافتا داعبه أن يحدثها عما لها هى فى نفسه ، واهما أن عينيه ووجهه هذا المشرق وذلك الضياء الذى يشع من خلجاته جميعا لم ترو لها حديث نفسه كاملا ، لم تخف منه خافية ... أوشك خيرى ثم وقف به إيشاكه عندما ارتفع صوت إجلال هانم من حجرة فايزة :

ــ يا وفية !.

ــ نعم يا نينا .

وقبل أن يرتفع صوت إجلال هانم مرة أخرى ليدعو وفية ، كان خيرى قد استأذن وكانت هى قد همست فى إعزاز :

ــ مع السلامة .

نزل خيرى يثب السلم وثبا عنيفا ، سريعا متلاحقا ، ولكنه مع ذلك أهون من ذلك الوثب الذى أخذ قلبه يخفق به داخل ضلوعه فرحا بهذا الحديث الصغير الكبير الذى مهدت له الصدفة . لقد كاشفته بحبها فى طلبها إليه أن يبقى ، وكاشفته بحبها فى نظراتها الحالمة الوادعة الرضية ، وكاشفته بحبها فى نغمات صوتها الهامسة الحالمة ، وكاشفها هو بحبه فيما رواه عن مكانة فايزة من قلبه ، وفى إشفاقه عليها وفى مسارعته إلى بيتهم مرسلا أخاه مع صديق . لقد تكاشفا بالعيون والوميض ، والكلام يدور من بعيد كما يدور العابد حول معبوده المقدس ويكبره أن يلمسه . لم يقل أحبك وإن قالها ألف ألف مرة ، ولم تقل أحبك وإن كان قد سمعها منها ألف ألف مرة ... لكم يحبها .. ولكم يطيب له أن يقول فى نفسه ... ولكم تحبنى .

٣

بلغ خيرى البيت وقصد من فوره إلى حجرة يسرى وفتحها ، فوجده يلهو ويلعب على الأرض ، فقال له فى شىء من عنف شفوق :

ــ لماذا لم تكلمنى يا أخى ؟.

ــ والله نسيت يا آبية .

ــ نسيت ؟... ألا تقدر خوفى عليك ؟.

ــ وممّ تخاف ؟... هل أنا صغير ؟.

ــ طيب يا سيدى ... أنا غلطان !..

وأقفل الباب وذهب إلى أمه ينبئها بمرض فايزة ، واستقبلت الأم النبأ فى شىء من الإشفاق سائلة عن نوع المرض ، ثم قالت لابنها إنها ستزورهم بمجرد عودة أبيه لتستأذنه وتستقل سيارته فى زيارتها . ثم دار بينهما الحديث بعد ذلك فى نواح شتى ، ولكن الأم لاحظت أن الابن فرح طروب يجاهد عينيه ووجهه ألا تفضح ما يموج فى قلبه من هناءة ورضا . وشاءت الأم أن تظهر لولدها أن ما يبذله من جهد قد نجح ، وأنها لم تلحظ السعادة التى يعيش فيها .

ولكن غريزة المرأة الأم لم تمهد لها المضى فيما تشاء ، فإذا هى تجذب الحديث جذبة عنيفة إلى ناحية لم يكن خيرى يتوقع أن ينحرف إليها الحديث ... قالت الأم فى هدوء :

— خيرى !

— نعم يا نينا .

— لماذا لا نخطب لك ؟.

— ماذا ؟.

— لماذا لا نخطب لك ؟.

— أنا تلميذ لا أزال فى البكالوريا .

— وماله ؟.

— كيف ؟.

— أنت تلميذ مستقيم ... نخطب لك ... وحين تتخرج تتزوج . لم لا ؟.

— ولكن يا نينا .

— ماذا ؟ .

— لا يا نينا ... هذا غير معقول .

— أترى هذا ؟.

ــ والله أظن لو انتظرنا قليلا ...

ــ ولماذا ننتظر ؟.

ــ والله أمرك .

ــ قد لا تنتظر العروس التى تريدها .

وانتفض خيرى فى حيرة ذاهلة :

ــ ماذا ... العروس التى أريدها ... أى عروس ؟.

وقالت الأم فى سخرية رحيمة :

ــ وفية .

ــ نينا .

ــ نعم .

ــ هل قلت لك إنى أريدها ؟.

ــ إنك يا ابنى تقول هذا كل يوم ... كل دقيقة ... كل مذاكرة مع محسن ، وكل عودة من عند محسن ... المصيبة أن الأولاد دائما يظنون أن آباءهم وأمهاتهم سذج ، وأنهم يستطيعون أن يضحكوا منهم .

وتشرق نفس خيرى وتعلو وجهه حمرة يجاهد أن يخفيها فيخفق جهده ، ولا يجد شيئا يقوله آخر الأمر إلا :

ــ على كل حال يا نينا لا بد أن ننتظر قليلا

ــ طبعا ... حتى تنال البكالوريا .

ويتلعثم خيرى وهو يقول :

ــ نعم وتشفى فايزة .

ــ ماذا ؟.. تشفى فايزة ... وهل مرضها خطير يا ابنى ؟.

ــ ... أبدا ... ولكنها مريضة على كل حال .

— مرض بسيط وستشفى منه طبعا قبل دخولك الامتحان بوقت كبير .

— إن شاء الله ... أقوم أنا أذاكر قليلا .

— قم يا بنى ربنا يوفقك ... أليس عندك مدرس اليوم ؟.

— نعم ... سيأتى حامد أفندى ، وكان مفروضا أن يأتى محسن ليأخذ الدرس معى ، ولذلك سأؤجل الحصة اليوم .

— وهل سيعطى يسرى درسه ؟.

وضحك خيرى وهو يقول :

— إن حامد أفندى مدرس ممتاز وهو يدرس ليسرى من أجل خاطرنا فقط .

— أليس مدرسا فى مدرسته ؟.

— مجرد سوء حظ ، إنما الحقيقة أنه فوق مستوى الابتدائى بكثير . وقد طلب إلى أن أرجو عمى عزت ليرقى إلى الثانوى .

— وهل كلمته ؟.

— نعم ، ووعد بأن يتكلم له .

— ربنا يوفق الجميع يا ابنى ...

— على الله ... أقوم أنا .

وقام خيرى إلى مذاكرته ... ولكن أى مذاكرة ؟ لقد داعب حديث أمه أملا كان يهفو إليه وما كان ليتوقع أن يأتى إليه هكذا من قريب ... لم يكن ينوى المذاكرة فى يومه هذا ، أما وقد أصبحت المذاكرة هى طريقه إلى وفية فهو سيذاكر اليوم ، وكل يوم ، وكل ساعة ... ولكن أى مذاكرة يطيقها اليوم ؟.. عيناه فى الكتاب وخاطره مشغول يجمح به إلى هواه الذى كان بعيدا فأصبح وهو لا يمنعه عنه إلا هذا الكتاب ، فيعود إليه هنيهات ، ثم يتركه . وهكذا كانت مذاكرته كحسو الطائر يشرب مهما يشرب ، فلا يصيب من الماء إلا رذاذا أو

أقل من الرذاذ .

٤

كان حامد أفندى عبد الكريم يقيم مع أمه الست مريم وأخته دولت فى شقة متواضعة على رغم أنفها فى الدراسة . أما أبوه فقد تركهم لا يرد جوعهم إلا معاش ضئيل ، استطاع حامد أن يزيده بعض الشيء بوظيفة حصل عليها كان يعمل بها بعد الظهر . واستطاع أن يجمع بين الوظيفة والمدرسة حتى يحصل على دبلوم المعلمين ، وأصبح مدرسا للغة الإنجليزية والجغرافيا والتاريخ بمدرسة المنيرة الابتدائية . وقد كان حامد مثابرا فى المذاكرة ، حتى لقد استطاع أن يحصل على مكان كريم بين زملائه المتخرجين فى دفعته ، ولكنه كان بلا وساطة ، فلم يستطع أن ينال إلا هذا المكان بمدرسة المنيرة . وهكذا ما كاد يعرف أن لأهل يسرى صلة بذوى السلطان حتى بذل غاية جهده أن تتصل أسبابه بيسرى . وقد نجح جهده وأصبح المدرس الخصوصى ليسرى ولخيرى أيضا . ولم يضع وقتا كثيرا ، فإنه ما لبث أن طلب إلى خيرى أن يكون شفيعه إلى عزت بك ، ليشفع له فى الوزارة . وقد اتسعت الآمال أمام عينيه منذ ذلك اليوم وأصبح يحلم بالترقية إلى المدارس الثانوية . حتى لقد قصد فى يومه هذا إلى الوزارة ليعرف الأمكنة الخالية بمدارس القاهرة الثانوية ، ولكن أبحاثه قادته إلى سبيل آخر لم يكن ليفكر فيه . فلقد أبلغه زميل له بالديوان العام أن الوزارة فى سبيلها إلى إرسال بعثة إلى إنجلترا فى العلوم الاجتماعية ، وأن المرشحين لهذه البعثة من المتقدمين فى دفعته . وقد أبلغه زميله أيضا أنه يستطيع أن يسافر فى هذه البعثة إذا هو عثر على وساطة كبيرة ذات نفوذ

فى الوزارة . وهكذا عاد حامد إلى بيته والآمال تزحم نفسه أن يفوز بهذه البعثة ... أربع سنوات قابلة للزيادة فى إنجلترا ، ومن هنا يستطيع أن يدرر بالعالم أجمع ... إنجلترا ... أى أمل ضخم هذا وأى مستقبل عريض ينتظره عند عودته . وماله لا يسعى وأى ضير فى ذلك ؟.. ليجعل هدف البعثة بديلا عن هدفه القديم من ترقيته إلى المدارس الثانوية . قد تعترض أمه ولكن أى أم لا تعترض على غياب ابنها أربع سنوات عنها ؟.. ولو أطاع الناس جميعا أمهاتهم لما نال أحد دكتوراه ولظلوا قابعين بجانب أمهاتهم فلا يصيبون من العلم إلا هذه الدرجة التى نالها . قد يضيق الحال بأمه بعض الشيء . ولكنها تعودت أن تكتفى بالمعاش فلتعتمد عليه هذه السنوات ... ولكن دولت كبرت وكثرت طلباتها ، ولكن ما البأس بأمه وأخته أن تحتملا الضيق هذه السنوات القلائل ثم يعوضهما عنها بالعيش الرغيد ؟ وماذا عليه لو قبل زواج دولت من فهمى الفهلوى ... ولكن كيف ؟!

وكان حامد قد بلغ منزله حينئذ وانتبه إلى السلم ، فقد عوده حرصه على الحياة أن ينتبه إلى السلم كلما أوشك أن يصعد ، فجميع الباقى من درجاته متآكل لا يسمح إلا بأطراف القدم أن تستقر عليه ، كما تعود ألا يعتمد على الدرابزين . وكم عود الفقر حامد من عادات ، فقد عودته ملابسه القديمة مثلا أن يتأنى فى مشيته وحركاته حتى لا يشتد الاحتكاك بها فتبلى البقية الباقية منها . وقد ظن كثير من الناس أن هذا البطء فى المشى والحركة وليد كبر يعتمل بنفسه ، ويعلم الله ، ويعلم حامد ، أنه لولا الفقر لتحرك مثل سائر الناس . وهكذا كان حامد دقيقا فى تفكيره حريصا كل الحرص على ماله ونفسه .

بلغ حامد السلم وصعده فى تأن وفى تفكير يبذله كلما ترك درجة إلى أخرى . وحين بلغ شقته فتح الباب فوجد أمه جالسة فى البهو ويجلس إلى جانبها

فهمى الفهلوى وقد انهمك كل منهما فى حديث أخذ بمجامع تفكيرهما كل مأخذ . وكانت الجملة التى بلغت أذن حامد عند فتحه الباب :

ــ أنا أعجبك جدا يا ست أم حامد .

وأنقذ حامد أمه من الإجابة وهو يقول :

ــ أهلا وسهلا ... كيف حالك يا أسطى فهمى ؟

ــ معدن يا حامد أفندى ... معدن والحمد لله ... ماشية ... الدكان يكسب خمسين قرشا يوميا على الأقل .

ــ ربنا يزيد ويبارك .

ــ أنا والله لا أعرف ما الذى لا يعجبك فى .

ــ لماذا يا أخى ــ لا قدر الله ــ أنت تعجب السلطان .

ــ يا أخى العفو ، كل مناى أن أعجبك أنت فقط .

ــ ربنا يهيئ الخير يا أسطى حامد .

ــ الخير بيدك أنت يا سى حامد أفندى .

ــ شربت القهوة ؟

ــ شربناها والحمد لله ... أستأذن أنا .

ــ ولماذا العجلة ؟

ــ الدكان وحده ... البركة فيك يا ست أم حامد ، فقد يرضى علينا الأستاذ ... سلام عليكم ...

وشيعته همهمة من حامد وأمه أشبه ما تكون برد لتحيته ... وما كاد فهمى يغلق الباب حتى قالت الست مريم :

ــ والله إنه ابن حلال .

فقال حامد محاولا أن يغير الحديث :

ــ وهل قلت انه ابن حرام ؟

ــ فما عيبه ؟

ــ يا ستى اتركى هذا الموضوع .

ــ ولماذا أتركه ؟... رجل يا بنى ويستر على أختك .

ــ وهل هى بائرة ؟

ــ ... لا قدر الله ولكنى لا أرى فيه عيبا

ــ كيف هذا يا أمه ... أين هو منا ؟

ــ يا بنى العظمة لله ... أليس هو فهمى بن الحاج سيد الفهلوى الذى ٥ں صديق أبيك العمر كله .

ــ يا أمه الدنيا تتغير ..

ــ ولكن النفوس يا بنى لا تتغير .

ــ كل شىء يتغير .

ــ إلا النفوس الحلوة يا بنى ... لم تكن هكذا أبدا ... يا ابنى فهمى ابن حلال ونعرفه ، نعرفه وهو طفل صغير ، وسيكون لدولت كأخيها ، لماذا ترفض ؟

ــ أنا لا أزوج أختى من عامل !

ــ وإذا كانت هى تقبله ؟.

ــ أنا لا أقبل .

ــ وماذا ينتظر لها ؟

ــ واحد متعلم .

ــ وماذا يفعل بها المتعلم ؟ هل تراها نالت الشهادات .

ــ إنها تقرأ وتكتب ، وعلى كل حال لا يهم ... فالمتعلم سيطلبها من أجلى

أنا .

— وهل سيتزوجك أنت هذا المتعلم ... المتعلم يريد المتعلمة مثله أو الغنية ، ونحن والحمد لله لا علم ولا مال ... اقبل فهمي يا حامد يا ابني ... من يعرف ؟ لعله أحسن من غيره .

— لا يا ستي ... أنا لا أقبل أن يعيرني زملائي بأني زوجت أختي من شخص جاهل ... عامل ....

— يا بني مصلحة أختك أهم من أقوال زملائك .

— أنا أدرى بمصلحتها .. وعلى كل حال هي ما زالت صغيرة .. صغيرة جدا .

— يا ابني هذا حرام ... في أيامنا كانت البنت لا تصل الحادية عشرة إلا وهي متزوجة .

— اسمعي فعندي خبر مهم .

— خير .. أترقيت ؟؟

— لا ... لا ...

— خطبت ؟!

— أليس في ذهنك إلا الزواج ؟

— وماذا أهم من الترقية إلا الزواج ؟.

— بعثة .

وضربت أم حامد على صدرها في ذعر :

— ماذا ؟

— بعثة .

— لمن ؟

ـــ لك !

ـــ أجننت ؟

ـــ سؤالك عجيب ... لمن تكون البعثة إن لم تكن لى ؟

ـــ وتتركنى أنا وأختك يا حامد ؟

ـــ كم سنة فقط ، وأعود الدكتور حامد عبد الكريم .

ـــ دكتور ؟! ألست مدرسا .

ـــ نعم دكتور فى التدريس .

ـــ وتتركنا يا حامد ؟

ـــ أليست مصلحتى هى أهم شىء عندك ؟

ـــ طبعا .

ـــ هذه هى مصلحتى ...

وتطرق الأم وبوادر دمعات تبدو فى عينيها وتفيض ، وتجاهد لسانها كل جهد لتقول :

ـــ ما تراه يا ابنى .

وما تكاد تقول هذا حتى يقول حامد محاولا أن يبعث إلى نفسها بقية من أمل :

ـــ على كل حال المسألة لم تتأكد بعد .

ـــ ربنا يعمل ما فيه الخير يا ابنى .

ـــ أين دولت ؟.

ـــ ذهبت عند خالتك وصفية لتساعدها فى خياطة بعض الملابس .

ـــ خالتى ؟! منذ متى كانت وصفية خالتى ؟

ـــ ماذا جرى يا حامد ؟... كلامى لم يعد يعجبك ... طول عمرك تنادى

وصفية بيا خالتي .

ـــ كلام فارغ !.. ولماذا تذهب إليها دولت ؟.. ألم تجد إلا دولت لتساعدها ؟

ـــ وماله يا بني ؟.

ـــ النهاية ... الغداء جاهز ؟

ـــ جاهز يا بني ... دقيقة واحدة حتى أعده لك .

ويدخل حامد إلى حجرته وما تلبث دولت أن تجيء ... فتاة تخطو نحو شبابها الأول سمحة الملامح بريئة الوجه ملفوفة القوام ريانة العود غضة ، ساذجة النظرات ساجية ، ذات عينين سوداوين ، فيهما حلاوة الشباب الباكر المتطلع إلى المستقبل فى تعجل لا ريث فيه ولا مهل ، رشيقة الحركة عن طبيعة مواتية فى غير كلفة ولا افتعال . وكان وجهها فى إشراقه أشبه بالمرآة الصافية لا يخفى نأمة عن نفسها إلا بدت آثارها عليه فى وضوح أبين من الكلام . ذات شعر كث غزير ناعم ولكنها كانت تقيد كثرته العارمة فى ضفيرة كبيرة تلفها فى إحكام ، ثم تغطيه بوشاح تربط عقدته خلف ذقنها ، فيزيد ذقنها وضوحا وجمالا . لم يكن فى وجه دولت من عيب إلا هذه الأرنبة النافرة فى أنفها ، ولعل بعض الناس يرون فيها جمالا ، أو بلورة لجمال دولت . وقد كانت دولت تحب أخاها حبا عارما فيه إجلال يستره أن يبين ، فقد كان يمثل أمامها العلم والمال والسيطرة ، وهى أمور تفقدها جميعا فقدانا تاما . وقد كان كذلك يمثل أمامها حياتها التى تحياها ، فقد كانت بغيره خليقة أن تضيع فى الزحام وهى بلا سلاح إلا هذه الصبابة الضئيلة التى تصيبها أمها كل شهر كمعاش لأبيها . وهكذا كانت دولت تجد فى أخيها كل شيء تفقده كما كانت تجد فيه نفسه كل شيء تملكه .

دلفت دولت إلى البهو فوجدت أمها تضع الأطباق على المائدة فهمست



وكأنها تخفى جرما :

ـــ هل جاء حامد ؟

فأجابتها أمها فى صوت متردد بين الهمس والجهر :

ـــ من زمان .

وعادت دولت تسأل هامسة :

ـــ أسأل عنى ؟

ـــ نعم .

ـــ وماذا قلت له ؟

ـــ الله ، ألا ينتهى هذا التحقيق ؟ وماذا يمكن أن أقول ... قلت المكان الذى ذهبت إليه .

ـــ هل غضب ؟.

ـــ وما شأنك أنت ما دمت أنا التى أمرتك أن تذهبى ؟ ادخلى هاتى الأكل بلا مسخرة .

وامتثلت دولت لأمر أمها وأقبلت الأسرة تأكل صامتة أفواهها ، صاخبة عقولها ، يضج فى داخل كل منهم زحام من الآمال والمخاوف والظنون . فأما رب الأسرة فمفكر فى هذا الباب الجديد الذى أومأ إليه صديقه بالديوان العام ، يكبر الأمل فى نفسه حتى ليكاد يصبح حقيقة مجسمة يعيشها بكاملها فهو يتخيل نفسه فى لندن ذاتها ، ويمتد به الخيال ويمتد حتى ليرى نفسه أستاذا فى الجامعة يرتدى روبها ويحاضر طلبتها فى سمته المترفع ويده فى جيبه . وبلا وعى يضع يده فى جيبه فتهوى إلى الفضاء فقد ارتدى الجلباب ولم يكن للجلباب جيب ، فيصحو وقد اضمحل الأمل وذوى حتى ليكاد يضرب عنه صفحا ، مكتفيا بأن يصبح مدرسا فى المدارس الثانوية . ولكن لماذا يضيع الفرصة ...؟ ولا يزال بآماله

يترجح بينها حائرا راغبا حينا فى الأمل الكبير من الدكتوراه راغبا عنه حينا آخر خشية أن يخذله الديوان . وهو مع تفكيره العميق يطحن الأكل طحنا غير شاعر بما يأكل ، وإنما هو يحرك فكيه حركة وانية واثقة ، وعيناه فى شرود ، وذهنه يتجول بين لندن والمدارس الثانوية بالقاهرة .

وأما أمه فمفكرة هى أيضا فى هذه المشكلة الجديدة التى أضافها ابنها إلى مشكلة زواج دولت ، فهى تفكر فيما سيؤول إليه حالهما إن سافر ابنها ، وكيف تدبر أمرها بالمعاش الضئيل الذى تركه لها زوجها . وحين تضيق بها السبل يذهب بها التفكير إلى ما قد يستدعيه الحال عندئذ من أن تعمل ، ثم ما يلبث أن يردها عن هذا التفكير علمها بكبر سنها وجهلها بالعمل خارج بيتها جهلا تاما . وما تلبث أن تدير بذهنها فكرة أخرى ... لماذا لا تعمل دولت ؟ وتنظر إلى دولت فتجدها ذاهلة هى الأخرى تقلب النظر بين أمها وأخيها وقد ران عليهما هذا الصمت المطبق .

كانت دولت حائرة لا تدرى ماذا تقول ، فهى إن نظرت إلى أخيها طالعتها منه هذه النظرة الذاهلة تنبعث من عينيه العميقتين وقد ازدادت ملامح وجهه الدقيقة صرامة وقوة . ثم ما تلبث أن تجد أساريره قد استرخت هونا ولكن إلى حين ، فما هى إلا خلجة عين حتى تعود إليه الصرامة والإصرار . وهى إن نظرت إلى وجه أمها الذى كسته الأيام ترهلا وطيبة ، والذى عرفت فيه الرضا المذعن والاستسلام الهادئ وجدته وقد غشيته كآبة وتفكير ، فهى ذاهلة عما حولها لا تكاد تحس بأحد ولا بشىء . ويصخب عقل دولت حائرا بين الظنون والتخمين ، فهى تفكر فى أمر وتكاد تؤكد أنه سبب هذا الصمت الذاهل الحيران : ثم ما تلبث أن تنفيه فى سبب آخر ما يلبث أن يتداعى كسابقة ، وهى حائرة لا تدرى ماذا تقول أو تفعل إلا أن تلوك الطعام كما يفعل أخوها وكما تفعل

أمها غير دارية من أمرهما أمرا . وما يزال ثلاثتهم فى شرودهم هذا الذاهل حتى ينتهوا من طعامهم صامتين . ويقوم حامد إلى حجرته شأنه كل يوم ، وإن كان فى يومه هذا قد عزم على أن يستبدل بالنوم كتابة مذكرة بحالته لتقدم إلى مراقبة البعثات .

وتذهب الأم إلى الشباك تطل منه على الحارة ، بينما تقوم دولت بتنظيف المائدة .

تظل الأم رانية إلى الحارة . الدكاكين مقفلة والطريق خال إلا من متأخر يروده منهوكا عجلا يريد أن يسارع بالعودة إلى داره فيعوقه تعب النهار ، فالهمة بادية فى عينيه وإن قصرت قدماه عن همته ... وتطول الجلسة بمريم ، ويبدأ التجار والصناع فى العودة إلى محالهم . وتكثر الأرجل الضاربة فى الحارة ، ويتجمع أصحاب المحال فى أماكنهم التى تعودوا التجمع فيها ، وترتفع أصوات بالتحايا وأخرى بالنكات وأخرى بالضحك وأخرى بالزجر يلقيه كل رئيس عمل إلى عماله مظهرا سيطرته عليهم . وترتفع أعين إلى الشبابيك ، وتتابع أعين أجسام المارات ، وتعلو بين الحين والحين تكبيرة لله أريد بها وجه الشيطان ، أو مصمصمة شفاه أريد بها إعلان غزل . ولا تعدم الحارة صوت حاج فيها يزع الغاوين ينصحهم بالاحتشام ، فيلقونه بالصمت حينا أو بالقول الرضى الخجلان حينا آخر .

ويخيل لمريم أن باب بيتها قد فتح وأقفل ، ولكنها لا تعنى بالالتفات إلى الباب فقد كانت بتفكيرها المضطرب فى شغل شاغل . وما يلبث ابنها حامد أن يبدو فى الطريق فى مشيته البطيئة المليئة بالعظمة ، تلك العظمة التى لا تتفق وجسمه القمىء الضئيل أو وجهه الدقيق القسمات يرين عليه الجد والعمل من طول ما تعود الجد والعمل ، فعينان غائرتان عميقتان ، ووجنتان لاصقتان بأسنانه ، وفم

مطبق لا ينفرج ، وطربوش لاصق برأسه فى ميل لا يختلف فى يوم عن يوم حتى ليحسب من يراه أنه لا يخلعه فى ليل أو نهار ؛ فإنه من العسير أن يتأتى لأحد بالغة ما بلغت دقته ، أن يظل طربوشه فى وضع واحد لا ينحرف عنه قيد شعره ، إلا إذا كان لا يخلعه .

ويسير حامد فى طريقه بطيئا كما عهدته الحارة ، عظيما كما عهده أهلها . وتراه أمه يرفع يده بالتحية للقوم الجلوس ، وتسمع تحيته التى عهدتها وتعودت أذنها أن تلتقطها من بين الأصوات الصاخبة ، تلك التحية الواهنة النغمة الأنيقة المخارج . ورأت مريم القوم يجيبون تحية ابنها ، وتفيق على أصواتهم من سرحتها فأصواتهم اليوم غيرها بالأمس ... كانوا يحتفون بابنها إذا مر وحيا ولكنهم اليوم يردون تحيته وكأنهم يقومون بواجب فرضه عليهم القرآن الكريم من رد التحية بأحسن منها . بل إنهم حتى لا يردونها بأحسن منها ولا بمثلها ... إنما هى همهمة لا تكاد تبارح شفاههم إلا لتسقط فى الطريق قبل أن تبلغ الأذن ، فما تعى الأذن منها إلا طنينا . وتدرك أم حامد أن فهمى قص على إخوانه من أهل الحارة إباء حامد أن يزوجه دولت ، وتدرك الأم أن أهل الحارة أحسوا كبر حامد من رفضه هذا فهم ساخطون يفرجون عن سخطهم فى هذه النغمة المتخاذلة التى أجابوا بها تحية حامد . ويدرك حامد هذه المعانى ولكنه لا يعنى بها إلا هنيهة ، ثم ينصرف بتفكيره وجسمه أيضا إلى هذا الأمل الذى يسعى طريقه إليه .

٥

ظل خيرى فى مذاكرته تلك التى لا تغنى ، يقرأ لحظات بذهن شارد ثم يرفع رأسه عن الكتاب ليفرغ للشرود فراغا كاملا . ثم يعود شاردا إلى الكتاب مرة أخرى ، وهكذا حتى وجد حامد أفندى واقفا على رأسه يلقى عليه التحية فى ود ظاهر وإشراق :

— السلام عليكم .

ويفيق خيرى تماما إلى أستاذه ويقف ليحييه ، ويسأله حامد :

— وأين محسن ، ألم يأت بعد ؟

— والله أخته الصغيرة مريضة ، وقد اتفقنا أن نؤجل الدرس إلى الغد .

— أهى مريضة إلى هذا الحد ؟

— لا ولكن رأيته مشغول الخاطر ، فاعتقدت أنه لن يكون صالحا للدرس اليوم .

— ما هذا الكلام يا أخى ؟.. لقد اقترب الامتحان .

— نعم صحيح ... ولكن أخته عزيزة عليه جدا .

— أعتقد أن المذاكرة ستشغله عن التفكير فى مرضها ...

— أترى ذلك ؟.

— طبعا .

— نطلبه فى التليفون ليأتى .

— ولماذا لا نذهب إليه نحن ... فنطمئن على أخته من جهة و ...

وقاطع خيرى أستاذه فى لهفة :

ــ فكرة ... هيا بنا .

وهكذا وجد اقتراح حامد نفسا متوثبة لتنفيذه ، وقد كان خيرى خليقا أن يكون هو المقترح ولكن من أين له الذهن الذى يداور ويخلق المعاذير وهو فارغ لتوه من هذا الحديث الخطير الذى دار بينه وبين أمه ؟ لقد كان مشغولا عن وفية بها ... كان مشغولا عن خلق المعاذير للذهاب إليها بالتفكير فى زواجه منها .

أما حامد فقد كان شغله الشاغل أن يلقى عزت بك وأن يجعل رجاءه لديه لندن بدلا من المدارس الثانوية ، والتقت من حامد وخيرى الرغبتان وإن اختلفت الدوافع وتباينت الأسباب .

* * *

كان محسن جالسا إلى أخته فايزة لا يرفع نظره عنها وهى مغمضة العينين بلا حديث ولا مطالب إلا أنفاسا تتردد متسارعة ، وقد جلس أفراد الأسرة الآخرون حولها شأنهم شأن محسن لا يتكلمون وإنما أصبحوا جميعا عيونا لا تميل عن طفلتهم الحبيبة . وجاءت الخادم تنبئ محسن أن خيرى وحامد ينتظرانه فى الطابق الأسفل ، وحاول أن يستدعى خيرى ليعتذر إليه ولكن أباه قال له :

ــ لماذا لا تنزل ؟.. انزل أنت فأختك بخير ، وسألحق بك أنا أيضا بعد قليل .

ويصدع محسن بأمر أبيه وينزل إلى أستاذه وقريبه .

ويسأل خيرى فى لهفة عن صحة فايزة ، كما يتظاهر حامد بهذه اللهفة نفسها ، ويبقى خيرى على محسن ذلك النقاش الذى دار بينه وبين حامد والذى أدى إلى مجيئهما . وما يكاد خيرى ينتهى من الحديث حتى يدخل عزت بك فيسلم عليهم ، فيقوم حامد فى احتفاء كبير ويتقبل السلام فى احتفاء أكبر ، ثم يسأل فى

إشفاق وحزن يبدو صادرا من أعمق أعماق نفسه :

ـــ سلامة الست الصغيرة .

يقول عزت بك فى أدب رقيق :

ـــ إن شاء الله خير ، أنا على موعد غدا يا أستاذ حامد مع وزير المعارف لأرجوه فى مسألتك .

ويقول حامد فى أدب شديد منتهزا الفرصة فى مهارة :

ـــ ألف شكر يا سعادة البك ... الحمد لله أن سعادتك لم تذهب بعد .

ـــ لماذا ؟ هل تمت المسألة ؟.

ـــ أبدا ! ولكنى عرفت اليوم أن هناك بعثة من دفعتى ستذهب إلى لندن وأنا من أوائل الدفعة ، فإذا أمكن أن تزكينى سعادتك لأرشح فى هذه البعثة تكون سعادتك قد أديت لى جميل العمر .

ـــ بكل سرور يا أخى ... هل كتبت مذكرة بهذا الشأن ؟.

ـــ نعم ... ها هى ذى .

وكأنه كان على موعد مع هذا اللقاء الذى هيأته له ظروف متضافرة من مرض فايزة وعدم خروج عزت ، ثم من رغبة عزت أن يطمئنه على المسعى الذى رجاه فيه ونزوله إليه ... ظروف متنافرة تجمعت خيوطها من كل منحى فى الحياة تمهد له هذا اللقاء وتتيح له أن يقدم المذكرة إلى عزت شخصيا بلا وسيط من خيرى أو محسن .

ويخرج عزت عائدا إلى ابنته . ويعود الأستاذ مشرقا مرحا إلى تلميذيه بهذا المرح ، فأما محسن فمشغول بأمر أخته ، وأما خيرى فمشغول بأختى محسن جميعا . ويدرك حامد ألا فائدة ترجى من الدرس فى يومهم هذا ، ويصبح الدرس الذى كان مهما لديه غير ذى قيمة الآن ، فقد أتى له المجيء إلى محسن

بالفوائد التى كان يرجوها منه ، وأصبح الامتحان الذى كان قريبا لا يحتمل تأجيل درس أمرا يسهل التغلب عليه . وهكذا اقترح فى جرأة :

ــ لنؤجل الدرس اليوم ، فإنى أراكما مشغولين بفايزة .

ويقول محسن :

ــ والله أنت محق يا أستاذ ... أنا لا أستطيع أن أركز ذهنى فى شيء اليوم .

ويرى خيرى أن أمنية حامد قد تحققت دون أن تتحقق أمنيته هو ، فيسارع قائلا :

ــ أتنتظرنى دقائق يا أستاذ حتى أرى فايزة وأعود ؟

ولكن حامد تواقا إلى أن يخلو بالطريق ليفكر وحده فى أعقاب هذا اللقاء الذى تم بينه وبين عزت فهو يقول :

ــ ولماذا العجلة يا أخى ؟.. على مهلك أنت وأستأذن أنا .

ويفرح خيرى بهذا الاقتراح ويقول :

ــ أترى ذلك ؟.

ــ نعم ... فنحن ذاهبان من طريقين مختلفين ... أستأذن أنا ... السلام عليكم .

ويخرج حامد ، ويصعد خيرى ومحسن إلى الطابق الأعلى فيجدان الأسرة كما هى فى غرفة فايزة . ويلقى خيرى نظرة على المريضة ، ثم يخرج إلى البهو ويتبعه محسن فيقول له :

ــ ادخل أنت عند أختك ، وسأنتظر أنا أمى هنا فهى قادمة لترى فايزة ، وسآخذ أنا السيارة إلى البيت .

ويحاول محسن أن يجلس معه فيهدده إن فعل أن يترك البيت . فلا يجد محسن مناصا من طاعته .

* * *

يبقى خيرى منفردا لحظات ، ثم ما تلبث وفية أن تخرج إليه وتعجب لوجوده فما كانت تعلم أنه ما زال بالبيت . تلقى إليه ابتسامة وتذهب إلى الخدم تأمرهم أن يعدوا مشروبا ساخنا لأختها ، ثم تعود إلى خيرى فتجلس إليه .

يرنو خيرى إليها طويلا حائرا لا يدرى كيف يبدأ الحديث ، وتظل هى تنتظر أن يفرج شفتيه عن أى كلام ، حتى إذا يئست قالت :

— لماذا لم تدخل ؟.

وأفاق خيرى دهشا يسأل :

— أين ؟

— عند فايزة .

— آه ... كيف هى الآن ؟

— الحرارة مرتفعة .

— بسيطة إن شاء الله ... وفية .

— هه .

وحل الصمت بينهما مرة أخرى ، ثم عاد خيرى يقطعه قائلا فى نفس النغمة الملهوفة التى ناداها بها :

— وفية .

وتطلق وفية « هيه » ممدودة كأنما خيل إليها أنه لن يسمعها إذا هى لم تمدها وإن تكن قد صحبتها بابتسامة عذبة ، ويتحفز هو مرة أخرى وهو يقول :

— وفية هل ... هل ... .

— هيه ... هل ماذا ؟

ويومض فى ذهنه باب آخر يستطيع أن يدخل منه إلى الحديث الذى يريد ، فيقول :

— هل تعرفين ماذا قالت لى نينا اليوم ؟

وازدادت الابتسامة إشراقا فى وجه وفية وهى تقول :

— وكيف أعرف ؟

— هل تستطيعين أن تحزرى ؟

وابتسمت وفيه وهى تقول :

— اذكر رأس الموضوع على الأقل .

ولم يكن خيرى يتوقع هذا السؤال ، فحار ماذا يقول إلا أن يردد فى محاولة ستفكير :

— رأس الموضوع ... رأس الموضوع .

— نعم ... فيم كان حديثكما ؟.

— احزرى .

— اذكر لى الموضبوع ، وسأحزر التفاصيل .

وتومض الكلمة المناسبة فى ذهن خيرى، فيقول :

— نجاحى ... إذا نجحت ...

— تشترى لك سيارة .

ويضحك خيرى قائلا .

— لا ... لن تشترى لى شيئا .

— إذن ...

— إذن ستقدم لى أعظم أمل فى حياتى .

— ماذا ... ما هو هذا الأمل ؟.

— قولى .

— يا أخى أنا أسلم بغبائى ... قل لى ... ماذا قالت لك ؟

وتعود اللعثمة إلى خيرى عاجزا كل العجز أن يكمل ، راغبا فى إنبائها رغبة تأخذ عليه مشاعره ، وبين العجز والخجل والرغبة يرتبك خيرى وتكاد تدرك وفية . ويجمع خيرى بعض شجاعته ليقول ثالثة فى حيرة وارتباك :

— وفيه هل ... وفية ...

وقبل أن يكتمل الكلام ليكون شيئا مفيدا يرتفع صوت الخادم معلنا قدوم سميرة هانم ... وتقوم وفية قائلة :

— عمتى .

وتنزل السلم لتستقبلها ، ويظل خيرى فى مكانه ينتظر أمه حائرا ما يزال ، لا يدرى أيفرح أن طالت بهما الجلسة بعض الشيء فاستطاع أن يومض بما فى نفسه ومضا لا يكاد يبدد ظلاما ... أم يلوم نفسه هذه الخجلى دائما والمترددة العاجزة التى لا تستطيع أن تترك لسانه وشأنه ليقول مرة — ولو واحدة — ما لا بد أن يقال .

وتصعد أمه وهو فى حيرته ما يزال ، وقبل أن تقول أمه شيئا يسارع هو قائلا :

— أتسمحين لى بالسيارة أصل بها إلى البيت وأعيدها ؟

وتقول الأم :

— ولماذا لا تنتظر حتى نذهب معا ؟

— أريد أن أذاكر .

وتبتسم الأم ... فقد أصبح للمذاكرة أسباب قوية تصل إلى أعماق الفؤاد وهى تدرى ... ومن خلال ابتسامتها تسمح له بالسيارة .

وفى الطريق يعود خيرى إلى تفكيره ... ترى أفهمت وفية أى وعد بذلته أمه إن هو نجح ... لقد فهمت ... وإلا فما هذه الغلالة الوردية الرقيقة التى كست

وجهها ... ويريد أن يعود إلى لوم نفسه ثم ما يلبث أن يثوب ... ماذا تراني كنت قائلا ... أحبك ؟! ألا تدري ؟... إذن كنت أسألها أتحبينني ؟! ألا أدري؟.. وهل يرضى لي حيائي أو حياؤها أن أقول أو تقول ... هو الحب ما بيننا يقوله الضياء الذي يحيط بنا إذا التقينا ، واللهفة التي أحسها وتحسها إلى هذا اللقاء ... كيف أقول ؟.. وكيف تقول ؟.. أتراني أقبل أن تقول لي أحبك ؟.. لا ... أم تراها تقبل أن تسمعها مني ؟.. إنما حبنا أعظم من أن تعبر عنه كلمة مهما تكن خالدة بعيدة الأصوال في الزمان الماضي ، باقية على كل زمن مستقبل . ولكن الهوى لعذري بيننا ، ولكن التقدير الذي أكنه لها ، ولكنه التقاليد التي ربينا أنا وهي في ظلها ... كل هذا يمنعها ويمنعني أن تقول أو أقول . ألا ما أجمل أن تجمعنا جملة واحدة ... أنا وهي .. اهدئي إذن يا نفسي فهكذا أنت وما كنت لأكلفك أمرا لم تتعوديه ... إنها تعلم ... ولم يبق إلا أن أذاكر ... لا شيء إلا أن أذاكر ... ألا ما أهون العقبة التي تقف بي دونها ... وأفاق خيري من تأملاته على صوت السائق وهو يقول :

— خيري بك ... خيري بك ... سأتأخر عن الست .

— ماذا ... هل وصلنا ؟.

— منذ نصف ساعة . نحن هنا يا خيري بك من نصف ساعة .

ويبتسم خيري وينزل من السيارة . الابتسامة تعلو شفتيه ، وأفكار كثيرة كلها باسمة تدور في ذهنه ... وفي قلبه .

٦

لم يكن همام بك ينتظر زائرا فى يومه هذا ، ولا كان مرتبطا بموعد ولا كان راغبا فى الذهاب إلى المقهى . وتذكر أنه منذ زمن بعيد لم يخرج مع زوجته إلى مكانهما المفضل بجانب الأهرام ، فقد كانا يريان فى الذهاب إلى ذلك المكان نزهتين لا واحدة ... نزهة الطريق ونزهة الجلسة .

وظلت سميرة هانم تعين زوجها فى ارتداء ملابسه حتى أتمها ، وخرج إلى غرفة الجلوس ينتظر زوجته أن ترتدى ملابسها هى الأخرى . ولم ينس قبل أن يتركها أن يطلب إليها أن تعجل حتى لا يفاجئهما زائر غير منتظر . لم يكد همام بك يستقر فى كرسيه حتى قدمت إليه الخادم تنبئه أن فواز بك فى الطابق الأسفل ينتظره .

وقام همام بك من فوره وذهب إلى زوجته ينبئها بقدوم الزائر ، وكأنه خشى أن تكره زوجته قدوم صديقه أو تكره صديقه ، فطمأنها أنه سيصحبها إلى النزهة الموعودة عند خروج فواز . ولم تكن سميرة هانم فى حاجة إلى هذا الوعد لتخفى غضبها عن زوجها فإنها لم تتعود أن تظهره على غضبها ... وإن كانت لا تحب فى حياتها شيئا قدر حبها للخروج مع زوجها ، وما أندر ما كانت تخرج مع زوجها .

فواز بك نافع صديق همام بك منذ كانا طفلين ، ورثا الصداقة عن أبويهما اللذين كانا صديقين أيضا . وقد جمعت الأعمال المشتركة بين الصديقين فتوطدت بينهما الصلات ، ثم جمعت بينهما الأزمات فوقفا دونها يدا واحدة وقلبا واحدا يخشى كل منهما على صاحبه ما يخشى على نفسه . وقد ضاربا معا فى البورصة وخسرا فيها كل شىء ، ثم جاهدا حتى استردا ما خسرا . وحينئذ توقف

همام عن المضاربة ناظرا إلى أولاده مشفقا أن تلتهم المضاربة ما لم يصبح حقا له وأصبح حقا لأولاده . أما فواز فقد صمم على المضى فى المضاربة فصارت حياته سلسلة من الصعود والهبوط ، فهو إما فى قمة الجبل أو فى حضيض الهاوية . ولم يستطع يوما وهو فى قمة الجبل أن ينظر إلى الحضيض فى خشية فيكف ، فقد أصبحت المضاربة تسرى مع دمه لا يستغنى عنها ، أو يستغنى عن دمه نفسه .

ولم يمنع توقف همام عن المضاربة ومضى فواز فيها صداقتهما أن تظل كما هى . وكثيرا ما حاول فواز أن يغرى صديقه بصفقة يراها رابحة ، ولكن همام كان قد أقلع وما كان ليعيده إلى البورصة إغراء مهما يكن جامحا . بل لم تكن تغريه تلك الذكريات التى كان يستعيدها صديقه أمامه ، أيام كانا والفقر يطل عليهما بوجهه الكالح الشاحب الكئيب ، ثم ينشب فيهما أظفاره الضارية المرنة فما تند عن واحد منهما أنة أو آهة ، وإنما يلقيان الفقر والغنى معا بذلك الوجه الجامد تعود الأحداث سعيدها وشقيها ، فسيان عندهما فقر أو غنى . هكذا كانا يبدوان للناس وإن أحرقت الخسارة كبديهما ، وإن زلزلت قلبيهما ، ولكنهما لا يظهران أحدا على ما تنطوى عليه جوانحهما من حريق أو زلزال ... كبرا منهما وتعاليا على الأحداث . لقد كانا نوعا من الرجال ينشب أظفاره فى الزمن فلا يطيق الزمان أن يطيح به .

لم يكن إغراء الذكريات ليجدى فى جذب همام إلى المضاربة ثانية ، وقد كان يجهد فى دفع الإغراء الذى ينتابه من ذكريات الفقر جهدا أشد عنفا مما يبذله فى دفع إغراء فواز إياه بالربح الوفير . فقد تجد الذكريات مسارب إلى النفوس يعجز عن العثور عليها المال بجلاله وسلطانه .

حتى لقد هم همام يوما أن يعود إلى المضاربة فما وقف به إلا ابن عمه عزت الذى يرى فى البورصة مقبرة لأموال الكرام ولكرامتهم معا . وقد ألح على همام

حتى ثناه عن هذه المحاولة فلم يعد إليها ثانية .

أما فواز فقد كان يرى فى المضاربة عملا طبيعيا له فهو يقامر فيها بأمواله جميعا ، فإن لم تكف عمد إلى صاحبه وطلب إليه أن يضمنه لدى من يقرضه مالا . وما كان همام يتردد لحظة إذا قصده صديقه . ولم يكن فواز فى هذا جائرا على صديقه فقد كان يرى فيما يفعله أمرا طبيعيا لا يفكر فى غيره . ولم يكن همام يضيق بطلب صديقه وإن ساررته الخشية ، إلا أنها خشية لا تزيد فى خاطره على همسة ، ما تلبث أن تزول فى دوامة الصداقة والأخوة والنجدة التى تزخر بها نفسه .

كان فواز جالسا فى مكتب صديقه ينتظر نزوله ، ولم يطل به الانتظار فسرعان ما بدا على باب الحجرة محييا تحية الأخ الهينة العميقة .

كان التناقض بين الصديقين فى الشكل عجيبا . فأما همام فطويل القامة عريض المنكبين يضع طربوشه معتدلا على رأسه ، ويضع على فمه ابتسامة مطمئنة لا تبارحه يرى فيه الرائى بشرا وثقة وهدوءا ، وقد كان وجهه مستديرا فى غير امتلاء ، ذا شارب متقن الصغة ، وكانت سوالفه كثة سوداء أيضا كشاربه ، وكانت عيناه عميقتين فيهما ذكاء وفيهما كوجهه اطمئنان وهدوء . أما فواز فقد كان قصير القامة ملىء الجسم والوجه ، حليق اللحية والشارب والرأس أيضا وإن تكن الأيام هى التى تولت عنه نزع شعر رأسه ، ولم يكن ضاحكا كصديقه وإنما هو متجهم الوجه إلا حين يسمع نكتة فإنه يخف إلى الضحك لها خفة الذكى اللماح ، وقد كان هو نفسه مرح العبارة سريع اللفتة ضاحك الحديث . شىء واحد اتفق فيه الصديقان ، هو ذلك الاطمئنان الذى يشيع فى وجه كل منهما .

التقى الصديقان ، ولم يمهل فواز صديقه أن يجلس بل سارع قائلا :

— أما صفقة يا همام !

وازدادت الابتسامة اتساعا على وجه همام وهو يقول :

ـــ ألم تيأس منى بعد ؟

ـــ بل ألم تعقل أنت بعد ؟

ـــ وأى جديد يدعونى إلى العقل الذى تحسبه أنت عقلا ؟

ـــ أرباحى ، مكسبى ، انظر ... أنا أغنى منك اليوم عشرات المرات .

ـــ المهم أن تظل كذلك .

ـــ ولماذا لم تسمع كلامى ؟ كسبت من الصفقة الأخيرة ثروة ، ثروة طائلة ، ودعوتك لتربح معى فرفضت .

ـــ الحمد لله ، كل رجائى أن أترك ما جمعت للأولاد .

ـــ أليس لى أولاد أنا الآخر ... مم تخاف ؟

ـــ ألا تعرف ؟

ـــ الفقر ؟

ـــ أهو قليل ؟

ـــ لم تخفه أبدا .

ـــ كنت أخافه دائما كما تخافه أنت دائما . ولكننا كنا نخفى خوفنا .

ـــ أتذكر ؟

ـــ أذكر ... وهل يمكن أن ننسى ؟

ـــ أتذكر يوم خسرنا كل أموالنا وخرج كل منا مدينا بعشرين ألف جنيه

ـــ وهل ينسى ذلك اليوم ؟ جلسنا فى المقهى نلعب النرد ، وجاء صديق محمد باشا يوسف يهمس فى أذنى أنه يريدنى لأمر جليل .

ـــ نعم ، كان محتاجا لألف جنيه سلفة .

ـــ يرحمه الله ، كان رجلا .

— لا أنسى ضيقك وألمك . يومذاك لم تهزك الكارثة وهزك أن صديقا لك قصدك وليس معك ما تجيب به طلبه ... والله إنك رجل يا همام ... اقترضت المبلغ بفائدة بشعة وذهبت به إلى صديقك .

— وهل كان يمكن إلا هذا ؟.

— رجل والله .

— الله يرحم محمد باشا . رد المبلغ وتوفى ولم يعلم أنى كنت أشد منه إفلاسا .

— ومع ذلك تخاف ؟

— الأولاد يا فواز ... الأولاد .

— اسمع ... لماذا لا تكتب الأرض باسم زوجتك ؟

فقال همام جازعا :

— أتعنى أهرب أموالى ؟

— وما البأس !

— أخون ثقة الناس ، أسرق يا همام ... أترضى لى ذلك ... أتفعلها أنت ؟

— يا أخى والله ...

— ماذا ؟

— لقد اضطررت أن أفعل هذا .

— ماذا ؟!

— أليس لى الحق أن أخاف أنا أيضا ؟

— هذه سرقة يا فواز !

— وماذا أفعل ؟

— توقف عن المضاربة .

ـــ لا أستطيع ، وأنا لم أبتدع شيئا جديدا .

ـــ لا يا فواز ... صداقتى بك فى كفة وبقاء أموالك باسم زوجتك فى كفة .

ـــ على مهلك يا همام .

ـــ أبدا ... غدا ... غدا يا فواز ... غدا وليس بعد غد .

ـــ أترى هذا ؟

ـــ ولا صداقة بيننا حتى أرى أموالك باسمك ... إلا هذا يا فواز ... إلا هذا .

ـــ أمرك ... لم يكن ضميرى مستريحا أنا أيضا .

ـــ بل كان يجب على ضميرك ألا يقبل هذا من أول الأمر .

ـــ طيب يا سيدى ... أمرك .

ـــ بل أمر الأخلاق يا رجل . غدا يا فواز .

ـــ غدا يا همام ... غدا إن شاء الله .

ـــ وسأنسى لك هذه الحكاية وكأنها لم تكن .

ـــ لهذه الدرجة أنت غاضب ؟!

ـــ أنت تعرف إلى أى مدى أنا غاضب .

ـــ والله لقد جئت إليك من أجل هذا ، فمنذ نقلت أموالى وأنا أحس شيئا يخزنى فلا أستطيع النوم أو الاستقرار .

ـــ أتنسى ما فعلناه مع حمدى الأسوانى لأنه هرب أمواله ؟ ألم أشتمه فى وجهه وأيدتنى أنت ؟

ـــ انظر إليه الآن ، خسر مائة ألف جنيه ولم تمس أمواله بسوء .

ـــ ولكنه بلا كرامة .

ـــ أى كرامة تقصد ؟ الناس جميعا يحترمونه !

ـــ يحترمونه فى وجهه ، ويحتقرونه إذا ابتعد عنهم .

ـــ يا أخى أنت مبالغ ... انظر إلى سيد باشا الحديدى ، أكل أموال أولاد أخيه وخرجوا إلى المقاهى يسألون الصدقة وقد ترك لهم أبوهم ألف فدان ، ومع ذلك يحترم الناس سيد باشا ويحتقرون أولاد أخيه . الناس لهم الغنى لا يهمهم من أين أو كيف أصبح غنيا ، المهم عندهم أنه غنى .

ـــ والله ... والله .

ـــ أتفكر ؟.. إن كنت تحترمه ، فأنت لست صديقى !

ـــ ماذا ؟ أأصبحت صداقتى هينة عليك إلى هذا الحد ؟

ـــ إنما أنت عزيز على ؟ وهذا الذى تقوله كبير وليس هينا كما تظن .

ـــ طيب يا سيدى وهو كذلك ... أعود إليك غدا إن شاء الله ومعى ما يرضيك .

ـــ وإنى منتظر .

٧

طال مرض فايزة والمسكينة لا تملك إلا طاعة الأطباء دون أن تجدى الطاعة أو يجدى الأطباء . وقد كان خيرى خليقا أن يزورها فى كل يوم ليرى وفية ويطمئن على فايزة ، ولكنه حين أعمل عقله وجد أن الامتحان الحاسم أصبح على الأبواب ، ووجد أن الاطمئنان على فايزة يمكن أن يتم عن طريق محسن ، أما مذاكرته هو لدروسه فلا يمكن أن تتم إلا عن طريق المذاكرة نفسها بلا طريق آخر . واستطاع بالأمل الذى وضعته أمه له عند النجاح أن يكبح هوى قلبه وإلحاحه عليه أن يزور وفية ، فظل فى بيته وقد تولاه سعار من المذاكرة . وطلب إلى محسن أن يأتى ليذاكر معه حتى يتهيأ لهما جو بعيد عن مرض فايزة ، وحتى يستطيع محسن أن يبتعد قليلا عن خوفه على أخته ويفرغ إلى هذا الامتحان الذى يتقدم منهما حثيثا لا يوقفه مرض فايزة أو خوف محسن .

كان خيرى حائرا ... أيريد الأيام أن تمضى سراعا فتدنو به إلى الأمل المرتقب ؟ أم يريدها أن تمر رهوا بطيئة وهى تحمل فى قوابلها الامتحان وما فى الامتحان من رعب ؟.. حيرة سرعان ما تدور بها المذاكرة فتنزوى فى طوايا النفس لا تعود إلا عند فراغ — وما أقل الفراغ — أو قبيل نوم — وأين منه النوم ؟

أما محسن فقد كان يجد فى الذهاب إلى خيرى مسلاة عن هذا المرض الذى انصب على أخته فكأنما انصب على البيت جميعا ، وقد كان خليقا أن يجد عند أصدقائه فى المقهى هذه المسلاة نفسها ، ولكنه لم يجد فى نفسه خفة إلى مرح أصدقائه هؤلاء ، كما أن خيرى لم يتح له الذهاب إليهم فهو ما يزال به يذكره بقرب

الامتحان وبضرورة المذاكرة حتى لوى به عن طريق المقهى إلى البيت .

كان خيرى ومحسن منهمكيْن فى المذاكرة حين دلفت نادية إلى الحجرة فلم يحس بها واحد منهما . ووقفت نادية قليلا ثم ضاقت بهذا الصمت الذى ران على الصديقين . واشتد ضيقها أن لم يرحب بمقدمها أحد ، وهى لم تدخل حجرة إلا واستقبلها الترحيب المرح الفرحان . لم تطق السكوت فقالت فى غضب :

ــ يا سلام ... طيب أنا أيضا أذاكر ولن أكلم أحدا .

واختطفت كتابا وأمسكته وأولت الشابين ظهرها فى سرعة خفيفة طفلة ، وانتبه الاثنان إلى نادية جازعين لصوتها فى الوهلة الأولى ، ثم لم يلبثا أن استغرقا فى قهقهة طويلة . وقام إليها خيرى يعتذر وسعى بها إلى محسن ، وتركا المذاكرة حينا وراحا يحادثان نادية ويحاولان استرضاءها . ولم يلبث خيرى أن رأى الدموع تطفر من عينى محسن فتذكر مثل هذه الجلسة حول فايزة ، وما لبثت الدموع أن طفرت من عينيه هو أيضا فسارع إلى عينيه يزجرهما بيده ، ثم تمالك من أمر نفسه ما كاد يفلت وصاح بمحسن :

ــ ماذا جرى يا أخى لا قدر الله ؟.. إنه مجرد مرض ويزول :

ــ أيزول حقا يا خيرى !

ــ إن شاء الله يا أخى ... لماذا هذا التشاؤم ؟

ــ فقط لو نعلم ما هو المرض !

ــ حرارة ... مجرد حرارة ...

ــ مسكينة يا خيرى ... صغيرة ولا تحتمل المرض !

ــ على العكس فإن الصغار يتحملون المرض أكثر مما نحتمله نحن .

وأخذت نادية بهذه الدموع التى تبادلها الصديقان وعجز عقلها عن فهم الحديث . ولكنها رأت أنه لا بد لها أن تشارك فى الأمر ، ولم تكن تستطيع

المشاركة إلا فى الحديث عن البكاء فهو الشىء الوحيد الذى تفهمه فى كل ما حدث .

— أنت زعلت يا آبى محسن منى ، طيب لا تزعل ... لن أذاكر وسأكلمك ...

وضمها محسن يخفى عنها دموعه ... ولكن خيرى أخذها من بين أحضانه وحملها ليصعد بها إلى غرفتها ، وأراد محسن أن يبقيها فقال خيرى :

— لا ... ليس اليوم ... أعصابك أصبحت تالفة جدا ...

وخرج خيرى فلم يغب غير دقائق ، ثم عاد إلى محسن يقول له :

— قم بنا .

— إلى أين ؟

— إلى منزلكم .

— لماذا ؟

— عجيبة !! أأقول لك إنى أريد الذهاب إلى منزلكم فتقول لماذا ... هل لا بد من مناسبة ؟

— لا أبدا ... أهلا وسهلا ، ولكن المسألة لا تحتاج .

— بالعكس تحتاج جدا ... أولا نتمشى قليلا ونريح أنفسنا ... وثانيا أرى فايزة فإنى لم أرها من زمان ... هيا .

وقاما .

* * *

كان عزت بك الأزميرلى رجلا من رجال السياسة ، وقد كان يلجأ إلى بيته من صخب الحياة التى يحياها وكان يجد الهناءة كلها فى بيته ، فى الجلوس إلى أولاده كلما أتاحت له أعماله هذه الجلسة .

وكانت فايزة أقرب أبنائه إليه فهو شديد الحب لها ، فقد رزقها وهو كبير السن . وكانت فى هذه السن الحبيبة التى لا يستطيع أحد إلا أن يدلل أصحابها . وقد هاله مرضها ، وحين طال بها أصبح يهرب من البيت ويلقى بنفسه فى غمار السياسة ، فإذا وجد فراغا كان يقصد إلى ابن عمه همام محاولا ما وسعه الجهد ألا يعود إلى البيت .

وارتاحت إجلال هانم لغياب زوجها وابنها محسن ، فقد أتاح لها هذا أن تفرغ تمريض ابنتها لا يشغلها عنها شاغل من زوج أو ولد . وأصبحت لا يلازمها إلا ابنتها الكبرى وفية ، فقد كانت هذه عونا لها على هذه الشدة التى طال بها الأمد . وكانت وفية تحب أن تقوم بهذا العون فهى تحب أمها وتحب أختها وتشفق على كلتيهما من الجهد والمرض . وقد أتاح شباب وفية لها أن تبذل الجهد الذى لا تطيقه أمها ، فهى تتولى إعطاء الدواء لفايزة ، وهى تتولى شئون البيت ، وهى تنتظر أباها وأخاها حتى يعودا ، وهى تقوم بهذا جميعه راضية لا تفكر فى شىء إلا شفاء أختها ، وإلا هذا الشىء الذى لا تملك أن تنساه وإن زجرت نفسها وعنفتها أن تذكره فى هذه الأيام التى تمر بهم ... هواها ... إنه لا يستحى أن يذكرها بنفسه فى هذه الأوقات الحالكة من حياتها . بل لقد أصبحت لا تذكره لأنها لا تنساه أبدا . لقد أصبح شعورا ملازما لكل شعور آخر ينتابها ، فهو معها يتردد مع أنفاسها ، ومع مسرى كل تفكير يمر بذهنها ، ومع كل خلجة يختلج بها قلبها .

وأقبل محسن وخيرى إلى البيت ودخلا حجرة فايزة ، ولم تكن بها وفية .

لم يكن خيرى قد رأى فايزة منذ فترة طويلة فجزع لهذا الهزال الذى نزل بها ، ولم يشأ أن يظهر أهلها على ما لاحظه ، وخشى أن يخونه تعبير وجهه فتضاحك وحاول أن يداعب فايزة ففشلت دعابته واستدار يخرج من الغرفة مسرعا . وجلس فى ذلك الركن من البهو الذى حاول فيه أن يبوح بحبه فلم يستطع . ولم

يطل به الجلوس فقد جاء محسن ليجلس إليه ، ولكن ما لبثت إجلال هانم أن دعت محسن ليعود إلى أخته لأنها تسأل عنه . وقام محسن وهو يقول فى تأثر شديد :

ــ إنها لا ترانى كثيرا فى هذه الأيام ، ولهذا تتعلق بى كلما دخلت إلى غرفتها .

فقال خيرى :

ــ لا شأن لك بى ، سأنتظرك هنا حتى تعود .

وذهب محسن إلى أخته ، وراح خيرى يدور بعينه على أبواب الحجرات الأخرى لعله يرى بصيصا ينبئه أن وفية هناك ، ولكنه لم يجد . كاد يسأل عنها الخدم ولكن الخجل منعه أن يفعل . ومنعه أيضا ظهورها من باب الخدم وبيدها إناء ملىء بعصير الليمون .

وقفت وفية حين رأته وقد شاعت فى وجهها فرحة كبيرة لم تبن عنها إلا فى :

ــ أهلا .

ولكنها كانت كافية ليجد فيها خيرى كل ما يتمنى محب أن يجده عند هواه .

وقام خيرى إليها يحمل عنها الإناء وهو يقول :

ــ أهلا بك .

واقترب الحبيبان ، وأنعم خيرى النظر وتقلبت على عينيه طيوف من الفرح والعجب والإشفاق كانت وفية فى شاغل عنها جميعا بفرح لقياه . وحين أفاقا إلى وقفتهما وتنبهت وفية أنه يريد أن يأخذ عنها الإناء قالت :

ــ لا ، سأدخله إليها وأعود ... فإن أمى لا تأمن أن يصنع أحد العصير إلا أنا ...

وتنحى خيرى عن مكانه ذاهلا ما يزال ...

كانت وفية طويلة القامة هيفاء لا هى بالنحيفة ولا هى بالمليئة ، وإنما كما يشتهى الجمال أن تكون . وكان شعرها أسود فاحما كثا غزيرا ينسكب انسكابا ويتهدل على جبينها صقيلا . وكان خيرى يحب منها يدها وهى ترفع خصلات شعرها الجامحة لتعيدها إلى رأسها . وكان وجهها أبيض تشوبه سمرة خمرية ، تشع فيه عيناها السوداوان فى حور شديد لا يشوب بياضهما إلا زاوية حمراء صغيرة فى عينها اليسرى يراها بعضهم عيبا ويراها خيرى جمالا أى جمال . وكانت أهدابها العليا ترتفع فى إباء حتى لتكاد تبلغ أجفانها ، بينما تنسدل أهدابها السفلى طويلة مثل العليا . كانت أهدابها كالزهرة الغضة تفتحت منذ قريب . وكان أنفها دقيقا يتفق وشفتيها الرقيقتين وذقنها الصغير . كان خيرى يحب فى وفية ... وفية ... بكل ما فيها . وقد باغته العجب حين رأى بعض شحوب يكاد يحيل سمرتها إلى بياض ، ولكنه أزمع فى نفسه إلا يفاتحها بما لاحظه .

عادت وفية إلى حبيبها ، وجلست إليه فى المكان نفسه الذى أحست فيه أنه يريد أن يقول فلم يقل ... جلست وهى تقول :

— خير ... ماذا أتى بكما ؟

— أعجيبة أن نأتى !

— نعم الامتحان قرب ... وهذه بكالوريا يا خيرى .

— صحيح ... ولكن ...

وأراد خيرى أن يسكت ولكنه لم يجد بدا من إكمال الحديث فأكمله ، وذكر لها ما كان من دموع محسن ، وما لبث أن تلألأت على أهداب وفية دمعات تأبى أن تسيل أو تغيض . وحاول أن يعتذر ولكنه رأى دموعه هو أيضا تنحدر على وجنتيه . ولم يكفكف دموعها أو دموعه فقد أحس بعد أن رأى فايزة أنه لا بد من البكاء .



ومن بين الدموع روت وفية لخيرى كيف تزداد حالة أختها سوءا فى كل يوم ، وحين سألها خيرى :

ـــ والأطباء ؟

قالت فى أسى :

ـــ يخيل لى أنهم يعرفون المرض ولكنهم يخفونه عنا .

ـــ يخفونه ؟

ـــ يخيل لى هذا .

ـــ لعلهم لم يثقوا منه بعد !

ـــ لا أدرى !

ـــ أتنتظرون أحدا منهم الآن ؟

ـــ نعم ، سيأتى الدكتور عبد الحميد فاضل .

ـــ سأنتظر حتى ألقاه .

٨

كانت دولت تجلس إلى أمها فى سكون وقد أمسكت بيدها قميصا لأخيها ترتق فتوقه ، والأم تنظر إليها بين الحين والحين تريد أن تحادثها فى أمر يأخذ عليها تفكيرها ، ولكنها ما تلبث أن تعيد الكلام إلى داخلها فى تردد حائر .

وكانت دولت تحس عينى أمها كلما صوبتا إليها وتحس رغبتها العارمة فى الحديث ، بل كانت تحس حيرتها وجهادها لنفسها أن تكتم هذا الحديث . الأمر الذى كانت تغباه ولا تعرفه هو موضوع هذا الحديث وإن كانت تظن ظنا يكاد

يبلغ اليقين أنه حديث يدور حول سفر أخيها حامد الذى أصبح وشيكا . ولكن أى شأن لدولت بهذا السفر ؟ لقد عاشت عمرها فى البيت آلة ... آلة لغسل الملابس ولغسل الأرض وللمعاونة فى المطبخ ولشراء الحاجات ولكل ما يتصل بأعمال البيت ، ولكنها آلة بلا رأى ولا رغبة تبديها ولا معارضة ، آلة ... لها كل ما للآلة من حقوق وعليها كل ما على الآلة من واجبات . فعلى الآلة أن تقوم بعملها وعلى صاحبها أن يحميها من الطبيعة فيكسوها إذا كان الكساء يحفظ عليها انتظام سيرها ، ويؤويها إلى سقف إذا كان لا بد لها من سقف ، وعليه أن يلقى فيها الوقود حتى تعمل ... وكانت دولت تثور فى بعض الأحيان كلما هفت نفسها إلى شيء وعجزت عن إبداء رغبتها ، ولكنها ثورة تذوب من فورها فى غمار أعمالها وفى غمار الأحلام التى ترسمها لنفسها عن مستقبل لها فى ظل رجل ... أى رجل فقد كان حديث الرجال يطربها فكانت تتلقفه من أفواه النسوان اللواتى يكبرنها فى السن ، واللواتى لا حديث لهن يدور إلا عن الرجال ... وكانت دولت تقول لنفسها إذا مال حديث أولئك النسوة إلى الأطفال ... ومن أين يأتى الأطفال ؟! وهكذا كانت تلتذ هذا الحديث عن الرجال ، فإن انحرف حورته فى ذهنها إلى الوجهة التى ترضيها . فإن خلت إلى نفسها خلت وفى نفسها ذخيرة وافرة من الأحلام والآمال ... فى ظل رجل ... أى رجل .

وهكذا وجدت دولت نفسها حائرة فى أمر هذا الحديث الذى تريد أمها أن تلقيه ثم تكتمه . فهى تعلم أن لا شأن لها بأى شأن مهما يكن متصلا بحياتها فهى لم تعوّد أن تتدبر حياتها ... آلة ... ومهما تكن لهذه الآلة من أحلام وأفكار وآمال وهواجس إلا أنها تعلم أنها أمام أمها وأخيها بلا أحلام ولا أفكار ولا آمال ولا هواجس وقد تبدى رأيا أو تطلب شيئا ، ولكن هذا لا يعنى أن يأخذ أحد منهما برأيها ؛ بل إنها تعلم أنهما فى الغالب سيهملان هذا الرأى ، ولعلهما يهملانه عن

عمد لأنه صدر عنها . وتعلم أيضا أن الطلب الذى قد تهفو إليه قلما يتحقق ... بل إنه لن يتحقق إلا إذا أيدتها أمها فيه .

فماذا إذن يدور فى ذهن أمها ولا تستطيع أن تصارحها به ؟! لم تطق دولت السكوت طويلا فألقت سؤالا تعرف جوابه ولكن كان لا بد منه .

— ألم يقل أخى متى يسافر ؟

— لم يحدد الميعاد بعد ، ولكن يهيأ لى أنه سيسافر قريبا ... قولى لى يا دولت .

— نعم يا أم .

ثم سكتت الأم ولم تقل شيئا ، ولكن دولت لم تسكت بل عادت تقول :

— نعم ؟

— يا بنتى ...

— ماذا يا أم ؟

وأجمعت الأم أمرها أخيرا وقالت :

— ماذا نفعل حين يسافر أخوك ؟

— ماذا نفعل يا أم ؟

— أنبقى هكذا بلا رجل ... وأنت يا بنتى كبرت وأخاف عليك أولاد الحرام ؟

— مم تخافين ؟

— هيه ... ماذا أقول ؟ النهاية ... ألا تعرفين مم أخاف ؟

— يا أم لا تخافى . بنتك ناصحة ولا تفوتها الفايتة .

وخالطت صوت الأم نبرة من السخرية وهى تقول :

— صحيح ... لم أكن أعرف .

— صحيح والنبى يا أم ... لا تخافى أبدا .

وقالت الأم فى صوت يائس ساخر :

— طيب .

ثم سكتت قليلا ولكنها لم تطق . فقصدت إلى ما تريد دون لف أو دوران .

— وماله فهمى الفهلوى !.. أليس رجلا يستر عليك ؟ واسمه على كل حال رجل فى البيت بدل أن نبقى امرأتين وحيدتين !!

— وما شأنى أنا يا أم ؟

وفى سخرية مريرة قالت الأم :

— أخوك يريد لك رجلا متعلما .

— وماله يا أم ؟

— وماذا يفعل بك المتعلم ؟

— وما عيبى ؟

— طيب يا أختى ... يا فرحتى بك وبأخيك وبالمتعلمين الذين يرتمون تحت أقدامك وأقدام بسلامته حامد ...

— الله يا أم ... وأنا ما ذنبى حتى تسخرى منى ... لم تقدرى على الحمار قدرت على البردعة ... الأمر أمر أخى وهل خرجت عن طوعه ؟.

— يا بنتى نريد الستر ... الستر يا بنتى ... ربنا يستر .

— أنا طوع أمركما ... افعلا ما تريانه ... ولو أنى أريد أن أعمل فى غياب أخى .

— وماذا تعملين ؟ هل معك الشهادة ؟

— أى شىء .. أليس لى يدان وأعرف القراءة والكتابة ... سأعمل حتى أساعدك فى المصاريف .

— وهذه أيضا لا أدرى كيف أدبرها ... ليس لنا إلا المعاش ... هيه ... النهاية .

— ألا ينوى أن يرسل لك شيئا من أوروبا ؟.

— وكيف ؟ إن ما سيناله يكفيه بالكاد ... أمر الله ... هو العالم .

وقبل أن تجيب دولت يدخل حامد ، وقد أعد نفسه للتجهم الذى تلقاه به أمه فى هذه الأيام حتى عوده . ويجلس حامد بعد أن يطلب إلى أخته أن تعد له فنجان قهوة . وتقوم أخته وهى تسمع أمها تقول له :

— بسلامتها تريد أن تعمل .

وتسمع أخاها يقول :

— وماذا تعمل ؟

وتقول دولت وهى تغادر البهو :

— أى عمل ؟

وتمص الأم شفتيها وهى تقول :

— حكم !

— لو كان معها شهادة !

ويسكت الاثنان فقد استنفدا فى هذه الأيام كل نقاش يمكن أن يدور حول سفره ، أو زواج أخته من فهمى ، أو إرسال نقود من الخارج ... لم يبق لهما موضوع يمكن أن يتناقشا فيه ... لم يعد أمامهما إلا الصمت .

وعادت دولت بالقهوة وهى تقول :

— وأى عيب فى أن أعمل يا أخى ؟

— لا عيب ، ولكن ماذا تعملين وأنت بلا شهادة ؟

— ممرضة ... مربية ... أى عمل ... وعلى كل حال أنا أقرأ وأكتب .

— نعم أعرف ...

— اسمع — والنبى — يا حامد ، لماذا لا تكلم تلميذك خيرى ... لعله يجد لى عملا ؟

— سأفكر فى الموضوع يا دولت ... أشوف .

٩

كان همام بك فى حجرة مكتبه ينتظر ابن عمه عزت الذى أخبره بالتليفون أنه قادم إليه لأمر هام ، وقد انتهز همام هذه الفرصة ليراجع حساب البنك الذى جاءه فى هذا الصباح ، وليراجع أيضا حسابات مزارعه . وما كاد يجلس إلى مكتبه حتى فتح باب الحجرة وبدا منه صديقه فواز جامد الوجه كعادته ، وألقى تحيته فى هدوء وجلس إلى الكرسى الذى تعود الجلوس إليه ، وقام همام من مكانه وجلس إلى المقابل له وهو يقول فى نبرة عادية يحاول أن يفتح أبواب الحديث :

— هيه كيف الحال ؟

وقال فواز فى نبرة طبيعية :

— الحمد لله .

— ماذا فعلت فى الصفقة الأخيرة ؟

— خسرت .

— كم ؟

— كل شىء .

— ماذا ؟!

ــ كل شيء ... لم يبق لى شيء على الإطلاق .

ــ كل شيء ؟

وأخرج فواز تصعيدة من أعماق قلبه وهو يقول :

ــ كل شيء .

ــ الأرض والعقارات والأسهم و...

ــ والمال السائل وكل شيء ...

ــ وماذا تنوى أن تفعل ؟

ــ سأضارب .

ــ يا فواز ...

ــ ماذا ؟... أتريد أن تنصحنى الآن بعدم المضاربة ... هل أمامى شيء آخر ؟..

ــ والله لا أدرى ... أنا لا أعرف حتى ماذا أقول ... أصبحنا يا فواز فى سن لا تحتمل هذه الهزات ... السنوات تمر ... والعمر له حكم .

ــ أعرف ولكن ماذا أفعل ؟

ــ هل أستطيع أن أفعل شيئا ؟

ــ طبعا ..

ــ تحت أمرك .

ــ ضمانة .

ــ متى ؟

ــ غدا .

ــ أين ؟

ــ عند الخواجة بتشتو فى الساعة العاشرة .

ــ سأكون هناك .

ــ أتشترك معى فى هذه العملية ؟

ــ ... شكرا .

ــ هيه ... أمرك ... أتعرف من رأيت اليوم ؟..

ثم جرى الحديث بين الصديقين وكأنما لم يحدث شىء ... كأنما هو فواز الغنى الذى لم يخسر أمواله جميعا ولم يصبح فقيرا يكاد لا يملك الملابس التى يرتديها ... هو هو لم يتغير فيه شىء ... يضحك إذا مر الكلام بما يضحك ، ويهتبل النكتة إن عرض لها الحديث ، حتى إذا أقبل عزت ورآهما فى حديثهما هذا ظن أن الأنباء التى بلغته عن إفلاس فواز غير صحيحة ، وإن كان عرفها من مصادرها التى لا تخطئ ... جلس عزت إلى الصديقين وشاركهما فى الحديث ، ودار بهم الكلام فى كل متجه . وحاذر عزت أن يذكر البورصة وما كان فيها ، وكان الآخران بعيدين عن حديثها أيضا فقد استنفدا عنها ما تستحق من حديث . وطالت الجلسة وهم فواز بالانصراف ، ولكن همام ألح عليه أن يقعد مصمما فى دخيلة نفسه أن يجعل عزت ينصرف قبل فواز . فقد أدرك الأمر الهام الذى كان يريده فيه ... إنه أراد أن يخبره بإفلاس فواز وأراد أن يحذره من ضمانته ، وكان همام يعلم ألا جدوى من هذا التحذير فأراد أن يتجنب المناقشة .

وأدرك عزت السياسى المداور ما بيته همام فى نفسه فعزم على البقاء حتى يخرج فواز ، وأدرك همام ألا محيد له عن هذه المناقشة بينه وبين عزت .

خلت الحجرة بهما فبادر همام يسأل وعلى فمه ابتسامة :

ــ يا أخى أليس لك بيت ؟

ــ بلى لى بيت وسيظل لى بيت .

واتسعت الابتسامة على وجهه وهو يقول :

ــ ماذا تقصد ؟

ــ أقصد أنه سيظل لى بيت ما دمت لا أضمن الناس ، وخاصة الذين يضاربون بأموالهم جميعا ، ولا يكتفون بهذا بل يطلبون ضمانة أصدقائهم أيضا .

ــ ماذا تنتظر منى أن أفعل ؟

ــ يا أخى ربنا خلق كلمة فى اللغة العربية ... اسمها لا ... وأخرى اسمها متأسف ... ولا أستطيع ... وعندى أولاد .

ــ عندى أيضا أصدقاء ... وعلى واجبات لهم .

ــ واجباتك نحو أولادك أولا .

ــ أتعرف يا عزت أنه كتب كل أمواله باسم زوجته .

ــ عظيم ... تضمنه زوجته .

ــ جعلته أنا يعيدها باسم نفسه ... ألا ترانى مسئولا عن إفلاسه الآن ... إلى جانب مسئوليتى كصديق العمر .

وأرتج على عزت هونا ثم قال :

ــ أتعرف المبلغ الذى ستضمنه فيه ؟

ــ لا ... لم أسأله .

ــ أراهن أنه مبلغ يزيد على أملاكك .

ــ لا أستطيع الرفض .

ــ يا همام ... أرجوك ...

ــ ماذا فعلت مع طبيب فايزة ؟

وغامت عينا عزت بالدموع فجأة ، ولكنها ما لبثت أن غاضت وقد تماسك قائلا :

ــ لا فائدة .

ـــ مطلقا ؟

ـــ لن تسمع شيئا بقية عمرها ؟

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله .

ـــ المصيبة أنها صغيرة ولا أدرى كيف يكون مصيرها ... كيف تتعلم ... كيف ..

ثم تماسك وصمت .

ـــ ألا تذهب بها إلى أوربا ؟

ـــ سأذهب ولكن ليس للعلاج .

ـــ لماذا ؟

ـــ أنت تعرف كما أعرف أنا أنه لا فائدة ... حمى شوكية قضت على السمع ... لا علاج لها فى أى مكان .

ـــ فلماذا تذهب ؟

ـــ أولا لا أريد أن أفجع أمها فى أمل قد يلازمها بضعة أشهر أخرى ، وثانيا أريد أن أبحث عن مدرسة لتعليم ...

وعادت الدموع إلى عينيه مرة أخرى ، وأطرق همام . ولكن عزت أكمل جملته فى صوت يختلط بالبكاء :

ـــ الصم .

١٠

رحمتك اللهم ورضاك ... كان أهون على لو أرحتها من العالم وأخذتها إلى جوارك ، ولكن الأمر أمرك لا حيلة لنا فيه . ما ذنبها يا رب ؟ ماذا جنت ؟ ولكن سبحانك ... تصيبنا لتختبر الصبر فينا . وهل نملك إلا الصبر ؟.. بماذا تلاقى الدنيا هذه الفتاة المسكينة ؟... بنتى ... حبيبتى ... لقد سدت منافذ الصوت إلى عقلها ... وقف وعيها عند هذه السنوات القلائل التى بلغتها من العمر ... ما مصيرها ؟... أتظل ترنو إلينا بهذه العيون الحائرة القلقة المذعورة ؟... إنها لا تدرى ما بها وهى تحسه أوفى ما يكون الحس ... لم تعد تسمع شيئا ... لا تستطيع الضحك ... ولا تعرف إلا البكاء ... كلما رأتنا نتكلم ... فهى لا تسمع كلامنا وإنما تراه ... تبكى ... لقد فقدت شيئا ... شيئا كبيرا ... ثم هى لا تدرى ماذا فقدت فتبكى ... تسأل ... تسألنى ... وتسأل أخاها ... وتسأل أختها ... لماذا لا أسمع ؟... وكيف نجيب وكيف تسمعنا إن نحن أجبنا ؟.. يا حبيبتى يا بنتى ... أهكذا انقطع ما بينها وبين الحياة ، لا تتصل بالدنيا إلا بعيون جاهلة . طفلة صغيرة حائرة ... ترى أتجدى هذه المعلومات القلائل التى تعلمتها ؟.. وإلا فكيف تتعلم ؟.. أو كيف تعيش ؟ يا رب هذا هو القضاء فأين اللطف فيه ؟ وتلك هى الكارثة فيدك الكريمة يا رب ترفع بعضها أو تخفف وقعها ... يا كريم يا رب .

ضاقت بالسرير وضقت بالأمل ، فتركت هى السرير . أترانى أستطيع أن أترك الأمل ؟ وماذا لى غيره ... يأس ... يأس قاتل أسود مرير ... كحياتها ...

بل كحياتى ... أبقاك الله يا عزت ... تريد أن تخفف عنى المصيبة ولعلها عليك أشد . وتريد أن تفسح لى أملا من السفر إلى الخارج ... وهل أجهل المرض ... أليس فى أوربا صم ؟.. فما لهم لم يعالجوا هناك إذا كان هناك من يعالج ؟... ولكنها صغيرة ... فالفاجعة فواجع ، والمصيبة مصائب ... لن تكون بنتى ... فايزة صماء فحسب ، بل قد تغدو شبه بلهاء . أو كيف تفهم ما يدفع عنها البله وهى لا صلة لها بدنيا الناس إلا عقل استقر عند السادسة لا ينمو . وكيف له أن ينمو ؟ وعلم توقف لا يزيد . وكيف يزيد ؟.. أأرجو لها الموت ؟.. يا لى من أم قاسية ... أأتمنى لها الموت لترتاح هى أم لأرتاح أنا ؟.. ماذا فعلت يا رب حتى يصبح موت ابنتى أمنية عندى ؟ هل أستحق هذا ؟... لعلك فى مطوى علمك قد ادخرت لى عندك ثواب هذا العذاب . ولكن سبحانك أى ثواب يعدل ما ألاقيه ... ولكن سبحانك فإنك تعلم ما لا نعلم وحسبنا أنت . أنت ... أنت حسبنا ونعم الوكيل .

وقامت إجلال هانم من جلستها الصامتة الصاخبة تملأ الدموع وجهها ، دموع حارقة لا تطفئ نارا ولا تريح فؤادا ... قامت فاستقبلت القبلة وأقامت الصلاة تتمتم ألفاظها غائبة عن معانيها وتؤدى مناسكها ذاهلة ، وإنما هى قيام وركوع وسجود تقوم بها جميعا كشىء يسير فى طريق فرض عليه لا يدرى مبتدأه أو منتهاه .

وحين بلغت إجلال قراءة التحيات الأخيرة دلف إلى الغرفة زوجها عزت واتخذ كرسيا وظل يرنو إليها يجاهد نفسه ما وسعه الجهد ألا تبدر من عينيه دمعة ، والله وحده يعلم أى كفاح مرير بذله حتى يذود الدموع عن عينيه ، تاركا قلبه يبكى فى نشيج مرير مكتوم . كان لا بد له أن يصبر حتى يصبر البيت جميعه ، وكان لا بد له أن يتماسك حتى لا يفقد أسرته كلها .. فصبر وتماسك ...

إذا أصاب الموت بيتا فأيام أو شهور ثم يعود البيت إلى سابق حياته ، فالموت يطوف طواف الزائر العجلان يختار من يختاره ثم يمضى به لا يترك إلا الذكرى . وللأيام على الذكرى سطوة ... فهى تنسيها ، وإن عادت بها فلحظات أو ساعات ثم يعود القوم المصابون إلى مألوف حياتهم . أما هذه الكارثة التى أصابت بيت عزت فهى قائمة تسعى فى البيت تطالع القلوب التى تحف بها بالهول الذى أصابهم فيها ... وإنهم ليدركون ما أصابهم ويقدرون عواقبة ، وينظرون إلى المستقبل الذى ينتظرها فلا يرون إلا سوادا حالكا . أما هى فقطعة من إحساس يسعى فى البيت ... إحساس يعلم أنه مصاب بفادح من الأمر ، ثم يقف بها العلم عند الشعور بلا إدراك ولا تفكير فى العواقب ولا نظر إلى المستقبل .

فرغت إجلال من الصلاة ولم تفرغ دموعها فإنها لا تزال تنهمر على وجنتيها سكبا بلا توقف ، وأنعم عزت فيها النظر بعض الحين حتى ملك أمر لسانه وقال :

ـــ وبعد لك يا إجلال ؟

ـــ لا عليك يا عزت ... تحملنى ... المصيبة كبيرة .

ـــ لعل الله يكرمنا فنجد علاجا فى أوروبا .

ـــ أترانا صغيرة يا عزت ؟.. لا فائدة ... وأنا أعلم ألا فائدة .

وارتج على عزت هنيهة ثم قال :

ـــ كيف ... كيف ... من قال هذا ؟

ـــ أنا أقوله ... اسمع ... المهم أن نبحث الآن عن طريقة تتعلم بها القراءة والكتابة .

ـــ لعلنا فى أوروبا نجد الطريقة .

ـــ ماذا تتعلم هناك ؟.. لغة أخرى غير لغتنا ... لا ... دع عنك سفر أوروبا

هذا ... لا فائدة منه على الإطلاق .

— يا ستى من يعرف ؟

— عزت ... أرجوك ... أنا لست صغيرة .

— طيب ! لعلنا نجد لها مدرسة هناك ؟

— ولا هذا ... وهل يمكن أن أتركها فى هذه المدرسة ؟ ثم ماذا تتعلم فيها ؟..

أتتعلم أن تجهلنا نحن أيضا ونحن كل ما بقى لها ؟.. أم تتعلم قراءة لغة أخرى وكتابتها فلا نستطيع التفاهم معها ؟.

— إذن فماذا تريدين ؟

— أريد شيئين ... أريد بنتا كبيرة بعض الشيء ترافقها وتحاول أن تلهيها وتؤدى لها ما تحتاج إليه ، وأريد أن تبحث عن وسيلة لتستأنف تعليمها ، فهى تعرف الحروف وكانت قد ابتدأت تتعلم الهجاء . فلنحاول أن ننتفع بهذا القليل الذى تعلمته لعلها تستطيع القراءة فتفهم ما لا نستطيع إفهامه لها بالكلام .

— أمرك ...

— تعليم فايزة أهم من تعليم محسن نفسه . فايزة ستظل وحيدة العمر كله .

وأطرق عزت فى حزن مرير وهو يقول :

— نعم ... أعرف هذا .

— لا بد أن نواجه الحقيقة ... نحن نعرف أنها لن تتزوج ولن يكون لها بيت إلا هذا البيت ، فلا بد أن تفهم حتى تستطيع أن تعيش .

— نعم يا إجلال ... أنا أدرك هذا تماما ، ربنا يوفقنا إن شاء الله .

— سبحانه ليس لنا إلا هو .

* * *

كان بيت عزت واجما جامدا لا يخطئ من يدخله أمره ... هو بيت ينضم على كارثة . نجح محسن فى الامتحان ونجح معه خيرى ، ولكن خبر النجاح مر بالبيت عابرا عجلا لم تستقبله إلا ابتسامة باهتة . بل إن بيت خيرى نفسه لم يستطع أن يفرح بنجاح ابنه البكر الذى صاحب هذه المصيبة التى ألمت بعائلة عزت .

بل إن خيرى نفسه لم يفرح بنجاحه كما كان يقدر لنفسه أن يفرح . فما كان هناك من سبيل أن يتحقق أمله الكبير فى هذه الأيام الأولى من الفاجعة . وما استطاعت نفسه أن تفرح وهو يرى إلف هواه حزينة أسيفة . نجح الشابان ولكنهما استقبلا نجاحهما استقبالا فاترا هادئا لا نبض فيه ولا حياة ...

وقد استقر خيرى فى بيت عزت بك لا يبرحه ، يرافق محسن أينما ذهب لا يتركه إلا عند الليل ، وكانا يقضيان أغلب وقتهما فى البيت . وكانت وفية تجلس إليهما فى كثير من الأحيان ، وكثيرا ما خلا خيرى إلى وفية ، ولكن لا حديث إلا عن فايزة ما تقول وما تفعل وما سيفعلان بها ، وكيف يقضى عزت بك وقته ، وكيف تحيا إجلال هانم حياتها ... خيمت التعاسة على البيت جميعه ، وإن كان نبض الحب لا يزال قويا فى القلبين الصغيرين إلا أنه نبض لا يجاوز القلب إلا فى نظرة وامضة ، أو دمعة مشفقة يتبادلها الحبيبان .

كان خيرى ومحسن يجلسان فى حجرة المكتب حين قدم إليهما الأستاذ حامد . حياهما وجلس صامتا وهما صامتان . ثم لم يلبث أن قال :

ـــ لا أعرف ماذا أقول يا محسن ... هل أقول مبروك أو أقول الله معكم ؟

وقال محسن فى ألم :

ـــ والله يا أستاذ نحن فى أشد الحاجة إلى عون الله .

ـــ لم أعرف إلا الآن ، فقد مررت ببيت خيرى فوجدت يسرى وهو الذى أخبرنى .

وأراد خيرى أن يغير الموضوع فقال :

— متى تسافر يا أستاذ حامد ؟

— الأسبوع القادم إن شاء الله .

— بالسلامة .

— سلمك الله ... سأكتب لكم دائما .

— هل ستغيب هناك ؟

— والله حسب الظروف ، سأبقى ما استطعت البقاء .

وقال خيرى :

— والست والدتك وأختك هل ستقيمان فى نفس البيت ؟

— طبعا ... البيت إيجاره رخيص .

— لا تشغل بهما فسأزورهما دائما ، وأرى إن كانتا تحتاجان إلى شىء ... اعتبرنى أخاك .

— أنا أعرف يا خيرى مقدار وفائك ، وأنا معتمد عليك كأخ وكصديق .

وقال محسن :

— هذا أقل ما يجب يا أستاذ حامد . ونحن لا ننسى معروفك .

— بل أنا الذى لا ينسى معروفكم أبدا ... أنتم لاتعرفون أثركم فى حياتى لأنكم تعودتم أن تجيبوا طلبات الناس ... هى عندكم رجاءات تبذلون جهدكم فى تحقيقها . أما عند كل فرد تحققون رجاءه فهى مستقبله وحياته ، وربنا لن يضيع أجركم أبدا يا محسن .

— هيه يا أستاذ .

— لا .. لا تيأس لكل ضيق فرج .

— ألف شكر يا أستاذ ... طبعا أنت تعرف أننا على إستعداد لأى طلب تريده قبل السفر . السفر طلباته كثيرة وقد تكون فوجئت به ، فإن كنت تريد

سلفة فنحن طبعا أخواك ونحن ...

وقاطعه حامد شاكرا :

ـــ أبدا ... أبدا يا محسن ... لقد أعددت نفسى تماما ولكن ...

ـــ ماذا ؟

ـــ كنت نويت ألا أذكر هذا الطلب .

ـــ ولماذا يا أخى ؟

ـــ والله الحكاية الأخيرة هذه ... أظن لا يجوز لى أن أرجو فى شىء وأنتم مشغولون بأمر فايزة .

ـــ إننا نحيا على كل حال يا أستاذ حامد . قل ماذا تريد ؟

ـــ أختى ...

ـــ ما لها ؟

ـــ تعرف القراءة والكتابة وتريد أن تجد عملا ... فإذا استطاع البك الوالد أن يجد لها عملا فى مستشفى مثلا أو شيئا كهذا أكون شاكرا ...

ـــ بالطبع سأبلغه ... سافر وأنت مطمئن .

وقال خيرى :

ـــ اطمئن يا أستاذ حامد ... سأضم رجائى إلى رجاء محسن وألح على عمى عزت بك .

ـــ شكرا ... أستأذن أنا .

وقال خيرى :

ـــ كنت أنوى والله أن أسافر معك إلى الإسكندرية لأودعك ، ولكن لا أستطيع ترك محسن وحده فى هذه الأيام .

ـــ أنا أعرف شعورك تماما يا خيرى ... وأعتبرك أخى الأصغر ... وأنت

بتفكيرك هذا كأنك ودعتنى فى الإسكندرية . السلام عليكم .

ومد حامد يده وشد على قبضة خيرى فى حب وود ، وصافح محسن وخرج . وخلت الغرفة بالصديقين مرة أخرى ، وانفرد بهما الصمت فترة طويلة ثم قال خيرى :

— ربنا يوفقه .

ولكن محسن قال وكأنما تذكر شيئا كان غائبا عنه :

— الله ... خيرى ... ألم يقل إن أخته تريد أن تعمل ؟

— نعم .

— فلماذا لا ترافق فايزة ؟.. فنحن نريد لها مرافقة .

— أتظنه يرضى ؟

— ولم لا ؟...

— فعلا ... ولم لا ؟... سأذهب إليه .

— أتعرف بيته ؟

— نعم ... كثيرا ما أوصلته إليه بالسيارة .

١١

أجابت دولت الطرق فانفرج الباب عن شاب ... رجل ... رجل فى بواكير الشباب الأولى مشرق الوجه وامض العينين طويل القامة باسم الثغر ، شديد العناية بهندامة وبطربوشه يميله إلى الناحية اليمنى من رأسه إمالة هينة ما تكاد تلحظ ..ورأت فى عينيه السوداوين خجلا وفى وجهه المشرق مبادئ إحمرار وفى فمه كلاما يتردد بين الانطلاق والاختفاء . ثم رأت فى عينيه إعجابا يكتمه ولكنها أدركته ... طارق جديد على البيت لم يعهده البيت ... نظرت إليه مليا ، وسمحت للإعجاب الذى خالط نفسها أن يبدو فى عينيها دون أن تخفيه ، ثم قالت فى غنة حلوة تعودت أن تنغم بها حديثها كلما خلت إلى أحلامها مع الرجال :

ــ نعم ؟

وقال خيرى وهو يرنو إليها ثم يخفض بصره كلما طالعته نظرتها الجريئة :

ــ منزل الأستاذ حامد عبد الكريم ؟

ــ نعم هو ... تفضل .

ــ ... أشكرك ... الأستاذ موجود ؟

ــ سيأتى حالا ... تفضل .

ــ أين أجده ؟

ــ لن يغيب ... تفضل بالدخول .

ولم يستطع خيرى إلا أن يتفضل بالدخول ... وكيف يستطيع أن يصدف عن هذه الدعوة المنغومة الحلوة ... إنها الأنثى فى جلالها .. فى ذروة عنفوانها

وقوتها ، شباب ريان كالنبت الأخضر الغض تيقظ فى بواكير الفجر والندى يتلألأ على أوراقه ، وعينان جريئتان كالأمر ... كالقوة ... كالسلطان ... وعود مزدهر مرسوم يدق حيث ينبغى له أن يدق ، ويمتلئ حيث يجمل به أن يمتلئ ، فارع مياد هفهاف كالفرحة النشوانة ... كالأمل ... كالشباب ... وثديان جديدان كالرجاء المجاب ... كالرغبة المحققة .

لم يكن بد من أن يتفضل فتفضل ... ودخل .

لم تكن أم حامد بالبيت فقد خرجت تشترى لابنها بعض الملابس التى رأت أنه سيحتاج إليها فى سفره . وخلا البيت بخيرى ودولت ، قادته إلى حجرة الجلوس فاستقر بها مقامه ولم تستقر عيناه المترددتان بين الإنعام والإطراق ، ولم يستقر قلبه من الخفق .. وجيبا شديدا .. وجيب الشباب الجديد ، وجيب الدم يدور فى الجسم فوارا عنيفا جائحا . تذكر وفية ولكنه قال فى نفسه : وهل خنتها ؟.. الأمر مختلف ... واطمأن إلى أن الأمر مختلف وراح يلتذ هذا الوجيب وهذا التحديق وهذا الشباب . وأخرجته دولت من حيرته :

— قهوة ؟

— لا شكرا .

وظلت واقفة تريد أن تعرض شيئا آخر مما يقدمه المضيف لضيفه ... ولكنها انشغلت عن هذا بإنعام النظر فيه ... نظرة جائحة قوية ... رجل ... وأى رجل ؟.

قال خيرى :

— حضرتك الآنسة دولت ؟

— وحضرتك الأستاذ خيرى ؟

وضحك ضحكة ساذجة وازداد وجهه احمرارا أن عرفته ثم قال :

-.. كيف عرفتنى ؟

وقالت فى دلال وأنوثة :

ـــ عرفتك .

وضحك مرة أخرى فى بهجة استخفت لبه :

ـــ كيف ؟

ـــ عرفت والسلام .

ـــ هل أنا مشهور إلى هذا الحد !؟

وتأودت دولت فى غنج وهى تقول :

ـــ جايز .

ورنا خيرى إليها نشوان الفؤاد ذاهل النظرة . جف ريقه وشرد ذهنه إلى عوالم يا طالما طاف بها وكانت زفقته فيها امرأة وجهها أخلاط وجسمها أمشاج من الأجسام غير محددة المعالم أو واضحة المعارف ، امرأة متقلبة الوجوه لا تثبت محاسنها على حال ، فقد تكون فى يوم جميلة غاية الجمال وتكون فى آخر قبيحة غاية القبح ، ولكنها قط لم تكن معروفة عنده . لم تكن وفية مطلقا كما أنها لم تكن بهذا الجمال الذى يتمايل أمامه مشرفا عليه من عل ، باسما دائما ، فرحا دائما ، دافعا بهذه الدماء الموارة فى عروقه ، وبهذا اللسان الجاف ـــ يلتذ جفافه ، ويلتذ كل إحساس آخر يخالجه ... رنا إليها وأطال ... وهى رانية إليه لا تميل عيناها عنه ... فقد طالما رافق أحلامها ، ويا طالما شاركها فى وحدتها عند المساء ... منذ رأته من الشباك فى أول يوم جاء فيه بأخيها إلى البيت ... رأته ولم يرها ... ثم ظلت تراه كل ليلة وتستجلب صورته إلى عينيها قبل أن تغمضهما ، ثم تترك للأحلام أن تكمل آمالها العربيدة ...

طال بينهما الصمت فلا يجد قولا إلا :

ــ اقعدى ... لماذا أنت واقفة ؟

وفى نظرة إليه ناعمة عميقة حالمة معربدة ، قالت وفى صوتها تلك الغنة التى تصطنعها :

ــ مبسوطة هكذا ؟

وظل رانيا إليها ... وكالحلم الجميل يخشى صاحبه أن يستيقظ فلا يراه ، خشى خيرى أن يصرفها من وقفتها هذه شىء ، خشى ألا يراها ، خشى أن تذكر شيئا وتتركه ، خشية داخلت نفسه فألحت وملأت جوانح تفكيره طنينا عاليا ... خشى أن تنصرف فراح يفكر فى شىء يبقيها إلى جانبه ... ماذا يمكن أن يبقيها إلى جانبه ؟... حديث ... أى حديث يستطيع أن يحرك به لسانه ؟ وأى لسان يحرك ؟... ولكن لا بد مما ليس منه بد ... فليفكر فى موضوع الحديث أولا وعند الحديث بعينه الذى لا تغفل له عين ... أى حديث يمكن أن يحادثها فيه ؟... وعاده الصوت المنغوم :

ــ أتريده حضرتك فى شىء ؟!

وانتبه خيرى قائلا :

ــ من ؟

وقالت دولت فى فرح أن استطاعت أن تخلب لبه وتلهيه عن طلبته الأولى :

ــ حامد ... حامد أخى ... ألم تقل إنك تريده ؟

وصحا خيرى وتذكر أنه كان يريد حامد ، وفى تذكره وجد موضوع الحديث الذى يهفو إليه :

ــ آه ... نعم ... أريده طبعا ... أريده فى موضوع خاص بك .

ــ بى أنا ؟

ــ نعم بك أنت .

واقتربت منه وقد تكلفت الاهتمام تكلفا يتيح لها أن تونو وتنعم بعينيها فى عينيه ، وتوسع من جفونها وتعيد قولها :

ــ ماذا ... ماذا ...؟

وانتهز خيرى فرصة هذا الاقتراب وأجلس دولت إلى كرسى يجاوره وهو يقول :

ــ اقعدى أولا .

ــ هأنذى قعدت ... ماذا ؟

وراح خيرى يقص عليها قصة فايزة ، ودون أن يحس وجد دمعات تفيض من عينيه ... إن المصيبة قديمة على البكاء ولكنها كانت المرة الأولى التي يرويها فيها فبكى . لقد استقبل المصيبة ولم يكن مصدرا لروايتها إلا اليوم ، فأحس لذعة الكارثة وكأنها شيء جديد . وعجب خيرى حين رأى دمعات أخرى تنحدر على خدى دولت ولكنه سرعان ما تمالك أمر نفسه وهو يقول :

ــ آسف لم أقصد .

ــ لا عليك .

ــ هذه هى المسألة .

ــ وما شأن أخى أو أنا بهذا ؟

ــ كان أخوك عند ... عندنا وعرفنا منه أنك تريدين أن تعملى .

ــ نعم .

ــ هل عندك مانع أن تكونى شبه مرافقة لهذه البنت المسكينة ؟

ونظرت إليه مليا وقالت :

ــ تقصد مربية ؟

ــ عندها مربية ... أقصد الكلمة التى قلتها تماما ... مرافقة .



وظلت دولت تنظر إليه ثم قالت :

ـــ وهل سأراك هناك ؟

ـــ طبعا .

وأطرقت دولت هنيهة ثم قالت :

ـــ على كل حال الأمر لأخى .

ـــ أعلم ... ولكن هل توافقين أنت ؟

ـــ نعم .

ـــ إذن سيوافق .

١٢

دق جرس التليفون فى بيت عزت بك وكان جالسا إلى جانبه مع زوجته إجلال هانم ، فرفع عزت السماعة ، ثم فوجئت زوجته به وقد ملكه ذعر عارم عنيف وهو يقول :

ـــ هل أنت متأكد ؟

ثم يعود فيقول :

ـــ وهل عرف ؟

ثم جاهد نفسه ليقول قبل أن يضع السماعة :

ـــ لا ... لا تخبره أنت سأخبره أنا .

وراح يردد فى ذهول :

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله ... لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قام من فوره

وذهول ما يزال آخذا به غير مبال زوجته التى راحت تلح عليه فى جزع :

— ماذا يا عزت ؟.. ماذا حصل ؟.. عزت .

واتجه عزت إلى السلم يريد أن ينزله لولا أن صاحت به زوجته صيحة يائسة :

— عزت ... أخبرنى يا أخى ماذا حصل ؟

وأفاق عزت هونا ليرى زوجته وهى فى جزعها ويقول :

— لا شىء ... لا شىء ... لا أستطيع أن أخبرك الآن . والتفت إلى السلم ينزل فى تمهل يائس حزين .

* * *

كان همام فى حجرة مكتبه الفاخرة يراقب ابنه خيرى والكاتب الذى يعمل عنده وهما يرصفان الكتب فى المكتبة الجديدة التى ركبت اليوم بحجرة المكتب . وكان همام فرحا بمكتبته هذه فقد صنعت بأمره فى باريس ، فهى قطعة من الفن الرفيع تغطى جدران حجرته جميعا ، كل جزء ظاهر منها محفور مغطى بالبرونز الذى لعبت به أيد صناع ماهرة ، فهو رسوم وتشكيلات وزخارف . وكانت قاعدتها مثلها تقفل على أدراج أو رفوف . وكانت الضلف مغطاه بقطع من البرونز المشغول ... ملائكة أو آدميين أو طيور تكاد جميعها تسعى وتحيا لو أصابت من قدرة الله نبضا ...

— هيه يا عم خيرى ؟.. ظللت تشكو ضيق المكتبة وكثرة الكتب . أين هى هذه الكتب التى كانت لا تجد مكانا ؟ أرى المكتبة خاوية لا تزال .

ويقول خيرى فى جذل فرحان :

— وهل كنت أدرى أنك ستأتى بهذه المكتبة كلها ؟.. إنها بيت وليست مكتبة .

— أتعجبك ؟

ــ تعجبنى ؟! إنها رائعة يا بابا .. هائلة .

ــ عظيم ... عليك إذن أن تختار الكتب التى تخفى هذه الأرفف .

ــ بسيطة ... سأملؤها لك قبل أن أدخل الكلية .

ــ اشتر ما تشاء وأحضر لى الفاتورة ولاحظ أننى أمتحن اختيارك .

ــ وماذا تعطينى إن نجحت فى هذا الامتحان ؟

ــ المكتبة .

ــ كيف ؟

ــ ستصبح الكتب لك .

ــ إنها لى بغير مكافأة ...

ــ لا ... أنا أقصد أن أعطيك هذه الحجرة فتصبح حجرة مكتبك أنت .

ــ وأنا لا أقبل .

ــ كيف ؟

ــ لو كانت هذه الحجرة لى لما قبلت أن تكون لى ولا تكون لك ... فإنك مهما تصنع لى تستطيع أن تجمل حجرتك بمثل هذه المكتبة ، ولا يمكن أن تكون لى أنا حجرة خير من حجرتك .. لأول مرة يا بابا أرانى مضطرا لرفض هديتك ... إن جمالها لا يكمل إلا بك ... وبجلوسك فيها .. أريد مكافأة أخرى .

وابتسم الأب فرحا بحديث ابنه وهو يقول :

ــ أطال الله عمرك يا خيرى ... لك ما تشاء .

ــ إذن سأفكر وأخبرك .

ــ فكر ما تشاء ... إن كل ما أملكه لك .

ــ بل لك أنت يا بابا ... أطال الله عمرك .

— هيه يا خيرى ... لم يعد لنا أمل إلا أن تسعدوا أنتم ...

وقبل أن تخونه عيناه سارع يقول فى لهجة آمرة ضاحكة :

— أسرع يا ولد ، لا تكثر الحديث ... افرغ من عملك ... إنك ثرثار كبير .

— حالا ... حالا ... أين تريد كتب المنفلوطى ؟

— هنا ... قريبا من متناول اليد .

— وكتب طه حسين ؟

— هنا أيضا ... فإنى أحب أن أعود إليها دائما ... أقرأتها ؟

— نعم .

— كم مرة ؟

— مرة واحدة .

— أنت مجنون ... كيف تستطيع أن تقرأها مرة واحدة ؟..

— أقرؤها ثانية ... وهذه كتب هيكل والمازنى والعقاد .

— ضعها جميعها فى الأرفف القريبة من اليد وضع معها دواوين الشعر فهذه لا تقرأ مرة واحدة . والأغانى ، والعمدة ، ونفح الطيب ، وأمثال هذه الكتب اجعلها جميعها قريبا من يدى ، دع الكتب الأخرى للأرفف الباقية ... تلك التى لا يرجع إليها إلا فى القليل النادر ... أما هذه الكتب الرخيصة فلا تضعها فى المكتبة ... هذه تقرأ ثم ترمى ... آه .. هذا الكتاب .

وقبل أن يكمل همام جملته يدخل عزت إلى الحجرة فيستقبله همام فى فرحة طاغية :

— أهلا ... كنت أفكر فيك ... فأنت من هواة الأثاث الجميل ... ما رأيك ؟

ولا يجيب عزت على السؤال وإنما يقول فى حزن واضح وذهول لا يخفى :

— أريد أن أراك وحدك .

وأحس همام أن عزت يحمل شيئا فاجعا فالتفت إلى كاتبه يقول :

— اتركنا قليلا يا زكى أفندى .

— وخيرى أيضا .

وأخذ همام بعض الشيء وقال :

— وخيرى أيضا ؟

— نعم .

ودون أن يسمع خيرى مناقشة أخرى حول خروجه أو بقائه قال للكاتب :

— تعال يا زكى أفندى .

وخرجا وأقفلا الباب وخلت الحجرة بولدى العم ، وتلعثم عزت قليلا ثم قال :

— همام ... طول عمرك رجل فأرجو أن تتحمل ما سأقول فى ...

وقاطعه همام :

— يا عزت إنى كونت ثروتى وأعصابى فى البورصة ... وبقدر عظم ثروتى قويت أعصابى ... قل .

— فواز خسر كل شىء .

وأرتج على همام هنيهة وهو يقول :

— الدين الذى ...

— نعم الذى ضمنته فيه ... هو طبعا لا يملك شيئا ... وأنت ...

— الضامن ... نعم ... إذن فقد خسرت كل شىء ... بل أصبحت مدينا أيضا .

ــ أعرف .

ــ إذن ...

ــ أنا تحت أمرك ... ... ثروتى كلها طوع مشيئتك ... أى شيء تريده ... سأبقى على البيت ، سأشتريه أنا وأؤجره لك حتى تجمع ثمنه ، وأضمنك فى أى مبلغ حتى تستعيد ما خسرته . كل ما أرجوه أن تظل أنت كعهدنا بك ثابتا كالجبل .. لقد كنت حياتك كلها هكذا فأرجوك أن تظل هكذا .

وابتسم همام ابتسامة فيها شكر وفيها تقدير للرجل الكبير الذى يعرض عليه حياته ومستقبله ومستقبل أولاده ... لم يقل شكرا فقد رآها ضئيلة لا تقوم بما فى نفسه ، ولم يقل أنه لا يقبل فقد كان واثقا أن عزت يعلم أنه لن يقبل ... إنه لا يقبل أن يعرض ابن عمه وهو كأخيه لمثل ما تعرض له ... فبيت عزت بيته ولئن ينهدم بيته ... خير من أن ينهدم بيتاه ... ولم يقل ماذا سيفعل ...

لم يقل شيئا إلا نظرة الشكر هذه التى أطلت من عينيه وظلت مطلة فى ثبات ، وإلا هذه الابتسامة التى ارتسمت على شفتيه وتجمدت ، ابتسامة يعجز صاحبها أن يستردها وتأبى هى أن تزول . وفى بطء تحرك لسانه فى فمه يقول :

ــ الأولاد يا عزت .

وسمع عزت الجملة وكأنها تصل إليه من أغوار واد سحيق ... فهو يسمعها بذكائه لا بأذنه ، وخيل إليه أن هماما أصيب فأراد أن يستعيد ما سمع أو فهم ... أراد أن يقول شيئا أى شيء فهو يسأله :

ــ ماذا ... ماذا قلت يا همام ؟.

ويريد همام أن يقول ثانية ... يريد أن يفضى إلى ابن عمه .. أخيه .. بهذه الفكرة التى تلح على ذهنه فى إصرار .. الأولاد .. والأولاد هم زوجته وأولاده ... يريدهم أن يكونوا أمانة فى عنق هذا الأخ ... يريد أن يقول ...

فيقول ... ولكن الكلمة تدور فى رأسه وتدور أيضا فى فمه ولكنها عاصية عن الانطلاق أو هى عاجزة عن الانطلاق . ويرى عزت لسان همام يدور فى فمه كالعجوز المقعد يدور فى الدرب المظلم فلا يبصر الطريق ولا يبلغ المقصد ... ويدرك عزت ما وقع بابن عمه ، وينفى إدراكه عن ذهنه بأمل واهن أن تكون إلمامة إلى زوال ، ولكنه يعلم أنها ليست كذلك ... يعلم ... ولكن لا بد للمصيبة من أمل — مهما يكن ضائعا — يخفف وقعها أو يمنعها على الأقل أن تنزل دفعة واحدة ... هو يعلم ولكن ماذا بيده إلا أن يتعلق بأمل أوهن من خيط العنكبوت وأوهى ... يعلم ولكن ماذا بيده إلا أن يقول فى جزع :

— همام ... همام ... ماذا بك يا همام ؟

ولا يجيب همام إلا بهذا اللسان التائه العاجز المقعد يتعثر فى فمه ولا يبين .

واندفع عزت إلى باب الغرفة فى جنون يصيح :

— خيرى ... خيرى .

ولا ينتظر حتى يقترب منه خيرى الملهوف الجازع بل يقول له :

— استدع الدكتور حالا ... الدكتور عبد العزيز ... عبد العزيز إسماعيل ... حالا ... حالا يا خيرى .

ويقول خيرى :

— ماذا ... أبى ... هل به شىء ؟ ... أبى ما به يا عمى ؟... أبى ...

ويندفع إلى حجرة المكتب ويحاول عزت أن يمنعه ولكنه ينفذ إليها داا الضلفة المقفلة من الباب محطما زجاجها صائحا :

— أبى ... أبى ...

ويستدير عزت إلى خيرى ليقول له :

— أسرع باستدعاء الدكتور ...

وينظر همام إلى خيرى ... ويجد أخيرا وسيلة أخرى ليفهم بها عزت ما يريد ، فهو يشير إلى خيرى ثم يشير إلى عزت ويكرر الإشارة مرات ومرات لا يقف عنها حتى يقول عزت :

— من عينى يا همام ... من عينى يا أخى ... لا تخش شيئا ... أنت بخير .

وتراح أنفاس همام اللاهثة ويطمئن أنه أبلغ أخاه الصديق ما يريد ، ويستسلم لمرضه فى إذعان مطمئن ويهدأ لسانه إلى مستقر ... لقد أدى الأمانة فليحملها من أودعها يديه ... وإنها لأيد أمينة ، إنها أيدى عزت ... إنه ابن عمه ... أخوه ... صديقه .

١٣

انفجار شريان فى المخ ... انفجار الحياة ... شريان ... صغير أو كبير لا يهم ... لقد انفجر وكانت الحياة معلقة بهذه الخيوط الرفيعة التى تجرى فيها الدماء ، ولم تحتمل الخيوط الحياة فانفجرت فمات ... مات همام ... كأى إنسان يموت ، لم يرحم الموت أنه أراد أن ينقذ صديقه ، ولم ترحم الحياة أنه اندفع إلى غمار المخاطرة من أجل الصداقة . لا ... لم يراع الموت ولم تعطف الحياة ... شأنهما دائما يغبيان المروءة ولا يحفلان بالرجولة ، سيان عندهما شقى مات وهو يتسلق بيتا ليسرقه ، أو رجل رمى بنفسه إلى البحر لينقذ واحدا من أبناء الحياة . الموت يستقبل كلا الاثنين وتصدف الحياة عن كليهما .

حلت الكارثة بالبيت الكبير وكان أكبر الرجال فيه هو ذلك الشاب الذى يريد أن يستقبل الحياة فأبت الحياة أن تستقبله . ونزلت النازلة بأمه سميرة هانم فهى

من الخطب فى هلع آخذ حزين مر ، وهى من النازلة فى يقظة كاملة تريد أن تواجه هذه الجديدات التى تطالعها بها حياة جديدة من الفقر وهى لم تعود الفقر ، ومن العسر وقد كانت للآخرين يسرا .

وتقدم عزت يجاهد أقصى جهاده أن يبقى عليهم البيت ، ولكن خيرى أبى ذلك فى عزم واثق .

— ماذا نفعل بالبيت يا عمى ؟.. سيكون ثمنه دينا علينا وأولى بنا أن نواجه الموقف بغير حرص على المظاهر .

وقالت الأم :

— ومن يخدم هذا البيت الكبير ؟ وأين لنا بما يكفى خدمه والعيش فيه . بل أين لنا بالقلوب التى تستطيع العيش تحت سقف كان يظل كبيرنا وكنا ننعم فى بره ؟

وقال خيرى :

— لا تخش علينا من كلام الناس يا عمى . فقد عاش والدنا غنيا ومات فقيرا ولكنا نشرف بفقره ونعتز به أكثر من اعتزازنا بغناه . لقد أراد أن ينقذ صاحبه فأصابتهما الفاجعة .

وقال عزت :

— يرحمهما الله .. ماتا كلاهما من الصدمة ... على كل حال يا خيرى أنا معجب بهذا الكلام الذى أسمعه منك وكل رجائى أن تعوض أنت ما فاتكم من غنى وتلتفت إلى المذاكرة .

— سأعمل يا عمى .

— تعمل ؟! فيم ؟

— سأتوظف ...

— بالبكالوريا ؟

— نعم .

— وتترك التعليم العالى ؟

— سأحاول أن أذاكر من الخارج .

— يا ابنى الحالة لا تستدعى هذا .

— كيف ؟

— أمك عندها العشرون فدانا التى كتبها لها أبوك .

— ماذا تفعل العشرون فدانا فى هذه الأزمة يا عمى ؟.. أنت أدرى ... قنطار القطن بثلاثة جنيهات .

— إنها تكفى ولا شك ... سأشرف عليها أنا .

— بل لا يا عمى ... أعفنى .

— ماذا ؟

— لا نستطيع .

— ماذا ؟

— أكثر الله خيرك وأبقاك ... أما هذا فلا نقبله

— ما هو هذا الذى لا تقبله ؟

— لا نقبل الصدقة يا عمى عزت .

— صدقة ؟!

— نعم صدقة ... صدقة كريمة تحاول كل جهدك أن تغلفها بخلقك السامى ، ولكن لا نستطيع .

— يا بنى لا صدقة هناك .

— نحن نعلم حبك لأبى ، ونعلم أنه أودعنا أمانة فى عنقك ، وكل أملنا أن

ترعانا بإشرافك أما مالك فحرام علينا .

— يا خيرى لا تقل هذا .

— إنك لا ترضى أن نقبل الصدقة يا عمى عزت ... لم يصل بنا الحال إلى هذا .

— وأين الصدقة فى إشراف على أرضكم ؟

— الصدقة فى أن تقدم لنا من أموالك ما نحتاج وتدعى أن ما تقدمه إلينا إنما هو من نتاج الأرض ، وأنا لا أقبل هذا وأمى أيضا لا تقبله .

وجرت دمعات على خد الأم الوالهة وهى تقول :

— يرحمك الله يا همام ... تركت والله رجلا وإن كان صغيرا .

وأطرق عزت فى حزن وإكبار :

— إى والله ... ترك رجلا . أنا تحت أمرك يا بنى ...

افعل ما تراه .

— تجد لى وظيفة .

— غدا تتسلم عملك .

— شكرا يا عمى .

* * *

لم يحس يسرى ولم تحس نادية من الفاجعة إلا ظلالا ضئيلة ، فقد علما أنهما لن يريا أباهما من بعد ، ورأيا الحزن القاتل يخيم على البيت الكبير . ثم رأيا البيت الكبير ينكمش إلى شقة صغيرة . ثم رأيا الخدم يتضاءلون ويختفون الواحد منهم بعد الآخر ، فاختفى سائق السيارة مع السيارة نفسها ، وتناقص الخدم والخادمات فلم يبق إلا الحاجة زينب التى تقوم على تربيتهما والتى كانت حاضنة لأمهما وهى طفلة ، وبشير أغا الذى كان عبدا ثم نال حريته وأبى نيلها وظل مع جدهما ثم مع

أبيهما ، ثم ها هو ذا يظل معهم بعد أبيهم فهو لا يعرف بيتا غير بيتهم . وقد كان فى أخريات أيام همام لا يعمل أىَّ شىء ولكنهما يريانه فى هذه الأيام وفى هذه الشقة الصغيرة يقوم بكل عمل يمكن أن يقوم به . وشيئا آخر أحساه ... أصبح خيرى فجأة ذا أهمية لم تكن له فى البيت الكبير ، ورأياه يصدر أمرا عجبا له أول الأمر ، ثم ما لبث أن أصبح طبيعيا على الأيام ، فقد أصبحت الحاجة زينب فى الشقة الصغيرة طباخة وتركت أمر رعايتهما وأصبح كل منهما يقوم بشأن نفسه ما وسعه الجهد .

رأيا هذا وأحساه ولكنه لم يصل إلى أعماق نفسيهما ، فالوفاء صغير عند الأطفال والنسيان كبير . عجبا ولعلهما ضاقا بالبيت بعض الشىء ، ولكن ما أسرع ما وجد يسرى أصحابا بدل الصحاب وما أسرع ما شغلته المدرسة التى لم يصبها فى هذا الانقلاب الكبير تغيير ، فهى هى مدرسة المنيرة لا تزال .

وأما نادية فقد بدأت تذهب للمدرسة وكان هذا تغييرا جديدا على حياتها لم تدر إن كان له صلة باختفاء أبيها أو بالنقلة من بيت إلى بيت ، أم لا صلة هناك .

واستطاع عزت أن يستقدم للشقة الجديدة أثاثا من البيت الكبير وقد وجد من الدائن ترحيبا ، فقد أكبر هذا الدائن خيرى الذى قدم كل ما يملك سدادا للدين ولم يهرب شيئا . وأراد عزت أن يأخذ المكتبة إلى الشقة ولكن خيرى أبى ، فقد أصبح يكره هذه المكتبة التى لم تشهد فى بيتهم إلا مصرع أبيه ، ولكنه أخذ الكتب جميعا وجعل منها هوايته .

واستقر الأثاث الفخم فى الشقة الصغيرة يشهد ما يشهده أصحابه من فقر بعد غنى وعسر بعد يسر وضيق بعد سعة . لم يفكر خيرى ولم تفكر أمه أن يبيعا الأثاث ليستبدلا به رخيصا غيره ، فقد كان الأثاث يحمل ماضيا للأسرة ، ومهما تكن فى هذا الماضى من مرارة إلا أنه قطعة منهم تحن لها النفس وإن أمض النفس أن

تذكره .

استقرت الحياة بالأسرة ، ومهما يكن الحال التى استقرت عليه إلا أنه استقرار خير من الضياع . وجاهدت الأم نفسها وأعانها كبرها فاستطاعت أن تظل دائما الست الكبيرة الهادئة المطمئنة إن حزنت فلزوجها ، وإن بكت فعلى فقيدها . ولم تذكر عزا مضى ولا غنى زال ولا رفاهية ذوت ، وإنما تذكر زوجا كريما ورجلا رجلا وركنا ظل إلى أن مات ركنا . وفى هذه المعانى عاش خيرى ، واستطاب أن يرى نفسه عماد بيت ، والتذ شعوره بأنه يجاهد من أجل أمه أن تعيش كريمة وأخيه أن يتم تعليمه وأخته أن تثقف حتى يرضيهم ربهم بمن يضمها إلى بيته فقيرة ذات أصل وثقافة وجمال .

وكانت أسرة عزت تكثر من زيارتها للشقة الصغيرة . وكانت سميرة هانم ترد هذه الزيارات فى ثقة بالنفس وهدوء فقد أكرمها الله بولد أبقى على كرامتها أن تهان وعلى يدها أن تمد . فهى إن شكرت عزت فإنما تشكر الوفاء لم يشبه عطاء والرعاية لم تخالطها الصدقة ، فهى بعد مثلها مثل أجلال لا تقل عنها شيئا ، فأمر غناها وفقرها لا شأن له بصلاتها بقريباتها وصديقاتها ما دامت لا تحتاج إليهن فى فقرها كما كانت لا تحتاج إليهن فى غناها ...

لا شأن لواحدة منهن أنها كانت تأتى إليهم بالسيارة وأصبحت تأتى بعربة أجرة يجرها حصان أو اثنان ، ولا شأن لواحدة منهن أنها كانت ترجع إلى البيت الكبير فأصبحت ترجع إلى الشقة الصغيرة ، ومن تشأ منهن أن تزورها فبيتها بيتها كبيرا كان أو صغيرا .

وبهذا التفكير الواثق المطمئن كانت تزور من يزورها من قريباتها وصديقاتها . شىء واحد جد على علاقتها بالناس ؛ أقلعت عن زيارتها للفقيرات من قريباتها فقد أخجلها أن تذهب إليهن دون أن تحمل ما تعودت أن تحمله لهن مما يعين على

الحياة . ورفضت أيضا أن تبدأ صديقة أو قريبة من مثيلاتها لم تبدأها بالزيارة ، فقد رأت فى إحجامهن ترفعا منهن لا يقابله عندها إلا ترفع مثله .

* * *

لم يستطع خيرى فى غمرة عمله والأحزان والتغيير الذى أصاب حياته جميعا أن ينسى هواه ، وكيف له أن ينساه ؟ فقد تستطيع الحياة أن تفقده أباه وتستطيع أن تفقده المال ورفاهية العيش ، وتستطيع أن تفقده آماله من شهادة عالية ومكان بين الناس كبير ، وقد يستطيع أن يقنع عن اليتم بساعد إن يكن ضعيفا إلا أنه لا بد له على الأيام أن يشتد ، وقد يستطيع أن يرضى من المال بالستر ومن الرفاهية بالعيش الرضى ، وقد يستطيع أن يخدع آماله فى مكان كبير بين الناس بأن يرى نفسه فى داخل نفسه كبيرا يسعى من أجل أمه وأخويه ، ولكن بماذا يقنع هواه وهو هوى فى القلب بلا منطق أو عقل ؟.. إنه هوى ... بماذا يستطيع أن يخدع حبه أو يرضيه ؟ وكيف السبيل إليها اليوم ؟ لقد صحبت أمها إلى البيت فى كل زيارة ... ولقيها ... وحادثها ، يا له من حديث كالحصان الجامح العربيد تمسك به يد طاغية عاتية لا يملك منها فكاكا . حادثها عن عمله هنيهات ، وانتظر أن تدعوها أمها كما كانت تفعل . ولكنها لم تدعها ... لقد أرادت الأم أن تشعره أن شيئا بينهما لم يتغير وشعر هو وفهم ، ولكن هيهات ... لقد تغير كل شىء ... رفض هو سكوت أمها فلم يلبث أن دعا هو وفية أن يذهبا معا ليجلسا إلى أمها ... رفض الخلوة التى كان يحلم بها ويدعوها ويرجوها ويسعى إليها : وأحست هى ولكن كيف تبين له عما تحس ؟ أرادت أن تقول له إن شيئا لم يتغير ، وقالتها بما صنعت من جلوسها إليه ، ولكنها لم تستطع أن تذكر هذا فى حديث . خيل إليها أنها لو قالت إن شيئا لم يتغير فكأنما تقول إن كل شىء قد تغير ... أرادت الأمور أن تجرى فى نفس المجرى الذى كانت تسير فيه ولكن

الأمور أبت وأبى هو وأبت الحياة .

هيهات ... إنه هوى لا سبيل إليه ... قالها وأحس فى نفسه الطعنة ، وأحس راحة الموت بعد الشقاء ، وهدوء المنكوب بعد الفاجعة ... لا أمل له فى هواه ... فليبحث له عما يصرفه عن هذا الهوى فها هو ذا أصبح حرا من الحب وإن كان الجرح فى نفسه عميقا .

وأحست وفية أنه حزم أمره على اليأس ، وحاولت فى زياراتها العديدة أن ترسل إلى هذا اليأس وامض أمل ولكنه أغلق نفسه من دونها .

أتراهاتيأس مثل يأسه وتتركه ؟! لكم تمنى ألا تفعل ... ولكم تمنى أن تفعل ... حيران بين يأس استقر عليه وبين حب شب معه وانتهى إلى رماد من ذكريات ودماء من جراح ... أيتزوجها فيصبح عالة عليها وعلى أبيها ؟.. هو يعلم أن أباها يقبل ولكن أيقبل هو ؟... ولكن أيقبل أيضا أن تصبح أيامه الماضية جميعا من طفولة وشباب ذكريات لا تحمل إلا الألم والحسرة ؟.. وماله لا يقبل ؟ ألم تتغير حياته جميعا ؟ فليكن هذا جرحا مع الجراح ولتتكسر النصال على النصال . ولكن هذا الجرح أشد عمقا وأبعد فى الزمن والنفس غورا ... لعلها ... رحماك يا رب العالمين .

لعلها ماذا ؟... إننى لن أقبل ... أم ترانى أقبل ؟..

١٤

دأب خيرى منذ انتقل إلى الشقة وحصل على كتب أبيه ، على أن يشترى هو الخشب ويصنعه ليكون مكتبة تغطى جدران حجرته . ولم تكن المكتبة التى يهفو إليها إلا أرففا بعضها فوق بعض ، يسيرة الصنع رخيصة التكاليف ، تعينه على قطع الوقت وعلى تجميل الحجرة وعلى حفظ الكتب . وقد جعلت أمه من هوايته الجديدة هذه مادة ضحكها ، فكان يشاركها فى الضحك ويدعو إليه أخته وأخاه ... فقد تستطيع النفوس الحزينة أن تجد فى بلواها ما يضحك ، وقد تراح النفوس إلى هذا الضحك ... كم هى رحيمة يد الله ! الدمع يغسل والزمان يلهى والحياة تقسو فلا يجد الناس لدفع قسوتها سلاحا إلا الضحك فيضحكون .

واستطاع يسرى أن يجد فى المكتبة إلى جانب الضحك مادة للعب أيضا ، حتى جرح يوما أصبعه فأمره أخوه ألا يلهو بأدوات النجارة مرة أخرى ، ولم يطع فزجره فلم ينته . فلم يجد خيرى مفرا من أن يقفل الحجرة كلما ترك البيت ، وأصبح يقوم بعمله هذا واجدا فى ذلك العمل اليدوى راحة لذهنه وقلبه معا .

كان خيرى مشغولا بإقامة مكتبته حين جاءه بشير أغا يخبره أن صديقا له اسمه نجيب جاء لزيارته . ويقول خيرى فى فرح :

ــ نجيب كامل ؟

ويقول بشير أغا فى عربية غير عربية :

ــ لا أعرف ... قال نجيب ... كامل غير كامل لا أعرف ؟!

ويسارع خيرى إلى غرفة الجلوس فيجد صديقه نجيب كامل وعلى فمه ابتسامة حلوة وهو يقول :

— يا أخى اذكرنا ... تركت البيت ، أرسل لنا العنوان الجديد ... أم تراه حتما علينا ندوخ حتى نعرفه .

فى هذه العذوبة والصفاء يجمل نجيب كل هذا الذى حدث . لم تضع ثروتهم ولم يفقدوا عائلهم ولم يصبهم الدهر فى جاههم ومالهم ومجدهم وآمالهم ... لم يحدث شىء من هذا وإنما انتقلوا من بيت إلى بيت ... هذا كل ما حدث .

وفى عناق حار اختفت الدموع التى ترقرقت فى عينى خيرى ، وفى أهلا وسهلا تهدج بها صوته بدا منه لصديقه الشكر والحب والإعزاز . وجلس الصديقان .

— والله زمان يا نجيب .

— أى والله ... زمان .

— هيه ما أخبارك ؟

— كلية الحقوق طبعا ... كما تعرف .

— طبعا ...

وأوشك صوته أن يتهدج ثانية ولكنه جمع نفسه وهو يقول :

— كنا ننوى الالتحاق بها معا .

— وما المانع الآن ؟

— إنى موظف ... أظنك عرفت .

— نعم أعرف ... ولكن ما يمنعك أن تذاكر معى ؟

— أخاف أعطلك .

— بالعكس ، فأنت من بعد الساعة الثانية لا عمل لك ... وستكون أحرص

على المذاكرة منى ، فأنا قد أعتمد على المحاضرات بينما لن تعتمد أنت إلا على المذاكرة .

— نبحث الموضوع .

— لا نبحث ولا يحزنون ... وعلى فكرة أصبحت أعيش وحدى فى شقة خاصة بى .

— ماذا ؟

— ما سمعت .

— ولماذا ، كفى الله الشر ؟

— رقى أبى إلى باشكاتب محكمة قنا ، وطبعا لم يكن بد أن أظل وحدى .

— ومن يخدمك ؟

— استأجرت خادما كسولا لا يعرف من شئون البيت شيئا ... يخيط الزر فلا يتماسك إلا ريثما يدخل فى العروة ، ثم يسقط على الأرض شاكيا جهل من ركبه ، ويطبخ الأرز فيصبح لبخة أو يطبخه فيصبح حصى .

— اطرده .

ويفكر نجيب قليلا وهو يقول :

— والله أظن مسألة الطرد هذه مستحيلة .

— لماذا ؟

— قريبى .

— قريبك ؟!

— جدا ... ثم لا يتقاضى أجرا .

— طبعا لا يتقاضى أجرا ... إنه خليق أن يدفع لك أجر إبقائك له ... من هو هذا القريب ؟

ـــ نجيب كامل .

ـــ من ؟

ويغرق الصديقان فى الضحك ، ويقول نجيب :

ـــ أصدقت أن لى خادما ؟... أجننت ؟ مرتب أبى يسع الكتب بطلوع الروح ، فمن أين أجىء بالخادم ؟.

إذن فأنت وحيد ؟!

ـــ وحيد !

ومد نجيب شفته مخرجا نغمة تترجح بين السرور والخبث وقال :

ـــ ليس دائما .

وأشرق وجه خيرى بالفهم ، ولكنه فضل أن يبدو كأنه غبى لا يفهم ما يقصد إليه صديقه .

ـــ لا أفهم .

ـــ بطبيعة الحال ، الملابس تحتاج إلى غسل .

ـــ وما شأن هذا بوحدتك ؟

ـــ الغسالة آية فى الجمال .

ـــ ومن أين لك بأجرها ؟

ـــ فى الثلاثين من عمرها ، وأنا فى العشرين .

ـــ عظيم ... غيره .

ـــ زوجة صاحب البيت ... صاحب البيت فى الستين من عمره ، وهى فى الخامسة والعشرين ... وأنا ...

ويقاطعه خيرى :

ـــ فى العشرين ... مفهوم ... غيره .

— هذا هو الثابت ... وكله مع التساهيل .

— وكله مجانا .

— المسألة لا تخلو من زجاجة عطر للغسالة ، وهدية صغيرة للست ، إنها حاجات بسيطة ، والقادمات من الخارج يكتفين بالعشاء ، والطماعة تذكرة سينما .

— ما ألذ وحدتك ومذاكرتك ... عنوانك ... أسرع .

١٥

كانت سميرة هانم تجلس إلى ولديها وابنتها نادية فى حجرتها التى اتخذوها مكانا يقضون به يومهم إن لم يكن لديهم زائر ، وتنقلت سميرة هانم بعينيها على وجوه أبنائها ثم قالت فى نفسها : « نحمدك يا رب ونشكر فضلك ، أخذت المال والعائل وتركت البنين ... أكمل كرمك يا رب وبارك فيهم » . ومست فؤادها نفحة من راحة لا تلبث تهفو إلى القلوب الحزينة فتمنحها إشراقا وأملا . وفى غمرة من هذا الإشراق قالت الأم لخيرى :

— هيه يا معلم ... ألم تنته بعد من مكتبتك ؟

وضحك يسرى ونادية ، وأرتج على خيرى لحظات فقد كان غارقا فى تلك الآونة يفكر فى شأنه وشأن وفية ، وقد أخذت بمجامع نفسه أفكار تتراوح بين اليأس القاتل والأمل الواهن لا يكاد يبين . وأدركت الأم بحاستها ما يفكر فيه أدركته بهذه الضحكة المضطربة التى أطلقها تعليقا على سؤالها . وأرادت أن تتأكد مما أدركت فالتفتت إلى يسرى تسأله :

ــ هيه يا يسرى : ألم تذهب اليوم إلى بيت عمك عزت ؟

وكانت عيناها ترقبان خيرى فرأته يفبق تماما إلى اسم البيت الذى ذكر أمامه .

وقالت نادية وكأنما تذكرت شيئا :

ــ قل لى يا يسرى ... لماذا تذهب وحدك إلى بيت عمى عزت ؟ لم لا تأخذنى معك لألعبَ مع فايزة ؟.

وقال يسرى :

ــ يا عبيطة ... هل ألعب معها ؟.. إنى ألاعبها ... أرسم لها وأصنع لها البيوت . أتعرفين أنت كيف تلاعبينها ؟.. إنك ستتكلمين وتتكلمين وتجعلينها تبكى لأنها لا تسمعك .

وقال خيرى :

ــ والله فيك الخير يا يسرى . وماذا تصنع لها أيضا ؟

ــ ألاعبها ، أظل أنا ودولت نلاعبها ، وأحيانا تطلب دولت إلى أن أبقى معها وتتركنا هى لتستريح .

وقال خيرى فى خبث :

ــ هيه ...؟

ــ هيه ماذا ؟!

ــ أهى دولت ؟!

وقال يسرى فى لعثمة وسرعة :

ــ مالها دولت ؟

ــ لا ... لا شىء ، ولكنك قلت لى إنها حلوة ولطيفة .

واحمر وجهه خجلا وهو يقول :

ــ وماله ؟

وأغرقت سميرة هانم فى الضحك وهى تقول .

— وكيف عرفت أنها حلوة ولطيفة يا سى يسرى ؟!

وقال يسرى فى غضب :

— وهل أنا عيل ...؟!

— لا ... العفو .

— والله لأتركنكم ... لن أقعد معكم .

وقال خيرى :

— وأين تذهب ؟... إلى دولت ... أقصد إلى فايزة .

وأسرعت نادية تقول فى براءة :

— خذنى معك .

— ولحقت بأخيها الذى كان قد غادر الحجرة تاركا خلفه ضحكا يملأ أرجاءها . ملأ الضحك الغرفة هنيهات ثم أعقبه ذلك الجو الذى تعود أن يواكب الضحك أنى يكون . والتفتت الأم إلى ولدها تقول له :

— خيرى ...

— نعم يا نينا ...

— ألا تعرف أن عندى مجوهرات كثيرة ؟

— أعرف يا نينا .

— لماذا لم تسألنى عنها ؟

— ولماذا أسألك ؟

— كان من الطبيعى أن تسأل ، لعلها تنفعك الآن !

— بل ستنفعنا غدا حين تزوجين نادية ، وحين يتخرج يسرى ويريد الزواج وتكون الأحوال قد تعدلت . وتنفعنا إذا — لا قدر الله — صادفتنا عقبات فى

حياتنا هذه الجديدة .

— أبقاك الله يا خيرى ... أتدرى لماذا أكلمك عنها الآن ؟.

— لا والله لا أدرى !

— أريد أن أختار منها شبكة لك ، وأبيع واحدا من العقود وأجعل ثمنه مهرا لوفية .

ونظر خيرى إلى أمه طويلا ثم قال :

— أترضين لى ذلك يا نينا ؟

— ما هو الذى أرضاه ...؟

— أترضين أن أتزوجها فتصبح هى الزوج وأنا الزوجة ... لماذا تتزوج فقيرا لا يحمل شهادة ؟ وأين أسكنها وماذا تفعلون أنتم ؟

— وهل ستظل بلا شهادة ... ألا تذاكر مع نجيب ؟

— آمال يا نينا ... أتظنين أن هذه المذاكرة تفيد ؟... وعلى كل حال افرضى إنى نلت الليسانس ، وبعد ؟

— كل شىء يمكن تدبيره .

— لا يا نينا ... أنت تعرفين أن هذا لا يمكن تدبيره أبدا ... وأظنك لا تقبلين أن أتزوج منها وأعيش على نفقة أبيها ... وأضطر لإجهاد نفسى حتى لا أضيع كرامتى كلها فلا أستطيع أن أقوم بواجبى نحوكم .

— يا بنى نخطبها وتتزوج حين تتخرج .

— وأترككم ؟!

— يكون يسرى كبر .

— أتريدين أن يترك يسرى المدارس أيضا ليقنع بوظيفة بالبكالوريا مثلى ... لا يمكن . إن كانت الظروف حكمت ألا أنال أنا الشهادة العالية فلا بد أن ينالها



يسرى ...

ــ ماذا أقول لك يا بنى ؟... أنا أعرف مكانها فى نفسك وأشفق عليك ، ولكنى أرى رأيك كاملا ... عوض الله صبرك خيرا يا بنى و...

ودق جرس الباب الخارجى ومرت الحاجة زينب بهما لتفتحه ، وما لبثت دولت أن دخلت عليهما الحجرة :

ــ إجلال هانم ترجوك أن تتفضلى بزيارتها لأنها متعبة ، ولم تستطع المجىء معى .

ــ طيب يا بنتى انتظرينى حتى أتوضأ وأصلى المغرب .

ــ حاضر .

وقعدت دولت وقامت سميرة هانم وتركت الحجرة تخلو بالاثنين ... وما لبثت دولت أن قالت :

ــ ماذا ... لماذا لا نراك ؟.. إن جئت لا تصعد وإنما تكتفى بلقاء البك ثم تمضى ... ماذا جرى ؟.. أليس لك أحد تسأل عنه ؟.

ــ والله ...

ــ إن كنت لا تريد أن تسأل عن وفية فاسأل عن فايزة ... أو عن التى أحضرتها لفايزة .

ــ أنا مطمئن على أخبارك من يسرى .

وضحكت دولت ضحكة فيها دعابة وقالت :

ــ آه ... أيكفى هذا ؟.. المهم ... معى رسالة لك .

ــ ماذا ؟

ــ فكرت ألا أعطيها لك ، ولكن خشيت أن تعرف وفية أننى ... المهم . لم أستطع حجزها ... هذه هى الرسالة ... اقرأها وقل الجواب .

وفتح خيرى الرسالة ... كانت سطرا واحدا ... « أرجو أن أراك غدا فى الساعة السابعة بالسلاملك » .

أرتج على خيرى لا يدرى بماذا يجيب ... لكم يهفو إلى الذهاب ولكن كم من العراقيل يقف دونه . يريد أن يقول نعم فتمسك بلسانه آلاف الحجج التى أقامها فى نفسه . ظل ينظر إلى الرسالة ثم ينظر إلى دولت فيرى على فمها ابتسامة فيها سرور ويرى فى عينيها إشفاق أن يوافق ، ثم يسمعها تقول « هيه ماذا أقول لها ؟ » وقبل أن يجيب تدخل أمه فتنقذه من هذه الحيرة التى ألقته إليها الرسالة . وتقيم الأم الصلاة ثم ما تلبث أن تخرج من الحجرة تتبعها دولت التى لم تشأ أن تنظر إليه منذ دخلت أمه حتى لا تضطر أن ترى موافقته على الذهاب فى إيماءة خافية .

١٦

ماذا كان يمكن أن أفعل ؟ كيف كان يمكننى أن أصل إليه ؟ إنه لا يرانى إلا إذا اطمأن أننى لست وحدى . أصبح كل جهده ألا ينفرد بى بعد أن كان كل جهده أن ينفرد بى . أعلم أن فقره وغناى حائل بينى وبينه ، ولكنه حائل يقيمه هو . أبى يريد هذا الزواج وتريده أمى فهما يعلمان ما بيننا ، ويعلمان أن كل من يعرفنى ويعرفه كان يتوقع خطبتنا من يوم إلى آخر ، وكانا سعيدين بذلك . واليوم لا يزال أبى يريد هذا الزواج ويرى فيه الوسيلة الوحيدة التى تمكنه من عون أسرته دون أن يجرح كبرياءها أو كبرياءه ، وأمى — كعادتها — لا رأى عندها إلا رأى أبى ، فلماذا لا يتقدم هو ؟.. أعلم أنه متكبر ... ولكن ألا يكفى حبنا القديم الذى لا يزال جديدا ؟.. ألا يكفى هذا اعتذارا لكبريائه ...؟!

لقد أرسلت إليه الخطاب ولم يجب ... ولكن لا بد أن يأتى ... ألا يقدر أننى أنا أيضا قد تنازلت عن كبريائى وقبلت أن أكتب إليه ؟ ألا يكفيه هذا ؟.. لشد ما أخشى أن يرى فى خطابى شفقة لا حبا ... بل لا ... إنه يدرى كم أحبه ... كيف يدرى ؟!... أكنت كاشفته ؟.. نعم ... كاشفته ... أكان لا بد أن أقول ؟.. ألم ير إلى عينى ؟.. إلى وجهى ؟.. ألـم يسر ؟.. أكان محتاجا للحديث حتى يدرى حبى ؟.. إن لم يكن قد أدرك كم أحبه فهو لا يحبنى ... وأنا لا أريده ... بل لا ... إنى أريده ... إنه كل شىء لى ... كل شىء ... أحلامى وآمالى وزوجى وبيتى ... بربك يا خيرى ... بحبنا ... بأيامنا الطفلة اللاهية ، وبكل ما كان بيننا من لقاء نشوان ، وهوى عاصف مستور ، بكل ابتسامة منى استقبلتها ابتسامة منك ، وبكل فرحة بلقائك التقت بفرحتك ... لا تخذلنى ... لا تدعنى لأيام أجهل شريكى فيها ... لا تدعنى لوحدة لن تزول عنى ... ألا تفكر إلا فى كبريائك ؟... ألا تذكر مصيرى أنا ؟... ألا تضحى بالكبرياء لتنقذنى أنا من أيام أجهل فيها المصير ... فأنا ضائعة ملقاة فى دوامة من عصف الحياة بى لا أرى فيها مستقرا أو ملاذا .. خيرى أكبرياؤك أحب إليك من حياتى ؟ أهينة أنا عليك ؟ إنها أنا بكل ما مضى من أيامى فى ظلال حبك ، وبكل ما بقى لى من حياة ... أتاركى وحدى لترضى هواجس نفسك من مثل وكبرياء وإباء ؟.

ما إخالك ألا تفكر فى نفسك فقط ... ألا تفكر فى أنا ؟ أتنظر إلى حقك ولا تنظر إلى حقى ؟.. إن توهمت أن واجبك نحو نفسك هو أن تأبى الزواج بى فواجبك نحوى أنا أن تقبل هذا الزواج . فليكن زواجك بى تضحية بكبريائك فى سبيل حياتى أنا ... أهينة حياتى ؟.. ألا تعدل هذا الثمن الذى تبذله مهما يكن باهظا ؟.. لو كنت مكانك ما ترددت ... لو كنت إياك فى موقفك وكنت أنت فى موقفى لتقدمت ... إنها أنانية منك تلك التى تملى عليك موقفك هذا ...

فاترك أنانيتك هذه من أجلى أنا ... ومن أنا ألست أنا أنت ؟؟.. خيرى ألا تجىء ؟.. من ينقل إليك هذا الكلام إن لم أقله أنا ؟.. من يذكرك بحقى عليك إن لم أذكرك أنا به ؟ لا بد أن تأتى ... لا بد أن تأتى حتى أجعل عقلك يفكر بعقلى فإنى أدرى أنك الآن لا تفكر إلا بكبريائك أنت ... ولا تذكر غير كرامتك أنت فاذكر حياتى ... أتذكر حياتى ؟!

كانت وفية تحترق فى هذا اللهيب من الذكريات والآمال وهى ماكثة بجانب شباك السلاملك ترقب الطريق تأمل أن تراه ، وكانت لاتنى تنظر إلى ساعتها وقد جاوزت السابعة تحطم كل دقيقة تمر بعضا من آمالها ... وبعضا من كبريائها ... أهى التى تنتظر ؟ وهى التى تسعى إلى اللقاء ؟ وهى التى ترسل الخطاب ؟ فالكارثة التى أصابتهم إذن أصابتها هى أول ما أصابت ... فى كبريائها ، فى آمالها ، فى حياتها جميعا .

وفى نظرة إلى الطريق رأته قادما ... إذن فقد جاء ... فأعطنى يا رب القوة أن أقول ما أريد أن أقول ... يا رب .

واقترب خيرى من الباب الرئيسى للبيت ، وقصدت وفية إلى باب السلاملك ففتحت لعينها ضلفة ترى إلى الطريق ولا يراها من بالطريق . واجتاز خيرى الباب الكبير ولكن ماذا حدث ؟.. إنه لم يمل إلى سلم السلاملك وإنما جاوزه قاصدا إلى البيت نفسه ... لم يستطع أن يمنع عينيه أن تلقيا بنظرة إلى السلاملك ، فهو إذن يعلم أنها فيه ... ولكنه مع ذلك لا يلقى إلا هذه النظرة القلقة ولا يزيد ، ثم يعدوها إلى البيت ... لم يأت لى إذن . أقفلت وفية الباب وعادت إلى مكانها وأسلمت نفسها إلى بكاء يتفجر من أعماق نفسها .

* * *

دلف خيرى إلى حجرة المكتب فى بيت عمه عزت فوجده جالسا بها ينتظر

مقدمه . وما إن رآه حتى قام إليه يحييه فى ترحيب ، وما لبث أن قال :

— أكنت مشغولا اليوم ؟

— والله كنت على موعد مع أحد أصدقائى .

— أرجو ألا أكون عطلتك عن شىء هام .

— أنا تحت أمرك دائما يا عمى .

— والله يا بنى أنا أريدك اليوم فى موضوع هام ، وإنى آسف أن الظروف اقتضت أن أكلمك أنا فيه .

— تحت أمرك يا عمى .

— لعلك لا تعرف أن المرحوم والدك كان قد خطب منى وفية لك ووافقت ، واتفقنا ألا نخبر أحدا بذلك حتى تتم تعليمك .

— ماذا ؟

— إنه لم يخبر حتى والدتك وأنا لم أخبر إجلال إلا اليوم .

— حتى والدتى ؟

— نعم ، قدرنا أن الأمهات لا يسكتن وتوقعنا أن أمك قد تخبرك على سبيل التشجيع لك على المذاكرة أو تعجز عن كبت عواطفها ... المهم أن أحدا لم يعرف بهذه الخطبة إلا أنا وهو .

— والله يا عمى ...

— لم أكن أنوى أن أفاتحك الآن ... كنت أريد أن أنتظر حتى تتم تعليمك ، فقد علمت أنك تذاكر مع أحد أصدقائك .

— نعم .

— ولكننى مضطر أن أطلب إليك أعلان الخطبة .

وأرتج على خيرى فلم يجب ، وواصل عزت بك الحديث :

— تقدم لخطبة وفية جميل نظمى ابن نظمى باشا السيد . ووالده من أقرب أصدقائى ولا أستطيع رفض خطبته إلا بإعلان خطبتك أنت ... أما الزواج فليتم على مهل .

وأطرق خيرى طويلا وران الصمت على الحجرة ، ورأى عزت دمعات تسيل من عينى خيرى فظل رانيا إليه ينتظر جوابه . وأخرج خيرى منديله يذود عبراته ، ثم رفع إلى عزت وجها شاحبا تصلبت نأماته فى عزم كعزم المقدم على الانتحار ، وبلسان واثق ينطلق عن نفس تحترق من الألم قال خيرى :

— أشكرك يا عمى .

— علام تشكرنى ؟

— أنت طبعا تعرف من هى وفية بالنسبة لى . ولا شك أن أبى كان يعرف هذا يوم خطبها ... كان يعرف أنه يحقق بخطبته أملى الأكبر فى الحياة ... ولكنى اليوم لا أستطيع . لا أستطيع مطلقا . ولن أنسى لك هذا الموقف منى .

وأطرق عزت طويلا ثم قال :

— يا بنى لا أستطيع أن ألح عليك فى هذا . ولكنى أستطيع أن أقول ، وأقسم برحمة أبيك أن رغبتى فى زواجك من ابنتى لا يشوبها شفقة عليك ، وإنما هو أمر أهفو إليه كما كنت أهفو إليه يوم خطبها والدك . وأنا أعرف كل ما يدور بنفسك وأستطيع أن أنتظر بعض الوقت حتى تفكر وتجيبنى . فلعلنى اليوم أدهشتك .

— أفكر ؟... أنا لا أفكر إلا فى هذا يا عمى منذ وقت طويل ... كم كنت أتمنى أن أجد فى نفسى الشجاعة على التقدم إليها ... والله وحده يعلم كم أشقى بعجزى ... ضميرى لم يقبل ... فكرت كثيرا يا عمى ... أبقاك الله لنا دائما فأنت أعظم إنسان عرفته ... السلام عليكم .

. وقبل أن يسمع شيئا اندفع إلى باب الحجرة والدموع تتواكب على عينيه ،

يكتم نشيجه ويحبسه ويسارع الخطى حتى ليكاد يجرى ، والتقى به محسن وحاول أن يستوقفه ، ولكنه مال عنه إلى الباب فى اندفاعة يائسة مجنونة مريرة ، وعبر السلاملك ملقيا إليه نظره دون أن يحس ، ثم نفذ كالسهم من الباب وراح يدفع خطاه كأنه العاصفة التى تدور فى نفسه . حتى إذا ابتعد عن البيت أطلق الدموع والنشيج وراح يسير فى الطرقات بلا هدف ولا غاية ، إلا ظلاما يستر عليه دموعه الواهة الحارقة .

١٧

إنه ابن أبيه ، كان لا بد لى أن أتوقع منه هذا . كنت أريد أن أجعل منه أخا لمحسن ، وكنت آمل أن أعينه على العيش فلا يحتاج إلى الوظيفة ويتفرغ للدرس ، وكنت أؤدى واجبى نحو صديقى وابن عمى وأخى ، وكنت أيضا أضحى بابنتى وألقى بها إلى بيت يقوم على مالها وحده ، آملا — والأمل ضعيف — أن يكبر زوجها على الأيام ، بل على السنين ، والكثير الكثير من السنين . إنها تريده ، وأعلم ذاك ، ولكن منذ متى استطاعت فتاة فى هذه السن الباكرة أن تتبين الطريق الأقوم لتسير فيه . إنى أحب خيرى وأقدره وما زال تقديرى له يزداد منذ مات أبوه ، ولكن حبى وتقديرى لا يمنعان أن أرى الحقيقة واضحة جلية ... إنه فقير بلا شهادة ، وعليه لأسرته واجبات يصر على القيام بها ، وهو محق فى إصراره . فإن كان خير وفية وحده هو ما أستهدفه فزواجها من جميل أجدى ، ومستقبلها فى ظله أثبت ، وقد أديت واجبى وأدى خيرى واجبه . وأنا بعد سأظل راعيا لهم لا أتركهم ، ولعل إكبارى لخيرى يجعل مكانه منى مكان

الصهر القريب . لقد جعلني موقفه أكثر اطمئنانا على مستقبل ابنتى وهو لهذا جدير منى بالشكر ، وسيكون شكرى أن أجعل من نفسى أبا له

مسكينة وفية ، لا شك أنها ستتألم ، ولكن ألم الشباب سريع الزوال ... مسكينة ! لقد شبت وهمس صويحباتها والسيدات من حولها لا يني يذكرها أنها عروس خيرى . لقد كان فتى آمالها عاشت ترى فيه زوج المستقبل ... أعرف هذا وهى تدرى أننى أعرفه . وقد حاولت ... بل لقد بذلت فى محاولتى ما لم يبذله أب آخر ... لقد خطبت أنا لابنتى ورفضت خطبتى . لا أستطيع أن ألوم نفسى فى يوم إذا رأيتها حزينة أن لم يتم زواجها من خيرى .

وبعد فما دامت لم تتزوج خيرى فالكل عندها سواء ، وجميل خير من يصلح لها ، وهو فى السلك السياسى ، فهى لن تقيم فى مصر وتستطيع البلاد التى تزورها أن تنسيها ما كان فى مصر من آمال محترقة ... لعلهما يسافران إلى أوروبا فأجد بيتا حين أسافر هناك وأستغنى عن الفنادق وما ألاقيه فيها من متاعب . نعم إن بيت ابنتى سيكلفنى أجرا أغلى ، ولكنه خير من الفنادق على أى حال ؟ وعون ابنتى أمر لا بد منه سواء أنزلت بفندق أم نزلت ببيتها . ونظمى باشا السيد من كبراء رجال الحزب ، وأستطيع بهذا الزواج أن أضمه إلى جانبى كلما اقتضى الأمر عونا إلى جانبى . وهأنذا مرشح للوزارة فى التعديل القادم القريب . لو كنت رفضت هذا الزواج ، لعارض هو ترشيحى للوزارة . أما الآن فلا بد أنه يؤيدنى : عجيبة ؟! لقد كنت ناسيا مسألة الوزارة هذه ، أما كنت أقدر أن رفض جميل كان سيطيح بكرسى الوزارة ؟ لا لم أكن ناسيا . لقد خطرت هذه الخاطرة بذهنى ولكن وفائى لهمام كان يحتم على أن أفعل ما فعلت ... أحمد الله أنى لم أصغر أمام نفسى ، وشاء الله الكريم وشاء خيرى — حفظه الله — أن يرد إلى وفائى بالخير العميم .

لم يعد أمامى الآن مشكلة إلا إقناع وفية . ولكن ليست هذه مشكلتى ، إنها مشكلة إجلال . مسكينة إجلال ... مصيبتها فى فايزة تكبر مع الأيام ، فأنا أخرج وأعمل ولا أقيم فى البيت إلا قليل وقت أما هى فلا تبارحه ولا تبارح فايزة أو هى لا تكاد . لعل دولت ترفع عنها بعض العبء فهى تلاعب فايزة وتصاحبها أغلب الوقت ، ولكن من للعبء الذى تحمله إجلال فى نفسها ! من لهذا العبء ! ودولت إلى متى تقيم هنا ؟.. أرى محسن كثير النظر إليها .. ترى هل بينهما شىء ؟. لكم أخشى . ولكن إجلال يقظة ولعل محسن يقدر الظروف التى جاءت بدولت فلا يعدو عليها ويكتفى بالنقود الكثيرة التى يصيبها منى والتى يدعى أنه يأخذها للكتب .. يا له من أبله ؟ أيظننى لا أعرف أين ينفقها ؟.. لو شئت لكشفت حيله ولذكرت له الأمكنة التى يرودها ... ولكن ما شأنى أنا ؟.. إنه شاب فليعش كشاب ما دام ينجح آخر العام وما دام يحسب أننى أجهل أمره ويبذل كل جهده أن يظل أمره خافيا عنى ... فلأظل أمامه جاهلا لعل فى جهلى ما يجعله رزينا فى تصرفاته .. لقد كنت مثله ... وإن كانت النسوة اليوم أكثر تحررا وأقرب منالا ... ولكن أيستطيع أن يتمتع مثلما تمتعت ... لا أظن ... ولماذا لا أظن ؟ المتعة مسألة نسبية ولعله يحس بها أكثر مما كنت أحس ... أحاول أن أطمئن نفسى أن متعتى أكبر من متعته ... ماذا يهم أن تكون أكبر أو أصغر ما دمت أنا تمتعت وملأت المتعة نفسى فى أيام الشباب ؟. ما لى تركت هذه الأجواء جميعا منذ تزوجت ؟.. أما كان هذا طبيعيا ؟.. فى الأمر نظر . بعضهم يراه طبيعيا وبعضهم لا يراه .. نعم الناس يعرفوننى ، والشهرة تقيد العربدة . ولكن أكان لا بد لى من العربدة العلنية ؟ إننى لم أكلف بها فى يوم من الأيام ... فيم أفكر ؟.. أريد أن أعيد الشباب . هيهات ... لتكن متعتى اليوم فى أولادى ... ولكن ... سبحانك يا رب ... أمرك نرضى بحكمك ... فايزة

صماء ، ووفية أمامها أيام طويلة من مصارعة اليأس ، ومحسن ... اللهم احفظه من كل سوء يا رب . من يدرى لعل وفية تسعد بزوجها . ومن يدرى لعل أحدا يحب فايزة ويتزوجها ... هيهات ولكن ما اليأس بالأمل ؟. مصرعه مر ... ولكنه على كل حال أمل لن يصرع فى يوم وليلة وإنما سيصرعه مر السنين الطوال ، فلنأمل الخير فى وجه الله ، ولتمر الأيام والسنون ، ولننتظر ، وهل نملك فى هذه الدنيا إلا أن ننتظر ونسعى حتى لا نشعر بثقل الانتظار ؟...

وقام عزت بك إلى زوجته إجلال يضع فى عنقها هذه المهمة الجديدة من أخبار وفية ، وسؤالها عن رأيها فى جميل ، وما زال طنين هذا التفكير يدور بذهنه أقرب إلى الارتياح لهذا الزواج ، وإن كانت غصة ما تزال تراوحه وتغاديه من ذلك الحزن الذى يعلم أنه سيلم بابنته .

* * *

جلست إجلال هانم إلى ابنتها تحس الحرج فيما هى مقدمه عليه ولا تجد عن الإقدام مناصا ، فتجمع أمرها آخر الأمر وتقول :

— يا بنتى أنا وأبوك كنا نريد أن تتزوجى من خيرى ، وقد استقدمه أبوك وعرض عليه الزواج بك .

وندت عن وفية صرخة عجب أطلقتها كالملسوع :

— ماذا ؟!

— ورفض .

وندت عنها صرخة أخرى :

— ماذا ؟

— لماذا تعجبين ؟ أنت تعرفين موقفه . فقد كان نبيلا .

وقالت وفية فى نفسها :

— أيبلغ كبره هذا المدى ؟

ولم تجد جوابا على تساؤلها وإنما غرقت فى دوامة حزن كبير ، بينما راحت الأم تنفض لها بقية الخبر من خطبة جميل لها وموافقة أبيها وانتظاره لموافقتها ، ووفية صامتة تسمع بعض ما تقول أمها ولا تسمع أكثره ، حتى انتهت الأم من حديثها قائلة :

— وعلى كل حال يا بنتى جميل فى السلك السياسى وستسافران ، ولعلك فى الخارج تنسين ... تنسين كل شىء .

وسمعت وفية هذا الكلام الأخير فانتبهت إلى أمها تقول :

— نسافر إلى الخارج ؟!

— نعم .

— إذن ..

وأطرقت لم تكمل الجملة تدور فى نفسها عاصفة من الأفكار ، ولم تتركها أمها لأفكارها وإنما قالت :

— هيه ... ماذا قلت يا وفية ؟

وفى حزم واهن حزين قالت :

— ما يراه بابا .

— يعنى موافقة ؟

— أمركم .

* * *

لم يكن جميل جميلا وإنما كان شديد العناية بملبسه ومظهره ، يكسو قوامه النحيل الطويل بأفخر الثياب وأغلاها ، وكان أبيض الوجه ناصعا فى لون الملابس البيضاء بعد غسلها ، وكان وجهه باهتا لا تعبير فيه . وكان معجبا بهذه الصفة فى

نفسه فهى تهيئ له المظهر السياسى الذى يصبو إليه . وكان أنفه معقوفا كبير الأذنين يحتفظ على فمه بابتسامة لا تحمل معنى ، ابتسامة وجدت نفسها على فمه دون أن تدرى لوجودها سببا ، وكأن صاحبها وضعها ونسيها فى مكانها . وكانت عيناه جامدتين ولكنهما إن أنعمت فيهما النظر أدركت أنهما لا تخلوان من ذكاء . وكان جميل يكبر وفية بسنوات كثيرة ولكنه فارق لا يعيب الزواج ، فقد كان فى الثلاثين من عمره ولم تكن هى قد أكملت العشرين . وهو طيب النفس سمح عذب فى اختيار ألفاظه عسير على من يعاشره أن يسىء إليه .

تمت الخطبة وجاء جميل ليرى عروسه ولتراه . أما هو فقد حمد الرؤية وفرح بها وإن كان قد ضاق بعض الشىء بتلك الحمرة التى تشوب بياض عينها اليسرى ، وفكر أن يباحث أطباء أوروبا فى شأنها ؛ ولكنه سرعان ما أدرك ألا فائدة ترجى من هذه المباحثة . وخشى ما قد يعلق به زملاؤه على هذا الاحمرار ، فزوجة الموظف فى السلك السياسى لا يكفى أن تعجبه هو بل لا بد لها أن تعجب الآخرين ، فهى تقابل فى الاحتفالات الرسمية ، وهى عنصر مهم فى حياة زوجها العامة بل لعلها أكثر أهمية فى هذه الحياة منها فى حياة زوجها الخاصة .

فكر جميل كثيرا ، ثم وجد المخرج أخيرا فى كلمة فرنسية طالما أراحت نفوسا ، وطالما أرضت كبرا ، وطالما أشاعت فى قلوب الكثيرين الثقة والاطمئنان . إنها تيب ...، إنها طابع مستقل بذاته لا يماثل الأخريات ، من من الأخريات لها زاوية حمراء فى ركن عينها اليسرى ؟.. من غير خطيبته ... زوجته وفية ؟.. تيب ... تيب لا شك . وارتاح إلى هذا الرأى بل فرح به وانقلبت خشيته سعادة لا يشوبها إلا تفكيره فى إبلاغ هذه الكلمة ... تيب .. إلى أذهان زملائه ممن سيعملون معه فى سفارة فرنسا . لو قيلت مرة واحدة فسيلقفها زميل عن زميل ولا يصبح فى حاجة أن يعيدها مرة أخرى ... مرة واحدة تقال ثم

كفى ... ... فأول حديث بين زملائه هو التعليق على زوجات بعضهم البعض ... تعليق جاد وقور ، ولكنه أيضا ناقد متبصر لا يترك عيبا إلا ذكره ولا حسنة إلا ناقشها ... ولكنهم ــ كجميع الناس ــ يحبون اصطياد العيوب أكثر من حبهم لكشف المحاسن ... تيب هى الكلمة ... وإنه بعروسه راض فرح مسرور . هذا عن المظهر أما عن المخبر فقد أدرك أنها تجيد الفرنسية ، وهذا أيضا شيء يسره كل السرور . وأدرك أنها قليلة الكلام وإن يكن بعض الشك قد شاب إدراكه هذا ، فليس من المعقول أن يتوقع منها كثرة الحديث أمام خطيبها الذى تراه لأول مرة . ولم يكن فى حاجة إلى البحث عن مقومات أخلاقها الأخرى فهى ابنة عزت بك الأزميرلى وحسبه هذا اطمئنانا إلى أخلاقها ، ذاكرا أيضا ما قاله أبوه إن عزت سيصبح وزيرا عن قريب ، وبالتالى سيصبح باشا .. إنه بعروسه راض فرح مسرور :

أما هى فلم يستطع خطيبها أن يرسل فى نفسها شعورا من الرضا أو السخط . لاحظت عنايته بملبسه ولم تعجب ، فهى صفة تكاد تكون مشتركة بين رجال السلك السياسى . ولاحظت أنه غير جميل ولكنها لم تره أيضا قبيحا ، وقد كانت من ذلك النوع من النساء اللواتى لا يحفلن كثيرا بجمال الرجل . ولاحظت طول قامته ونحافتها ولم تعلق فى نفسها على هذا . ولاحظت أدبه فى الحديث ولم يدهشها ذلك ، فهو أمر متوقع من ابن نظمى باشا ومتوقع أيضا من موظف بهذا السلك . ولاحظت أنه يتكلف بعض التكلف فى إخراج ألفاظه وفى بعض حركاته وبعض جمله التى يقحم فيها أحيانا ألفاظا فرنسية . لاحظت هذا ولم تحفل به فقد توقعته أيضا من شاب جاء يعرض نفسه على خطيبته ويقوم عمله على التمثيل ، وإن يكن تمثيلا سياسيا . وعزمت فى نفسها على تنبيهه إلى هذا التكلف فى مستقبل أيامها . ولم يخف عليها فارق السن ولكنها غفرته أيضا ، فقد يجعله

هذا يحتمل ما تعلم أنه سيلازمها من ألم ... ألم كانت تقدر أنه لن يزايلها أبد الدهر .

كانت وفية خليقة أن تستقصى عيوب خطيبها جميعا ، وكانت خليقة أن تزيد يأسها مرارة . ولكنها عزمت فى نفسها أن تقبله فقد كانت تعلم أنه إن لم يكن هو فغيره على الأبواب ، ولن يكون غيره هذا خيرى بحال من الأحوال . وكانت تعلم أيضا أن أباها راض عن جميل ، وكان موقف أبيها من خيرى يملأ نفسها إكبارا له . وقد أرادت أن ترضى أباها تعبيرا عن شكرها وإكبارها ، فأسلمت نفسها ، وحاولت ما وسعها الجهد أن تغضى عن عيوب جميل عينا كانت حرية بمعرفة هذه العيوب ، وأن ترضى نفسا كانت حرية أن تثور وترفض ... ولكنها قبلت ... فما دام خيرى ليس الزوج فالجميع سواء ، فليكن جميل زوجها ما دام فى هذا إرضاء لأبيها وما دام فى هذا إبعاد لها عن مصر ...

وأعلن نظمى باشا أن ابنه سيسافر بعد شهرين ، ورجا عزت بك أن يمكن ابنه من السفر بعروسه .

* * *

انتهز عزت الفرصة ودفع بزوجه إجلال إلى دوامة العرس يرجو أن تنسى فى غمارها ما تكابده من حزن على فايزة .

واندفعت إجلال وكادت تنسى ، لولا ما يطالعها من ابنتها وفية من ضيق لا يبارحها وعدم مبالاة بما تشترى لها . ولكن ذلك لم يمنعها أن تنصرف بكليتها إلى الجهاز ... لا تكف عن القول فى نفسها إنه أول فرح يدخل قلبى ، ولا تكف نفسها عن الإجابة وآخر فرح ، ولا تتركها نفسها هذه المتشائمة قبل أن تهمس ثانية ، أهو فرح حقا ؟.. أترين هذا الفرح فى عينى ابنتك ؟، ولكنها مع ذلك تزجر نفسها زجرا ولا تنى تلح عليها أنه فرح .

وينتهي الشهران وتتزوج وفية من جميل ، ويتركان مصر ...
وتفكر وفية ومشارف الإسكندرية تغيب عن ناظريها ... أأستطيع أن أترك مع هذا الشاطىء ما فى نفسى من حسرة وحزن وألم و... وحب ... هيهات

١٨

كانت أنباء الزواج تبلغ بيت خيرى من كل سبيل ... فيسرى ونادية لا يسكت لسانهما عن ذكر ما اشترته أبلتهم وفية ، ودولت رائحة كل يوم غادية تبلغ خيرى فى خلوة قصيرة مختلسة أو تبلغه على مرأى من الجميع ما يتم فى البيت الكبير من خطوات ، وكأنما تريد بذلك أن تنسيه وفية نسيانا تاما ، مدركة أن هذا التذكير فى أغلب أمره ــ مجلبة للنسيان أو اليأس ، وأى يأس بعد الخطبة وشراء الجهاز وتحديد موعد الزواج وما يعقب الزواج من سفر لشهر العسل .
ولم تكن كلمة تلسع خيرى قدر ما تلسعه كلمة العسل فى هذا الموضع .

وقد كانت سميرة هانم سيدة كريمة كشأنها ، فما أن علمت بالخطبة حتى قصدت إلى إجلال هانم فهنأتها فى هدوء ووقار وإخلاص ، وأدركت إجلال ما يدور فى نفس صديقتها فتقبلت التهنئة فى صمت . ثم حاولت سميرة هانم أن تقطع زياراتها بعد ذلك ولكن إجلال أبت عليها هذا وراحت هى تزورها وترسل لها دولت بالسيارة أغلب أيام الأسبوع ، فإذا التقتا فلا حديث عن الخطبة ولا حديث عن الجهاز .

كانتا كلتاهما تدركان الموقف كل الإدراك ، فلم تحاول واحدة منهما أن تزيد الأمر حرجا .

ولما رأى خيرى أن بيته أصبح ولا حديث به إلا الزواج ، ولما رأى أمه تحاول جهدها ألا تعرف شيئا من أنباء هذا الزواج على مرأى منه أو مسمع ، رأى أن خير سبيل له هو أن يترك البيت أطول فترة ممكنة من اليوم . وحبب إليه نجيب هذا الرأى فقد التقى هناك بالغسالة والتقى بزوجة صاحب البيت ، وحمد اللقاءين وأصبح لا يكاد يترك بيت صديقه . وإن سألته أمه عن المذاكرة جمجم بعض الألفاظ لا يدرك لها معنى وانتقل بها إلى موضوع آخر أو انتقل هو بنفسه إلى مكان آخر .

وقد كان خيرى حريصا ألا يدور الحديث عن مذاكرته أمام يسرى ، فقد خشى ألا يصيب النجاح فيجعل من نفسه قدوة غير طيبة أمام أخيه . وقد كان فى يومه هذا على موعد أن يذهب إلى نجيب فى السادسة من بعد الظهر ، فلقد أنبأه نجيب أنه لن يعود إلى البيت قبل هذا الميعاد ، ولم يجد ما يفعله من الظهيرة حتى حلول الموعد إلا أن يستلقى على فراشه ويقرأ ، وكانت ضجة إخوته تملأ البيت ولكنه كان قد تعود ألا يضيق بها .

لم يطل انفراد خيرى بنفسه فقد فتحت أمه الباب تسأله :

ــ أتريدُ شيئا يا خيرى ؟

ــ لا يا نينا شكرا ... ما المناسبة ؟

ــ أنا خارجة أنا ويسرى ونادية .

ــ إلى أين ؟

ــ إلى بيت عمك عزت ... مسكينة إجلال من يوم سفر وفية وحزنها حزنان ... حزن على المقيمة معها التى لا تسمع ، وحزن على الغائبة التى لا تعرف كيف تسير حياتها مع زوجها الغريب الذى لم يرها ولم تره إلا عند الزواج .

ولم يشأ خيرى أن يعلق على هذا الحديث وإن ملأ نفسه حزنا ... فقال فى ألم كبير حازم :

— طيب يا نينا مع السلامة ... أتأخذين معك بشير أغا ؟

— نعم ... وأنت لماذا لا تذهب إلى عملك عزت يا خيرى ؟

— والله يا نينا لا أدرى ... تقصير ... مجرد تقصير .

— لا ... لا حق لك ... إنه يا بنى يستحق منك كل خير .

— أنا لا أنسى فضله .

— إنه دائم السؤال عنك .

— سأذهب إليه .

— لماذا لا تأتى معى ؟

— لا ليس اليوم ... أنا على موعد ... قد أذهب غدا إن شاء الله .

— طيب يا بنى كما تحب ... فتك بعافية .

— الله يعافيك يا نينا .

وخرجت الأم وأقفلت الباب ، ولم يعد خيرى إلى القراءة وإنما نحى الكتاب جانبا وراح يفكر ... والتذ التفكير ... والتذ الألم ... والتذ التضحية التى قام بها ... الجراح تملأ نفسه ولكنه كن حين يتحسسها يجد فى قلبه راحة وهدوءا ، ليس يدرى أهو هدوء البركان الثائر من الحب أتت عليه الخطوب فاستقر ثائره وهدأ مضطربه وأصبح لا شىء إلا ذكرى ؟ كان خيرى إذا التقى بجراحه فى خلوة بنفسه أحس فى داخله أنه كبير ، واطمأن خاطره أنه رجل أدى ما يجب أن يؤديه الرجل من أمانة نحو نفسه ونحو كبريائه ونحو أهله ونحو من يحب .

طال التفكير بخيرى ولم يقف عنه إلا حين فوجئ بالباب يفتح ، وبدولت تبدو منه هنيهة اطمأنت فيها أنه وحده . ثم أقفلت الباب وسعت إليه وهو نائم

لا يزال دهشا لدخولها على غير توقع .

وقالت دولت :

ـــ أين الحاجة زينب ؟

ـــ لا أدرى ... ألم تفتح لك باب الشقة ؟

ـــ أبدا ... دققت الجرس مرات فلم يرد أحد ، وكدت أعود ولكنى دفعت الباب فوجدته مفتوحا .

وتلعثم خيرى وهو يقول :

ـــ لعلها ذهبت تشترى شيئا وتعود .

ونظرت إليه دولت وأطالت النظر ثم قالت :

ـــ لم نعد نراك .

وسكت خيرى ... وراح ينظر إليها ... كم من الأحداث مرت به منذ التقيا فى خلوة كاملة كهذه ... وكم تعلم من أشياء منذ ذلك الحين ... كم فقد وكم كسب ... فقد أباه وفقد حبا وفقد مالا ، وكسب خبرة وكسب جرأة ... وجلست دولت ... لم تجلس إلى الكرسى الكبير بجانب الشباك ، ولم تجلس إلى الأريكة الفخمة التى تصر على البقاء تحت المكتبة وكأنها تعيرها بالفارق بينهما أو هى فى الواقع تعيرها بعدم التناسب بينهما وأين مكتبة أقامتها يد بضة لم تمسك بغير القلم من أريكة صيغت بباريس بناء على تصميم خير المهندسين وأجملهم ذوقا .. لم تجلس دولت إلى شيء من هذا وإنما اختارت السرير ذاته الذى ينام عليه خيرى .. وحين حاول أن يجلس دفعته بيدها فنام ثانية ... كأنما أحست دولت أن الفارق الذى كان بينهما قد زال ... كان المال يفصل بينهما وها هى ذى تراه قد أصبح قريب الفقر منها ... وكانت وفية تفصل بينهما ووفية اليوم فى أوروبا فى أحضان زوجها ... أى شيء يمنعها عنه ؟.. لماذا لا يتزوجها ذلك الشاب الفتى

الجميل ؟.. ولم تكن دولت ترى وسيلة أفعل فى التعجيل بالزواج من هذه الجاسة ومما توقعت أن يتلوها .

واستقبل خيرى الدفعة فى رضى ونشوة . ولم يفكر فى فوارق كانت بينهما وزالت ، ولم يفكر فى الزواج وإنما فكر فى أشياء أخرى لا يستطيع أن يفكر فى غيرها .

وقالت دولت :

ــ لماذا تريد أن تقوم ؟.. أنا لم أقصد إزعاجك .

كانت دولت تعلم الحديث الذى تريد أن تلقيه ، وكانت قد أعدته فأحسنت إعداده ، وكانت تجد فيه خير وسيلة تصل بها إلى ما تريد .

ــ عندى لك خبر يفرحك .

ــ خير ؟

ــ يسرى .

ــ ماله ؟!

ــ أصبح يغار على منك ، ويظل يقول لى لماذا تكلمين آبى خيرى وأنا لا ؟!

ثم أطلقت ضحكة عربيدة ولكن خيرى قال :

ــ هيه وماذا فعلت أنت ؟

ــ وماذا يمكن أن أفعل ؟.. سكت طبعا فهو لم يقل شيئا أستطيع أن ألومه عليه .

ــ وهل يسرى فقط من يغار ؟

ــ من تقصد ؟

ــ محسن !

ــ آه !

وقلد خيرى صوتها قائلا :

ـــ آه !

ـــ لا ، محسن طيب وابن حلال .

وقال خيرى :

ـــ أعلم أعلم ولكن هل هذا يمنع ؟

فقالت دولت محاولة أن تغير مجرى الحديث :

ـــ أنا والله لا أكاد أراه ... دائما فى الخارج ... ياه ... ما للحجرة حارة هكذا ؟

وكان فستانها ذا أزرار تمتد من أعلاه إلى أسفله ، فما لبثت أن أعفت زرين من قيدهما فبان تحتهما قميص حريرى وردى اللون تدور حول حافته قطعة من دانتلا صنعتها يد لا بد أن تكون رقيقة حلوة ... وأدرك خيرى قيمة القميص فقال وعينه لا تبارح ما انفرج من الفستان :

ـــ حلو قميصك .

ـــ إنه من ...

ثم قطعت الجملة لم تكملها ، وأدرك خيرى أنه من وفية ، وأدرك أنها لم ترد أن تذكر اسمها فى لحظتهما تلك . وخافت هى أن يكون قد أدرك فأكملت بعد قليل وقالت :

ـــ إنه من شيكوريل ... أيعجبك ؟

ثم أمسكت بحافة القميص ومالت عليه ، ولم ينظر إلى القميص وإنما نظر إلى ما بداخله ...

ولم يدر خيرى من أمر نفسه إلا ذراعين تحيطان بها ، وشفتين تستقران على شفتيها ، وغابت دولت فى نشوة القبلة هنيهات ، ولكنها ما لبثت أن اعتدلت

وهى تقول :

ــ أخاف أن تأتى الحاجة زينب .

وانتبه خيرى إلى هذه الخاطرة فخشى مغبتها هو أيضا ، ثم ما لبث أن قال وقد أطلق يده :

ــ نعم أنت محقة ... لقاؤنا هنا لا يجدى .

ــ أين إذن ؟

ــ اسمعى ... متى تستطيعين الخروج ؟

ــ وقتما أشاء ... أنت تدرى أنهم يطلقون لى الحرية ... وأستطيع فى أى وقت أن أطلب رؤية نينا وأخرج .

فقال خيرى فى نشوة :

ــ وتبيتين فى الخارج ؟!

ــ وأبيت فى الخارج !

ــ إذن سأعطيك عنوانا ونلتقى هناك غدا فى الساعة الثامنة .

١٩

— اسمع يا بطل .. أنت تبحث لك غدا عن مكان تبيت فيه .
— ماذا ؟.. ماذا ؟.. نعم يا سى خيرى .
— نعم يا سى نجيب ... أكثير هذا عليك ؟
— لا يا حبيبى ، شرط المرافقة الموافقة .
— وما الذى يوافقك ؟
— بالنصف يا حبيبى .
— بعمرك .
— لماذا ؟.. هل وقعت من قعر القفة ؟.. ألم أعرفك بالغسالة وبالست ؟ وكنت غدا سأصحبك إلى جلسة لم تحلم بها فى حياتك !
— ولو .
— أأنت جاد ؟
— كل الجد .
— ما المناسبة ؟
— هذه شىء آخر .
— وما الآخر فيها يا حبيب الروح ؟
— أعرفها وأعرف أسرتها .

وكأنما تذكر خيرى شيئا كان غائبا عنه ، ولكنه ما لبث أن تناساه ثانية واستأنف حديثه :

— إنها لا تقبل ... وإن أردت الحق ... أنا أيضا لا أقبل .

— طيب يا سى خيرى سأنام فى مكان آخر ، ولكن ستظل هذه الحكاية نقطة سوداء فى تاريخ حياتك ... لن أنساها لك العمر كله .

— لا عليك ... أعوضها لك .

— تعوضها ؟... ومن أين ؟.. إنك تظل هادئا كالباشا حتى يتقدم إليك خادمك الذى هو أنا برغباتك ... وحين استطعت مرة فى العمر أن تصل إلى شيء وحدك تطردنى من البيت ... طيب يا سى خيرى ... نترك البيت ... أمرك يا سلطان الزمان ... سلطان طماع أنانى .

— اعقل يا نجيب ، قلت لك هذه شيء آخر .

— وطبعا ستصبح المسألة عادة وأضطر أنا فى كل ليلة أن أبحث عن صديق ينيمنى عنده ، وأصير مشردا وأنا صاحب البيت .

— لا ... لا تخف . غدا فقط ... وبعد ذلك سأطردك مدة ساعات فقط وتعود .

— عظيم .. عظيم يا خيرى بك .

— أين ستبيت غدا ؟

— وهل أعلم ؟

— قل لى وحياة والدك أين ستبيت ؟.. أنا مستعد يا سيدى أن أدفع لك أجر اللوكاندة .

— سميراميس .

— تنيل .

— أين تريدها إذن ؟.. فى سيدنا الحسين ؟!

— ألا تستبدل بسميراميس إلا سيدنا الحسين ؟.. اسمع ... هى عشرون

قرشا وتصرف أنت .

— لا يا سيدى رد العشرين عفريتا على نفسك . ستنفعنا بعد غد فى السهرة التى أحدثك عنها .

— إذن فأين تبيت ؟

— ما شأنك أنت ؟

— عند خالتك .

— وكيف عرفت ؟

— وهل لك صدر حنون إلا هى ؟.. تذهب إليها وتدعى الزيارة ، وتطفح الفطور ...

— يا سيدى هذه الإجراءات تتخذ عند الفقر فقط ... أما الآن فأنا فى أول الشهر والأشيا معدن والحمد لله .

— وماذا تخسر ؟.. اعملها مرة وأنت غنى ، لعلك بهذا تخدع خالتك وتجعلها تظن أنك تزورها من أجل الزيارة لا من أجل الفقر .

— أمرك يا سيدى ... نعملها .

* * *

إنها تغنينى عن الغسالة والست والجميع ، وأين هذه الأجسام القديمة التى تقلبت فأكثرت التقلب من هذا القوام الرائع ... ثدياها ... شعرها ... كل شىء فيها جميل جديد طازج يصرخ منه الشباب ويثور ... وهى لى وحدى بلا شريك ... وهى تحبنى وإنى ... ماذا هل أحبها ؟.. ألا بد من الحب ؟.. لقد أخذت من الحب حظى فكان حظا عاثرا ؟.. أكان عاثرا ؟.. ألم أطلق على آمالى هذا الوحش الذى يكمن فى ذاتى وأسميه ضميرا أو أسميه مثلا أو أسميه كبرياء ؟.. وهو وحش يلتهم الآمال ويحطم الحياة ويدمر الأحلام ... مالى أذكر هذا

الآن ؟.. أسمع فى نفسى من ذلك الوحش همسا ... أله بى شأن الآن ؟.. ألم يتسلط على بهذا الطنين حتى حرمت نفسى من حبى وسافرت وفية وبقيت ؟ ماذا يريد منى الآن ؟ ما هذه الخرافة التى يديرها فى نفسى منذ الأمس ؟.. نعم أعلم أنها أخت حامد أفندى ، وأعلم أن حامد أفندى قال إنه يعتبرنى أخا له ، ولكن ما لهذا وما نحن فيه الآن ؟.. دولت فتاة فائرة إن لم أكن أنا فمصيرها إلى غيرى ... وهل يعتبرنى حامد أخا له حقا ؟ أم هو تعبير ألف الناس أن يقولوه فى سهولة ويسر ، وإذا صدقت كل من قال إنه أخى أو قال إنه أبى أو أمى لأصبح كل من أعرف يتصل بى بهذه الآصرة القوية .

وعزت باشا ألم يقل إنه كأبى ، فكيف كنت سأتزوج ابنته ؟.. ما أصدق الشاعر :

دعتنى أخاها أم عمرو ولم أكن أخاها ولم أطعم لها بلبان
دعتنى أخاها بعد ما كان بيننا من الأمر ما لا يفعل الأخوان

هل أنا أخو دولت ؟ نعم قال أخوها إنه يعتمد على فى رعاية أمرهم . ولكن أكان يقصد ما يقول أم هى عبارة يلقيها بعض الناس إلى بعض ليظهروا مقدار ثقتهم وحبهم لبعضهم البعض ؟.. نعم أعترف أنه يحبنى وما البأس فى ذلك ؟.. وأخته أيضا تحبنى وأنا ... أعجب بها ... ألا بد من الحب فى هذا الذى أقدم عليه ؟.. ألا بد من تفكير كهذا الآن ؟. إنها قادمة .. بقوامها الحلو وقميصها الوردى ... قميص وفية ... أتلبسه اليوم ؟ لا أدرى ... إن كانت عرفت أننى أدركت أنه قميص وفيه أتراها تلبسه ؟.. سنرى مقدار ذكائى . لا شك أن عينى أظهرت لها أننى أدركت ... ترى أتلبسه اليوم ؟.. وماذا تلبس غيره ؟.. وأين لها بغيره ؟.. من مرتبها الضئيل أم من أخيها حامد ؟.. رجعنا إلى حامد ... أى شيطان يرسل به إلى ذهنى كلما نسيته ؟.. هل نسيته ؟.. لا بد أن أنساه ... ألا



يستطيع جمال دولت الصارخ أن يطغى عليه ؟ ألا يستطيع فمها العذب ؟... دولت ... دولت .

وطرق الباب فى همس ، وقام خيرى إليه مسرعا ، ودخلت دولت ... وأسرعت تقفل الباب وترد رتاجه وتسأل لاهثة :

ـــ متأكد أننا وحدنا ؟

ولف ذراعه حول خصرها قائلا .

ـــ طبعا ... تعالى وانظرى بنفسك .

ـــ لمن هذه الشقة ؟

ـــ لصديق لى طلبت إليه أن يتركها الليلة .

وكانت دولت قد بلغت حجرة النوم وهى تقول :

ـــ صحيح ؟

ـــ ما هذا الفستان الأنيق ؟

كان فستان دولت من الحرير الأخضر ... ولو حكم خيرى ذوقه لما رآه أنيقا بحال من الأحوال فهو رخيص الصنع من هذا النوع الذى تلبسه متوسطات الحال فى أيام العيد . وقد كانت دولت تستطيع أن تختار خيرا منه ولكنها ما كانت لتفعل ، فكل ما يفضله عندها من ملابس وفية ، ولم تكن تحب أن تلبس شيئا لوفية فى يومها هذا ... وقدرت أنها غالبا ستستغنى عن الفستان ، وقدرت أيضا أن جمالها يغفر كل عيب فيما تلبس ... أدركت دولت أنه يريد أن يبدأ حديثا ليس إلا ، فهى تعلم أن الفستان ليس خليقا برضائه ... قالت :

ـــ أيعجبك ؟

ـــ طبعا ...

وقالت فى دلال وهى تجلس إلى الأريكة ذات المساند والوسائد :

— هو أم القميص ؟

— كلاهما ... أما ما يعجبنى أكثر منهما فهو ...

ونظر إلى نهديها فقالت :

— هيه ؟

— ما تحتهما .

— لا أفهم ؟

— أقصد هذا .

ولم تجعل يده سبيلا لها ألا تفهم ، فقالت :

— على مهلك ... انتظر .

ولم يتمهل أو ينتظر ، وإنما راح يفك أزرار الفستان وهى تقول فى دلال :

— ستقطع الزر ... انتظر ... اسمع ... لا شأن لك بملابسى ...

وفهم خيرى ما تقصد ، وما هى إلا لحظات حتى كان كلاهما عاريا !

وطالع خيرى جسمها لأول مرة متألقا كالصباح الوليد ، رائعا صافيا مترقرقا كماء الشباب ، وعلى فمها ابتسامة حائرة بين النشوة والخجل . انسدل شعرها على كتفيها كاد يعدو على صدرها ، فمد إليه خيرى يدا مرتعشة فأزاحه إلى ظهرها كرسام يهيئ النموذج الذى سينقل عنه ، وراح ينظر إليه ثانية مبهورا متلاحق الأنفاس جياش الخلجات معجبا حائرا مذهولا ... قبلها جميعا ثم طواها فى أحضانه ... حامد ... ما هذا ؟.. أى طنين هذا الذى يدور برأسه ؟.. أهمله وعاد يقبلها فى جنون ... فى ثورة عارمة فيها من الاصطناع ما يحاول به أن يخفت هذا الطنين الذى لم يجد وقتا آخر إلا هذا ليلح على تفكيره ... حامد ... وما شأنى به ؟ وعاد يقبلها فى جنون أشد وفى ثورة أكثر جموحا .. ولكن ... حامد ... تطن فى رأسه تعلو مع جنونه فتطغى على جنونه ، وتصرخ

مع ثورته فتتداعى لها ثورته .. وحاول خيرى ثانية وثالثة وعشرا ولكن حامد تخذله فى كل مرة ، ودولت دهشة جاهلة ذاهلة ... ماذا به ؟.. ما هذا الومض الذى يبرق فى عينيه ؟ ما هذه الثورة التى يفتعلها ؟.. ماذا به ؟..

استلقى خيرى على الأريكة وأدار وجهه إلى الحائط وراح يضرب الوسادة بقبضته قائلا :

ـــ حامد ... حامد ... حامد ... حامد .

وأطرقت دولت ثم قامت إلى ثيابها ، وحين استدار خيرى ليواجه هزيمته كانت دولت قد تركت البيت جميعه .

أسرع خيرى إلى ملابسه فارتداها ونزل إلى الطريق ، وحين مر بشقة صاحب البيت وجد الرجل العجوز يدلف إلى شقته ، ووجد زوجته تستقبله ، ورأى فى عينيها شيئا لم يفهمه ولكنه واثق أنه رآه . ولم يعر الأمر كثير تفكير بل سارع إلى الطريق ، وما وقع له فى ليلته لا يزال يسيطر على كيانه فيشعر بالعجز والأسى ... من أدرانى أن حامد هو السبب ... لعله ستار تختفى من ورائه خيبتى وقلة حيلتى ... إنها المرة الأولى التى التقى فيها بهذا الخذلان ... ولعلى لا ألتقى بعد ذلك إلا بالخذلان ... دولت التى تفتن العابد يمنعنى عنها تفكيرى فى حامد ... حامد ... أى مصيبة .

كان يعرف طريقه ... وقف بباب خالة نجيب وطرق الباب ، وأجابت الخالة طرقه وكانت تعرفه ... سألها فى لهفة عن نجيب ، وكان نجيب بمسمع فخرج إليه :

ـــ خير يا خيرى ؟

وقال خيرى فى لهفته ما يزال :

ـــ خير ... استأذن من خالتك وتعال .

ـــ ماذا ؟

ـــ سنسهر معا الليلة .

ـــ ماذا حصل ؟

ـــ اذهب يا نجيب مع صاحبك ولا تكثر الأسئلة .. وسأنتظرك حتى تعود .

وقال خيرى :

ـــ والله ـــ إذا سمحت ـــ اتركى نجيب يبيت معى الليلة .

وقال نجيب :

ـــ تسمحين يا خالتى .

ـــ ما تراه يا ابنى .

ودون أن يحيى واحد منهما السيدة الطيبة هبطا السلم جريا ، وما إن بلغا الشارع حتى حاولت كلمة استفهام أن تصدر عن نجيب ، ولكن خيرى لم يدع لها مجالا فقد راح يقص على صديقه ما وقع له . ولم يعقب نجيب بشىء إلا :

ـــ يا خيبتك !!

ـــ المهم ...

ـــ ماذا ؟

ـــ أتعرف طريق الغسالة ؟

ـــ الست أقرب .

ـــ البك زوجها فى البيت .

ـــ إذن ..

ـــ ألم تقل إنك كنت تريد أن تذهب بى إلى سهرة ؟

ـــ والله فكرة ... معك فلوس ؟

ـــ كم تريد ؟

ـــ كم فى جيبك ؟

ـــ جنيه تقريبا .

ـــ نعمة هيا بنا .

* * *

فى مصر الجديدة وفى بيت أنيق ولج نجيب يتبعه خيرى ، وحين هم نجيب بالصعود قال خيرى :

ـــ الله يخرب بينك ... إلى أين ؟

ـــ وأنت مالك ... اطلع ... اسمع ... لا تنطق أنت بشىء .

ـــ أمرك .

ـــ وعلى باب شقة فى الدور الثانى وقف نجيب ودق الجرس ووقف خيرى من ورائه ذاهلا دهشا خائفا متشوفا مفكرا فى كل شىء . وأجاب الجرس رجل مهيب الطلعة ذو شاربين أنيقين وخطهما الشيب وقامة مديدة وقوام ممشوق لم تعد عليه السن ، وقال الرجل وهو يطل من ضلفة الباب :

ـــ من ؟

وأوشك خيرى فى سرعة خاطر أن يسأل عن اسم وهمى يعلل به مجيئهما ثم ينصرف ، وكأنه أخطأ فى العنوان ، ولكن نجيب سارع يقول :

ـــ أنا يا عمى .

ـــ أهلا ... كيف أنت يا بنى ...؟

وقال نجيب :

ـــ نجيب ... نجيب يا عمى ... قد جئت فى الأمس مع صلاح .

ـــ نعم ... نعم ... أذكرك يا بنى تماما ... ادخل يا نجيب .

وقال نجيب :

— الأستاذ خيرى صديقى .

— أهلا ... تفضلا .

وتقدمهما الرجل الكبير إلى غرفة الجلوس ، وهم خيرى أن يقول شيئا ولكن نجيب وضع سبابته أمام شفتيه وهو يقول :

— هس .

فدخل نجيب إلى البهو ... وراعه أول ما راعه سيفان على الحائط يحيطان بصورة الرجل الذى لقيهما وقد بدا فى الصورة أعظم منظرا وأشد هيبة . ورأى تحت السيفين مسدسين قديمين كقوسين حول أسفل الصورة ، ثم لم يجد سعة من الوقت ليرى شيئا آخر فقد وجد نفسه مسحوبا إلى غرفة على شىء من الأناقة عرف أنها غرفة الجلوس .

وقعد الثلاثة ودار بينهم الحديث ولكن قليلا ما دار ، فقد قطعه نجيب :

— الهوانم هنا ؟

وقال الرجل فى وقار :

— أخواتك هنا ...

ثم نادى :

— يا ليلى ... يا يسرية .

وأقبلت فتاتان ، إحداهما شقراء الشعر خضراء العينين ناصعة البشرة وإن شاب بياضها قليل من النمش لا يعيب جمالها ، والثانية سمراء ممشوقة القوام سوداء الشعر ، وكان فى كلتيهما عزة لا توحى برخص . وأقامت الفتاتان قليلا ، وخرجتا بعد حديث قصير تناول الجو ومصر الجديدة والمواصلات . ولحق بهما العجوز ، وقال خيرى :

— ما هذا ؟

— وما شأنك ؟.. أيهما تختار ؟

— ممن ؟

— ليلى أم يسرية ؟

— أهما ...؟

— نعم .

— كان يقول : أختاك !!.

— كلام .

— كلام ؟! أليس أباهما ؟!

— نعم .

— ويقول : أختاك !!. وتقول : يا عمى !!

— يا سيدى كلام ... أنا لم أعرف العائلة إلا أمس ... يا أخى لا تضيع الوقت .

وفكر خيرى فى كلمة الأخوة التى قدسها ، ورجع به ذهنه إلى دولت ولكن نجيب سارع يقول :

— انطق .

وعاد بذهنه إلى ما هو فيه ... لقد كان يريد الشقراء فهو يحب الشقراوات ، ولكن الآن ... فى هذه اللحظة يريد السمراء ... إنها سمراء كدولت ... كدولت فى سمارها على الأقل ... قال دون أن يحس :

— السمراء .

— تترك ثلاثين قرشا فى الحجرة ...

ودخل الرجل ... العم ... وجلس ثانية ، وبدأ حديثا عن الجامع الذى يقوم بجمع المال له ، لأن مصر الجديدة تكاد تخلو من الجوامع ، وقال نجيب :

— هذا مشروع عظيم يا عمى .. أتسمح أن أساهم فيه ؟
— بكل سرور يا بنى .
— عشرة قروش تكفى ؟
— عظيم ... كله لله .
وسارع خيرى يقول :
— تسمح لى أنا أيضا ؟
— تشكر يا بنى ، أنت ابن حلال .
ونادى صوت من الخارج :
— نجيب ... أريدك كلمة .
وقام نجيب وهو يقول :
— عن إذنك يا عمى ... تعال يا خيرى لترى الشقة :
وقام خيرى وهو يقول :
— تسمح لى يا ...
وكاد لسانه يقول عمى جريا على عادة البيت وزائريه ، ولكنه وقف عنها ليقول فى اللحظة الأخيرة :
— يا بك .
وقال البك :
— تفضل يا بنى ... شف فيما تريدك أختك .
وطنت أختك فى إذن خيرى ، ولكنه ما لبث أن ضحك منها فى نفسه ساخرا !!

* * *

عاد خيرى مطمئنا إلى بيت نجيب ، فما كان يستطيع أن يعود إلى بيته بعد أن

أخبر أمه فى الصباح أنه سيبيت ليلته عند نجيب ليذاكر ... كان إذ ذاك يفكر فى ليلة مع دولت فأصبحت ليلة مع يسرية .. أهناك فرق ؟.. هذه أخته وهذه أخته ... ترى لو عادت إليه دولت ... لا ... كلهن إلا دولت ... إنه يعرف حامد وبينهما صلات قوية ... الأخوة مع حامد مشفوعة بصداقة وبأستذة من حامد وبمعروف قدمه هو لحامد ... وحامد هو من عرفه بأخته وهو من أوصاه بها ، وإن تكن دولت سهلة المنال إلا أنها ليست مثل يسرية ولا ليلى تباع لكل من يشترى ... نعم هناك فرق ... إذن فهو الضمير ... ملعون أبو الضمير ومن عرف الضمير ... النهاية ... سليمة ... على كل حال هكذا أحسن .. بلغ الصديقان البيت وأذان الفجر يعلو ... فقال كل منهما فى نفسه : إن الله غفور رحيم ... ثم لم يعقب أحدهما على الأذان بكلمة ... أطرق كل منهما فى صمت وراحا يصعدان السلم ، وبلغا شقة صاحب البيت فوجداه خارجا وقد التف بعباءة وراح يتمتم مسبحا فى طريقه إلى صلاة الفجر فى الجامع . وقال نجيب :

— حرما مقدما يا عم عبد الباقى أفندى .

ولكن عبد الباقى أفندى قال فى حزم :

— يا سى نجيب أنا لا أقبل هذه الأمور فى بيتى أبدا ... أنا مضطر أن أطلب منك أن تترك الشقة .

— ماذا ؟... لماذا يا عم عبد الباقى أفندى ؟ كفى الله الشر !!

— اسأل صديقك ... اسأله عن البنت المايعة التى كانت عنده الليلة ... لقد رأتها زوجتى .

وسارع خيرى قائلا :

— من ؟... أنا ؟.. رأت ...

وقبل أن يكمل الجملة سارع نجيب يقاطعه :

— أبدا ... أبدا يا عم عبد الباقى أفندى ... لا بد أن الست أخطأت النظر ... لم يأت لصديقى إلا صديقنا صلاح ... أحيانا يخرج من غير طربوش .

— من غير طربوش ؟.. أهذا كلام يا بنى !!. أيمكن أن تخطئ زوجتى بين رجل وامرأة ؟.. لا يا بنى ... أرجوك أن تبحث عن مكان من أول الشهر .

وأطرق نجيب متظاهرا بالأسف وقال :

— أمرك يا عم عبد الباقى أفندى .

وحاول خيرى أن يتكلم ولكن نجيب أمسك بيده خفية فسكت ثم توجها إلى السلم يكملان صعوده ، ولكنهما لم يكادا حتى أوقف نجيب خيرى مرة أخرى ممسكا بذراعه دون أن يحادثه ، ومال نجيب على الدرابزين ونظر إلى الباب الخارجى حتى إذا اطمئن إلى خروج عبد الباقى أفندى قال لخيرى :

— تعال .

وفهم خيرى ما يريده صديقه فنزل وراءه وهو يقول :

— المقابلة الشريفة الوحيدة التى تتم فى بيته يكون هذا جزاؤها .

وقال نجيب :

— اسكت ... تعال .

ودخلا شقة عبد الباقى أفندى ولاقتهما الست .

ولم يترك نجيب البيت أول الشهر ، ولم يطلب إليه عبد الباقى أفندى إلا شيئا واحدا هو أن يقبل اعتذاره ... وقبله ..

٢٠

لم يستطع خيرى أن ينجح فى عامه هذا واستطاع نجيب . ويئس خيرى من المذاكرة يأسا تاما ولم يحاول أن يعيد إلى ذهنه فكرة المذاكرة مرة أخرى ، وطمأن نفسه أن مستقبله معلق بمستقبل يسرى ونادية . ولم يخذل يسرى أخاه فقد كان يسير فى تعليمه سيرا طيبا فلم يرسب ، وكانت نادية أيضا تسير فى تعليمها سيرا مرضيا ، ولم يخف على سميرة هانم ولا على خيرى ما جد على الطفلين من تغيير ، فيسرى قد أصبح ذا وجه اختفى صفاؤه تحت نثار من الحبوب الحمراء ، يخرج صوته خشنا لا نعومة فيه ولا براءة ، تتقلب عيناه عابرة الرجال مستقرة على النساء ... أى نساء ، ذاهلا أغلب الأحيان ... حائرا عجلا إلى كل أمر لا يستقر به من القلق حال .

ونادية أيضا لم يعفها الزمان من بوادر أنوثة ، فوجهها يسارع إلى الاحمرار ، وتتخفى عن أخويها إذا بدلت ملابسها ، ولكنها لم تكن بعد قد وصلت إلى السن التى تشغلها فيها محاسنها ... بوادر لا أكثر .

بل تنقطع الصلة بين خيرى ونجيب بل استمرت دون تظاهر بالمذاكرة ، فعرفا الحانات معا ، وعرفا الكثيرات من مثيلات ليلى ويسرية ، وأصبحت هذه الأمور بالنسبة إليهما جزءا من حياتهما . ولم يفقدا من متعتهما الأولى إلا الدهشة التى كانت تداخلهما كلما التقيا بجديد ... فقد أصبحا لا يلتقيان بالجديد إلا نادرا يندر كلما مرت الأيام ، وكان خيرى يعمل فى إصرار على ألا يشاركهما محسن فى هذه الجولات ، فما كان يحب أن ينفق أكثر مما يستطيع أن ينفق ، وما

كان يحب أن يصحبهما محسن فى أمكنة قد لا يراها جديرة بغناه أو قد يرى نفسه متواضعا حين يرودها . فالتواضع صفة لا يرضى خيرى أن يصطنعها له أحد . مكان واحد كان يرافقه إليه محسن هو المسرح ، فثمن التذكرة واحد بالنسبة لكليهما ، وجميعهم يهوى المسرح ويرى فيه متعة روحية ينعم بها فترات من الوقت طويلة ، تطول إلى ما بعد مشاهدة الرواية بأيام وقد تصل إلى أسابيع ، ثم تظل ذكرى الرواية ما وعت الذاكرة .

وهكذا أبقى صلته مع محسن مقصورة على الزيارات المنزلية ، ولم تكن زياراته قليلة ولا كانت زيارات محسن ، وعلى زيارات المسرح ولم تكن هى أيضا قليلة ، فما كانوا يشاهدون الرواية مرة واحدة ولا اثنتين .

وظلت دولت تعمل فى بيت عزت باشا وظلت على رغم أنفها عفيفة ... فمحسن يصدف عنها إكراما لمكانها فى البيت ، وهى لا تبذل فى سبيل اجتذابه إليها أية محاولة فقد كانت تدرك الفارق بينها ، وكان إدراكها هذا يمحو مطامعها ويقضى عليها قبل أن تحاول الظهور .

وماتت أمها فلم يبق لها إلا هذا البيت ، وعدل عزت باشا نهائيا عن فكرة إبعادها ، واطمأن لما كشف بعينه الواعية انعدام الصلة بينها وبين محسن . ولم يحضر حامد وفاة أمه فقام عنه خيرى ومحسن بكل الأعباء وأرسلا يعزيانه ، واكتفى هو بخطاب أرسله إلى أخته ، وبعض خطابات أخرى أرسلها إلى الباشا ومحسن وخيرى ، ولم ينس يسرى فقد كان دائما يقدر أنه هو صاحب الفضل الأول عليه ، وأنه عن طريقه استطاع أن يصل إلى عزت بك الذى أصبح باشا ، ثم إلى هذه البعثة وإلى ذلك المستقبل الذى ينتظر عودته .

وقد حصل حامد على الدكتوراه ، ولكن وفاة أمه واطمئنانه إلى مكان دولت جعلاه يطلب مد البعثة لينال شهادات أخرى . وكان عزت باشا وزيرا فأجيب

طلبه .

واستطاعت فايزة أن تنتفع بهذه المعلومات القليلة التى كانت قد تعلمتها قبل أن تصاب ، فتمكنت أن تتغلب على البله بالقراءة فقرأت ولم تكن تفعل شيئا إلا أن تقرأ ... وهل يمكن أن تفعل شيئا ؟.. قراءة تستريح منها بالسينما وتستعين هناك بالقراءة أيضا ... كانت تقرأ ترجمة الحوار التى كانت تكتب إلى جانب الشاشة على شاشة أخرى صغيرة ، وكان رأسها يظل رائحا غاديا بين الشاشتين ، ولكنها كانت تستمتع بما تشاهد . ولم تفكر بطبيعة الحال كما لم يفكر أهلوها أن تذهب إلى أفلام مصرية ناطقة ، فما كانت هناك شاشة صغيرة تستعين بها . فإن كان لا بد من فيلم مصرى فصامت ... كحياتها ... كأذنها ، واستطاعت أن تضحك من النكتة المكتوبة ، واستطاعت أن تلقى من قلبها إشراقا بريئا صنعته لنفسها من ثقافتها ومن قلبها الغض ومن عطف المحيطين بها ومن حبهم .

وجرت الحياة شبه رخاء لعزت باشا فاشترك فى الوزارة عدة مرات ، وحصلت مصر على المعاهدة ، وكان من الذين يرون فيها خطوة إلى الاستقلال وليست الاستقلال جميعا . وحاول عزت باشا أن يصرف كثيرا من جهده ووقته لإسعاد زوجته ، وتقبلت إجلال محاولاته فى شكر وتقدير ، فكان لا ينى عن طمأنتها على وفية فقد كانت الأنباء تصل إليه دائما عنها ، وكانت أنباء يرتاح لها فؤاده وفؤاد زوجته . وكانا يكتبان هذه الأنباء لفايزة فتفرح وتظهر فرحها فى براءة حبيبة . وكانت وفية تأتى إليهما فى كل عام ، بل كانت تأتى إليهما خلال العام مرات ، فقد كان لها من كياسة زوجها وغناه ما يهيئ لها هذا المجىء كلما شاءت .

وكان خيرى يحرص على أن يراها مرة عند مجيئها ومرة قبل ذهابها ، وكان اللقاء يثير بعض ذكريات ما تلبث أن تصطدم بالواقع ، فتذوب مع الزمان الماضى الذى انبعثت منه .

وكان محسن يسير فى طريقه المرسوم عابثا جادا ، ناجحا فى دروسه ، ناجحا فى مغامراته ، وإن جد عليه شىء فهذا الاهتمام المفاجىء بأعمال أبيه السياسية ، وبالحزب وبالصراع بينه وبين الأحزاب الأخرى . ولكن اهتمامه لم ينل من حق دراسته أو من الحقوق الأخرى التى يتيحها لشبابه ، ولم يكن لهوه جميعا نساء وخمرا بل كان كإخوانه يمتع نفسه بكل شىء ؛ ومناحى المتعة عنده كثيرة ، فهو يحب المسرح ، ويحب الأدب ، ويطرب للشعر ويسعى إلى مجالسه ، وينتشى للغناء ، ويهفو للنكتة ، ويفطن إليها مهما تكن خافية . الحياة جميعها رقيقة الأستار أمام عينيه بأعبائها ولهوها ، بجدها وهزلها ، بوقارها الذى تفرضه عليه ، وبعربدته التى يفرضها هو عليها ، يحب من حوله ويبذل جهده ليحبوه ، ويحب الحياة ويبذل جهده أن تحبه الحياة . وحين أقبلت بوادر الحرب استقبلوها فى اهتمام ساخر فقد عرفوا أين يقضون لياليهم . ولم يمنعهم النور المحبوس داخل الحجرات أن ينعموا وإن حرموا بعض المتع ، فقد استطاعت نفوسهم المرتاحة الهادئة أن تقبل الحرمان فى نكتة أو ضحكة أو تعبيسة واهنة ما تلبث أن تزول فى متعة أخرى ــ مهما تكن هذه المتعة ــ هى النقاش حول تطورات الموقف الحربى ، وحول أفضلية الألمان على الإنجليز أو أفضلية الإنجليز على الألمان . على أن النقاش لم يكن فى يوم عنيفا فقد كان الساسة يكرهون الإنجليز ، وكان كره المستعمر مغروسا فى النفوس شب معها وكبر ، فكان الرأى العام يكاد يتجه بكله إلى رجاء هزيمة الإنجليز لمجرد الانتقام منهم لا بفكرة أخرى ؛ لا يقف رجاؤهم هذا عند حد إلا إذا ذكر أحدهم الآخر بأن الألمان قد يكونون شرا فى

استعمارهم من الإنجليز ، وأننا قد نبدأ عهدا جديدا من استعمار جديد يحتاج إلى بدء مفاوضات أخرى كانت قد وصلت إلى معاهدة الشرف والاستقلال ، وما كانت شيئا قليلا . وعندما تبدو هذه الحجج فى أثناء النقاش تتجه رغبة الانتقام المنطلقة عن العاطفة إلى التفكير ... بعض التفكير ، وينتهى النقاش على غير هزيمة أو انتصار .

٢١

أوغلت الحرب فلم تعف أحدا ، ولم يستطع أحد مهما يتح له من اطمئنان أن يباعد ما بينه وبينها .

فقد عادت وفية إلى مصر تحمل طفلها عزت جميل ، ولعلك مدرك من تسميتها لابنها أنها أثيرة على زوجها مجابة الرجاء عنده يبذل غاية جهده لإرضائها ، فهو يسمى ابنهما باسم أبيها ولا يسميه باسم أبيه . ولعلك مدرك أيضا أنها سعت مع الأيام ، فحبها القديم فى نفسها آثار ، وابنها ابنها أرسلته إليها السماء الكبيرة فترى فى ابتسامته ابتسامة الأيام ، وترى فى طلعته اعتذارا عن حب كبير لم تتحقق آمالها فيه . ولعلك مدرك من وجود هذا الابن أن الزواج أثمر ، وأن قلبى الزوجين قد التقيا على ولدهما . وإنى مطمئنك أيضا أنهما التقيا على تلك الصداقة الحبيبة التى ينشأ فى ظلالها الحب الرقيق الناعم العميق ، تزيده المعاشرة اطمئنانا وتزيده الأيام توثقا ؛ ذلك الحب الذى يولد صغيرا كالطفل ويتغذى من الود والوفاق فينمو مع الأيام الطوال ، ويستطيع مع هذه الأيام أن يمد جذوره فى حياة الزوجين فيثبت قويا على الأعاصير والعواصف مهما يكن

هبوبها من ماض جياش بالهوى ، أو من جهل الزوجين كليهما بالآخر قبل الزواج . اطمأنت الحياة بالزوجين ونبت فيها العطف المزدهر والود الوثيق . وحين عادت وفية إلى بيت أبيها كان خيرى يلقاها وتتصافح منهما الأيدى وتثب فى الذهن خيالات من الماضى فلا تجد فى نفسيهما إلا حبا دارسا أصبح صداقة وطيدة يحفها الإكبار والإعجاب ، والذكريات والأمنيات المفعمة برجاء السعادة والرغد والنجاح فى الحياة .

وعاد الدكتور حامد عبد الكريم ... وما هو إلا هين السعى حتى عين بكلية التجارة مدرسا للجغرافية الاقتصادية . ولم تعد دولت لتعيش مع أخيها فهو قد تعود الحياة فردا ، وأحب هذه العادة التى اكتسبها من لندن كما أحب العادات الأخرى التى يعود بها أغلب العائدين من هناك . ولم ينس الدكتور حامد عادة من تلك العادات بل صحبها جميعا من بلادها إلى مصر ، ودمجها بعادته التى نبتت معه فى مصر ؛ فهو ما يزال بطىء المشية عظيمها ، نبيل اللفتات متكبر البسمات . وعلى الرغم من أن الفقر كان مصدر هذه العادات ، وعلى الرغم من أنه ترك الفقر واطمأن إلى عدم عودته إليه ، إلا أنه لم يترك من عاداته عادة الانفراد وعادة البخل وكلتاهما تغنيه عن دولت أى غناء ، واستطاع أن يبخل ويشتد بخله فلا يترك استغناءه عن دولت يمر دون أن يستغله أحسن استغلال . فأظهر لعزت باشا أنه يترك أخته إكراما لخاطره وخاطر فايزة التى أصبحت لا تستغنى عنها ، وأظهر أيضا أنه يقبل هذا عن طيب نفس مهما يكن من هذا الترك من متاعب ستلاقيه بها وحدته وانفراده . وكان شكر الباشا واضحا فى سعيه الحثيث ، وكانت الثمار دانية عن قريب فى تعيين الدكتور بكلية التجارة .

لم ينس حامد وفاءه للبيت الذى حقق له هذه الآمال ، وقد آلمه ما حاق به . ولكنه حين رأى الكارثة قديمة أخفى ألمه ، وأبدى وفاءه فى اهتمامه بيسرى

وإصراره أن يلحقه بكلية التجارة ما دام غير راغب فى كلية بعينها . والتحق يسرى بكلية التجارة ، وظل حامد يرعى أمره رعاية مخلصة وفية .

أما خيرى فقد واجه الحرب هادئا لم يشغله إلا غلاء الحاجات ، ولكنه اطمأن حين وجد محصولات أرضهم تغلو هى أيضا فتواجه الغلاء . وحين جاءت علاوات الحرب ازداد طمأنينة ، وسار حياته كما كان يسيرها هادئا واثقا مرتاح النفس والضمير .

وأحس محسن من الحرب الظلام المفروض الذى حد من غزواته المسائية ، وترك لأبيه جميع الأعباء الأخرى ، وترك له أيضا ـــ بطبيعة الحال ـــ المكاسب الكبرى التى أغدقتها الحرب على أصحاب الأرض .

واجه الجميع الحرب مرغمين غير راضين ، شأنهم فى ذلك شأن العالم أجمع . واختلف تأثر كل منهم عن الآخر شأنهم فى ذلك أيضا شأن سكان العالم أجمعين .

٢٢

فرغت سميرة هانم من صلاة الظهر ، ولم تقم عن السجادة بل ظلت فى مكانها تسبح بعض الوقت ، ثم نظرت إلى نادية التى كانت جالسة إلى جانب السجادة على الأريكة التى ظلت عمرها فى حجرة سميرة هانم ، وصحبتها من بيتهم القديم إلى شقتهم . وقالت سميرة هانم :

— لماذا لم تلبسى يا نادية ؟

— سألبس حالا يا نينا .

— قومى يا بنتى لنذهب ونعود قبل الليل والغارات .

— حالا ... آبى خيرى سيذهب معنا ؟

— طبعا ... ألم يلبس هو أيضا ؟

— إنه لابس لم يخلع .

— ويسرى ؟

— لا يريد الذهاب .

— لماذا ؟

— لا أدرى .

— نادية واذهبى أنت لتلبسى .

وخرجت نادية وعندما تركت الباب نادت :

— يسرى .

وأجاب خيرى ظانا أنه هو المطلوب :

— نعم .

— نينا تريدك .

وقصدت نادية إلى حجرتها تبدل ملابسها ، وقصد خيرى إلى حجرة أمه يسألها :

— تريدينني يا نينا ؟

— لا يا ابنى ناد لى يسرى .

— أتريدينه فى شىء ؟

— ناده وابق معنا .

وحين جاء يسرى بدأته أمه :

— ماذا يا يسرى ؟!

— ماذا يا نينا ؟!

— ما معنى مقاطعتك لبيت عمك عزت ؟

— لا شىء .

— لا بد من شىء ... يا ابنى منذ مات أبوك لم نجد أحدا مثل عزت باشا ... وقف إلى جانبنا فى أيام الشدة ، وما من طلب طلبناه منه إلا سارع ينفذه ، فهل أقل من أن نزوره ونسأل عنه ؟

وقال يسرى فى بوادر غضب :

— أنا لا أعرف لأحد فضلا علينا .

وضاق خيرى بهذه الإجابة ولكنه كظم ضيقه ، وقالت الأم :

— أبدا ؟

وقال يسرى فى إصرار :

— أبدا .

وقال خيرى :

ـــ يا أخى لا تنس فضل الله على الأقل .

وقال يسرى فى ثورة :

ـــ ولا الله .

وهبت الأم قائلة :

ـــ ماذا ... ماذا قلت ؟

وقال خيرى :

ـــ لا تخافى يا نينا ... لا تخافى ... إنها موجة فى هذه الأيام ... ولكنها كلام لا يدل على ما فى القلب .

وقالت الأم :

ـــ إنه كافر يا خيرى ... كافر ...

وسكت يسرى مأخوذا من ثورتها ، وقال خيرى محاولا أن يهدىء أمه :

ـــ أبدا يا نينا ... أبدا ... إنه لا يقصد .

واتجهت الأم إلى يسرى قائلة :

ـــ أتنسى فضل الله ... الله الذى جعل لك هذا الأخ الذى قام بأمرك وحرم نفسه من التعليم لأجلك ... تنسى فضله ... إلى أى مصير كنت تلقى بغير أخيك ؟.. أليس له فضل عليك ؟

واستأنف يسرى صمته فى تخاذل ، وقال خيرى محاولا أن يخرج أخاه مما أوقع نفسه فيه :

ـــ يا أخى ما لهذا جميعه ولذهابك إلى بيت عزت باشا ؟

وكأنما أثار هذا الاسم ثائرا فى نفس يسرى كان قد أوشك أن يهدأ .

ـــ يا أخى لا أريد ... أهو مفروض على أن أذهب ؟.. هل أنا أسير

عندكم ؟.. لا أريد ... لا أريد .

وقالت الأم فى حدة :

ـــ ولد ... ما هذه اللهجة التى تتكلم بها ... أجننت ؟

وقال خيرى مصطنعا الهدوء لا يزال :

ـــ أليس لاحجامك هذا سبب ؟

وقالت الأم :

ـــ عظمة ... واحد عظيم ليس لأحد فضل عليه .

وقال يسرى دون أن يلتفت إلى سخرية أمه مستأنفا ثورته موجها حديثه إلى أخيه :

ـــ أتريد أن تعرف لماذا ؟.. أتريد أن تعرف ؟

وأسندت الأم ذقنها إلى يدها ونظرت إلى ابنها الثائر نظرة ثابتة دهشة ، وقال خيرى :

ـــ إن كان لا يضيرك أن تقول .

ـــ لا يا أخى لا يضيرنى ... لا يا سيدى ... أقول لك لماذا لا أذهب ... لا أريد أن أرى غناهم وفقرى ... لا أريد أن أرى السراية وأعود إلى الشقة ، لا أريد أن أرى محسن يلبس أفخم قماش وأفخم كرافتة ويستبدل كل يوم حلة بأخرى وأعود لأجد حلتى الوحيدة فى الصوان ... واحدة فى الصوان لا تزيد ... أن خرجت فإلى جسمى ، ولتحل التى ألبسها مكانها . واحدة فى الصوان وواحدة على . لا أريد أن أذهب حتى لا أرى فايزة الصماء تلبس أفخم الملابس ، بل إن دولت تلبس أفخم الملابس ، ونادية وهى تستقبل الشباب فى ملابس ... ملابس ...

وقاطعه خيرى :

— على مهلك ... على مهلك ... نحن نعرف تماما إلى أى مدى هم أغنياء ونعرف أيضا مقدار ما نملكه ... ولكننا متساوون فى أشياء أخرى ... نحن وهم شرفاء ... ونحن وهم أولاد عم لم نمد إليهم يدا تستجدى ولا هم أشعرونا بفارق المال بيننا ... والمساواة بيننا فى ...

وقاطع يسرى أخاه فى حدة :

— فى المركز العائلى والشرف والكرامة ... ها ... ها ... ها ... هذه النكت التى لا تعرف غيرها لم تعد تساوى شيئا ... لا أستطيع أن أشترى بها بيت عزت باشا ... تعال معى إلى المذبح ... تعال إلى سوق الخضر ... تعال إلى تجار الدقيق واللبن ومتعهدى الجيوش ... تعال انظر إلى المجد الذى بلغوه بلا شرف ولا عائلة ولا كرامة ... بلا شىء إلا الذكاء وفهم الدنيا كما يجب أن تفهم ... تعال انظر إليهم الآن ... الأموال مكدسة تجرى بين أيديهم كما تجرى على لسانك ألفاظ الكرامة والشرف والمركز العائلى . ولكن الفلوس تجرى فتأتى بفلوس ، وكلامك يجرى فلا يأتى إلا بالفقر الأصلى ... نحن لم نصل إلى بائع الخضر ولا إلى الجزار ، لا ولا إلى حتى بائع اللبن ، ولكننا مع هذا نتشدق بالبيت الكبير الذى كان لنا ، وبقرابتنا القريبة من عزت باشا . وتصر أمى وتصر حضرتك على أن أذهب لزيارتهم ، وتغضب أمى وتغضب حضرتك إذا قلت إنى لا أريد الذهاب ... لا يا أخى ... لن أذهب ... لن أذهب إلا حين أحس أننى أصبحت فى غنى عزت باشا أو فى غنى قريب من غناه ... أعرفت الآن لماذا لا أريد الذهاب ؟.. هل اقتنعت ؟ لن أذهب ... ولن أنتظر حتى لأسمع رأيك فإنى أعرفه .

وفى حركة سريعة اتجه يسرى إلى الباب وعبره إلى باب الشقة الخارجى ، وما هى إلا هنيهة حتى سمعت سميرة هانم وسمع خيرى الباب ينصفق صفقة عنيفة ، ولم

تزد الأم عن أن تقول :

ـ لا حول ولا قولا إلا بالله .

وقال خيرى :

ـ لا تخاف ... شدة وتزول ... لا تخاف ... سوف يعرف قريبا أيهما أكثر قيمة : الكلام الذى يجرى على لسانى أم المال الذى يجرى فى يد الجزار وبائع الخضر .

٢٣

غادر يسرى البيت ساخطا ، الثورة تمور فى نفسه فكأنه ما أفرج عنها . وراح يسير الطريق يعلو صدره ويهبط لا يفعل ذهنه شيئا إلا أن يستعيد ما كان يقوله لأخيه ، ولا تبدو على وجهه إلا بقايا ابتسامة ساخرة تطفر إلى فمه كلما دار بذهنه ما يفكر فيه أخوه من شرف وكرامة وأخلاق ، وغير هذا من الأوهام التى يسبح فيها خيرى والتى لا تساوى عنده إلا هذه الابتسامة . وإنه اليوم يزيد ابتسامته تثبيتا وإن كانت قد بدأت تتخذ لونا آخر إلى جانب السخرية التى تتسم بها ، فلقد راح يستعيد فى ذهنه شكل أخيه وهو يسمع منه هذا الهجوم الذى شنه على العوالم التى يعيش فى هيكلها .

نعم إن أخى ما كان يفكر يوما أنه سيسمع هذا الحديث ، ولا شك أن دهشته زادت أن صدر هذا الحديث عنى أنا ... أخوه الذى عاش معه هذه السنوات الطوال لا يسمع منه حديثا إلا هذا الحديث عن ماضينا وبيتنا وأسرتنا وكرامتنا ... كرامتنا ؟! كلام ... كلام ... فى أى عصر يعيش أخى

خيرى ؟... إنه يغلف نفسه بستار سميك من سنوات الماضى وخرافاته ... مع أنه شاب ... شاب ودائر وقطع السمكة وذيلها . ولكنه من أفكاره فى غرفة أقفل ما بينها وبين الحياة ، فهى المعزل البعيد المطمور فى خرافات الماضى وأوهام السنين ... ألم ير إلى الحياة اليوم ؟... لعله لا يعرف ما نعرفه نحن ، نعم أظن أنه لم يتعمق الحياة كما أتعمقها أنا ... طبعا ثقافته محدودة ولم يدخل إلى التعليم العالى ، ويكتفى بقراءة هذه المكتبة التى ورثها عن المرحوم والدنا . ولكن ماذا تجدى هذه الكتب الأدبية فى فهم الحياة على حقيقتها والوصول إلى جذورها ؟.. العالم يحترق أمامه وهو يقرأ فى شعر المتنبى وشوقى وأيام طه حسين ومجدولين المنفلوطى وفلسفة العقاد ومساخر المازنى ... مصائب ... إنه لا يريد أن ينزل إلى الحياة الحقيقية ... إلى الواقع ... كم دهش حين حدثه الدكتور حامد عن مبادئه ... كم دهش حين رأى الدكتور حامد يقول إن كل العواطف ضعف وأن الحياة لا تقبل إلا على الذين يلقونها بقلوب خالية من كل عاطفة إلا عاطفة المصلحة ، وبعزم لا يعرف إلا بلوغ القصد بلا نظر إلى الوسيلة ولا مشاعر الغير ... كم جزع أخى ... كم جزع ... لم يجد شيئا يقوله إلا أن العواطف لا تعرف وإنما تحس ، وأنه لا يستطيع أن يناقش إنسانا هذا رأيه لأنه لن يستطيع أن يقنعه ... وقال شيئا آخر ... قال فى حدة لولا العاطفة ... عاطفة الصداقة والأخوة بينه وبين الدكتور ... ثم لم يكمل ... وحين استحثه الدكتور حامد أن يكمل احمر وجهه وصمت ولم يكمل ... ماذا كان يريد أن يقول ؟.. أتراه كان يريد أن يذكر الفضل الذى ناله الدكتور حامد عن طريقه ؟.. أم تراه يقصد إلى شىء آخر ؟. لا أدرى .. أظن أن الدكتور حامد فهم هذا الفهم ... أم تراه لم يفهمه فهو رجل حريص ألا يبدى وجهه شيئا مما يعتمل فى نفسه .. كم أعجب بالدكتور حامد .. لقد استطاع أن يفهم الدنيا ويتعمق حقائقها ، كيف استطاع ذلك ؟ أترى سفره إلى الخارج أم تراها

طبيعة ؟ أم تراه مجرد ذكاء وهبه الله له ؟.. إنه يختلف كل الاختلاف عن أخى وصديقيه نجيب ومحسن ... ولكن أى مقارنة تلك ؟ إنه يسبقهم فى السن ويختلف عنهم فى الثقافة.لا شك أنه يملك مواهب وثقافة وصدقه فى أيضا ... فهو لا شك يسبق جيله فهو ثائر على جيله المقيد بالماضى والتقاليد . لا أنسى ما فعله معى فى الامتحان .

أى أستاذ غيره يمكن أن يملى الإجابة على تلميذ فى اللجنة ؟. جرأة عجيبة ... أظن إن كان أخى خيرى مكانه لقتلنى لو طلبت إليه هذا ... أما الدكتور حامد فجرىء ... ألم يقل لى يومها « أنت أحق بالنجاح من الأغبياء الذين يذاكرون ولا يفهمون شيئا ، وإنما يحفظون ويرمون بما يحفظون على أوراق الإجابة » . رجل مقتنع أننى ذكى وأننى أستحق النجاح والتفوق ...

كانت أقدام يسرى قد بلغت به إلى موقف الترام ، وما لبث أن رأى الترام الذى يبلغ به بيت الدكتور حامد قادما فركبه ، فقد جعله هذا الحديث الذى دار بنفسه يشتاق إلى رؤيته ، كما تذكر أنه يريد أن يسأله فى بعض مواضع عرضت له أثناء المذاكرة . وقد تعود يسرى أن يزور أستاذه فى غير حرج ، فقد قاربت الكلية بينهما كما قاربت بينهما روابط الماضى . ولم يكن عند حامد إلا خادم هرم قليل المئونة هين الأجر فلم يكن يرى حرجا فى أن ينتظر أستاذه بالبيت حتى يعود إذا تصادف وذهب على غير موعد أو ذهب على موعد فلم يجد أستاذه بالبيت ؛ فقد كانت الصلة بينهما تتيح للأستاذ ألا ينتظر تلميذه مكتفيا بترك ورقة يطلب إليه فيها أن يعود فى موعد آخر أو يطلب أن ينتظره حتى يعود ، كما كانت تتيح ليسرى ألا يغضب .

وبلغ يسرى البيت ودق الجرس ، وفتح الباب عن دولت . أخذ يسرى بعض الشيء وعاجلته هى قائلة :

— أهلا .

فيها ترحيب وفيها شوق . وقال يسرى :

— أهلا بك .

— أين أنت ؟.. من زمان لم نرك .

— فى الدنيا ... خير ماذا جاء بك ؟

— ماذا ... غريبة ؟

— نعم ...

— بيت أخى :

— أعرف ... ولكنى أجىء إليه كل يوم تقريبا ولا أراك .

— أنا أجىء إليه من حين لآخر أرى ملابسه وأنظم بيته وأعود .

— آه ... أهو هنا ؟

— لا ... ادخل .

ودخل يسرى وهو يقول :

— أين ذهب ؟

— لا أعلم ! جئت فلم أجده .

— وأين عم إدريس ؟

— لا أدرى أيضا ، فإنه ما كاد يرانى حتى قال الحمد لله أنك جئت .. انتظرى أنت أخاك وسأنزل أنا أشرب فنجان شاى لأن عندى صداعا وأريد أن أشم الهواء . ونزل السلم يجرى كأنه ابن العشرين .

— هيه ... طيب .

— اقعد ... مالك واقفا ؟... ألا تنتظر أخى ؟

ولم يتردد يسرى إلا بكلمة عابرة أطلقها وهو يقتعد الأريكة فى البهو :

— قد يغيب .

وقالت دولت فى دلال :

— وماله ؟.. لنا زمان لم نرك .

وهى دولت كما هى ... لم تغير منها السنون ، ولم تمر بها الحرب . عفيفة رغم أنفها عاهرة لو استطاعت إلى ذلك سبيلا ... الرجل يملأ تفكيرها وحسها ، ولولا بعض حياء ما امتنعت على الخدم فى بيت الباشا . ولكنها لم تستطع أن تنسى مكانها فى البيت ، وأخاها الذى أصبح أستاذا كبيرا ، فعفت عن الخدم ولم تجد فى حياتها غيرهم ، فعاشت شريفة بواقع أمرها غير شريفة بآمالها وتفكيرها وأحلامها وأمسياتها المنفردة الباردة .

لم تجد زوجا ... فأخوها يأبى لها الجاهل ولا يجد لها المتعلم . وهى فى وسط بعيد عن الرجال الذى قد يقبل أخوها أن يزوجها بأحدهم . وقد جعلتها إقامتها فى بيت الباشا تقتنع برأى أخيها ، فإنها لم تعد تطيق أن تنزل من هذا العز الذى رفلت فى أطوائه إلى حياة جافة مع صانع أو مثيل له .

نظر يسرى إلى دولت مليا ... جمال أخاذ ... إنه يعرف ذلك منذ زمن بعيد ... ولكن كيف كان يمكن أن يصل إليها ؟.. لقد انقطع عن بيت عزت باشا فى الوقت الذى كان يمكن أن يستغل فيه علمه بجمالها ...

أحست دولت نظرته وعرفتها والتذتها ، فأقامت مكانها ترنو إليه وتنتظر أن ينتهى من النظر بحديث . ولم يطل انتظارها قال :

— ازددت جمالا يا دولت .

وضحكت دولت فى تمايل وهى تقول :

— أما تزال ترانى جميلة ؟

— أجمل مما كنت أراك .

وازدادت ضحكا وقالت :

ــ أنت أيضا ازددت جمالا ، فقد أصبحت تعتنى بشعرك وتمشطه ، وخلعت الطربوش الذى كان لا يفارقك على الرغم من خوصته المكسرة ، وأصبحت تهتم بملابسك ، وازدادت عيناك بريقا ولو أن الخبث حل فيهما محل البراءة ، وأصبحت ذا عينين جريئتين حتى لأستحى أن أقف أمامك ، فإنه يخيل إلى أنك توشك أن تخلع عنى ثيابى .

وقال يسرى فى لهو :

ــ يا ليت !

وضحكت دولت ضحكة عالية وهى تقول :

ــ لا ... لقد أصبحت بلوى كبيرة .

وأمسك يسرى بيدها وأجلسها إلى جانبه .

وتحققت أمنية دولت آخر الأمر ، واستطاعت أن تجد رجلا ، واستطاعت أيضا أن تترك عهد العذارى غير آسفة ولا قلقة ، فقد كانت تحس ألا أحد هناك سيأسف على ما فقدته ، فهى لا أحد لها إلا أخوها .. وأخوها لا يهمه من أمرها إلا أن تكفيه مؤونتها ولا تطلب منه مالا ، ثم هو مشغول بعد ذلك بالكلية وبالمجد الذى يمهده لنفسه فى الحياة ... فماذا تخشى ؟..

وهكذا وبهذا الاطمئنان المستقر فى نفس دولت استطاع يسرى أن يطمئن هو الآخر ، فما دامت هى غير آسفة ولا قلقة ولا خائفة ، فماذا يدعوه هو إلى الأسف أو القلق أو الخوف ؟!. لا شىء .

قالت له .

ــ أين نلتقى بعد ذلك ؟

قال يسرى :

ــ لا أدرى !

ــ لماذا لا تأتى إلى البيت ؟

ــ وما الفائدة ؟

ــ صحيح .

ثم قال وكأنما أشرقت فى ذهنه فكرة رائعة :

ــ لماذا لا نلتقى هنا ؟

ونظرت دولت إليه فى دهشة :

ــ هنا ؟!

ــ نعم لم لا ؟

ــ وأخى ؟

ــ سأعرف مواعيد خروجه وأخبرك بها بالتليفون .

وظلت دولت تحملق فى وجهه بدهشة وهى تقول مرددة وراءه بلا تفكير :

ــ بالتليفون .

ــ نعم ... سأظل أطلب البيت ولا أجيب حتى أسمع صوتك ، فإذا سمعته أخبرك بالميعاد ولا تجيبى أنت .

وبدا على دولت أنها اقتنعت ، ولكنها ما لبثت أن قالت :

ــ وعم إدريس ؟

ــ لا شأن لك به ... سأسبقك وأجعله ينزل بأى حجة أو تسبقينى أنت ، وهو ما أحب إليه أن ينال إجازة بمجيئك .

ــ نجرب .

ــ ليس أصلح من هنا .

ــ أترى ذلك ؟



— لا شك .

وما هى إلا دقائق حتى كان يسرى بالطريق يفكر فيما كان من أمره وأمر دولت ، فرحا هادئ النفس يسير على الأرض لا يكاد يلمسها من مرح ونشوة ، حتى إذا هفت إلى ذهنه فكرة أنها أخت أستاذه وصديقه الذى يحبه حبا يكاد يصل إلى حبه لأخيه خيرى طمأن نفسه ... إن حامد واسع الأفق ثائر على التقاليد ذكى ، وما تلبث نفسه أن تطمئن ويعود إلى سيره يكاد لا يلمس الأرض من مرح ونشوة .

٢٤

دامت الصلة بين يسرى ودولت ، ولكنه أنبأها فى آخر لقاء بينهما أنه سينقطع عنها بعض الوقت لأن امتحان البكالوريوس أصبح على الأبواب .

وانقطع يسرى للمذاكرة فعلا ، وكانت مذكراته فى بيت صديق له هو عبد الوهاب النجدى ، وكان يشاركهم فى المذاكرة صبحى الملوانى ويحيى مهدى . وكانوا جميعهم جادين فى مذاكرتهم ؛ وألحت عليهم الدروس وألحوا عليها وأصابهم هذا الدوار الذى يعرفه أبناء المدارس . حتى كانت ليلة انتبه يحيى إلى رفاقه الثلاثة ، وكان يشرح لهم فوجدهم لا يعون من قوله شيئا ، فأقفل الكتاب ونظر إليهم قائلا :

— أولاد .

فطالعته منهم همهمة تشبه الإجابة فقال :

— أنتم لا تفهمون شيئا مما أقول .

— فقال يسرى :
— اشرح أنت ولا شأن لك .
— لا شأن لى ؟ كيف ؟ أهو تعب قلب والسلام !!
فقال صبحى :
— لا يا يسرى ! يحيى محق ... مخنا مقفل .
وقال عبد الوهاب :
— ما رأيكم ... نترك المذاكرة الليلة .
فقال يسرى :
— وماذا نفعل ؟
وقال يحيى :
— نذهب إلى السينما .
وسارع صبحى قائلا :
— أى سينما ... هل جننت ؟
وقال يحيى :
— مسرح .
فقال صبحى ساخرا فى مرارة :
— يا بنى اكبر ... سينما ... مسرح ... هل نحن عيال ؟
وقال يحيى :
— ألا يذهب إلى السينما والمسرح إلا العيال ؟ طيب وماذا تريدون أن تفعلوا ؟
قال عبد الوهاب :
— البار ... بار سبيت فاير ... عجيب يا بنى ... كاس الويسكى ..

فقاطعه يحيى :

ــ أنا لا أشرب .

قال عبد الوهاب :

ــ لا وعيت تشرب ... انظر ... ألا تنظر أيضا ؟

فقال يحيى فى بلاهة :

ــ وماذا أنظر ؟

فأغرق الجميع فى الضحك إلا يسرى الذى ارتسمت على وجهه معالم دهشة كبيرة وقال :

ــ أتريد أن تفهمنى أنك لم تذهب إلى بار فى حياتك ؟

وقال يحيى وعلائم البلاهة ما زالت بادية عليه :

ــ لا ... لم أذهب .

وضحك يسرى وأغرق فى الضحك :

ــ لا ... معذور تكون أول الدفعة ... أبدا ؟

فقال يحيى :

ــ أبدا ... ألا بد أن نذهب إلى البار ؟.. أذهب أحدكم إلى الجامع فى حياته ؟

فقال يسرى :

ــ ماذا ؟ أنويت تخطب خطبة وعظ أيضا ؟

فقال يحيى :

ــ لا ولكن هناك أمكنة لم تذهبوا أنتم إليها أبدا وذهبت أنا إليها ، وأمكنة لم أذهب أنا إليها ...

فقال يسرى مقاطعا :

— نعم وذهبنا نحن إليها ... عظيم ... اسمع ، البار فيه نسوان تفتن العابد ، وشراب يا حبيبى وعدك الله به فى الجنة ونحن نجده فى الدنيا من غير جنة أو تعب جنة ... تجىء معنا أم تنتظر أنت دورك مع الحور العين وشراب الكوثر ؟

فقال يحيى فى حزم :

— لا ... أفضل أن أنتظر دورى .

فقال صبحى :

— يا بنى بار سبيت فاير أقرب .

وقال عبد الوهاس :

— وأسرع ... وهو أيضا مؤكد .

فقال يحيى فى لهجة تكاد تكون غاضبة :

— أتكفر بالله ؟.. الجنة أيضا مؤكدة .

فقال يسرى :

— وهل قلنا إنها غير مؤكدة ... كل ما فى الأمر أننا شباب ونأخذ حظنا من الدنيا ، ومسألة الجنة هذه نؤجلها إلى حين لا نستطيع المتعة ... أؤكد لك يا يحيى أننى فى سن الخمسين ... لا ... الستين سأصلى وأمتنع عن شرب المسكر وأصوم وأعجبك ، وسأقابلك بعد ذلك على أبواب الجنة عند عمك رضوان ... يا عينى عليك يا يحيى ستحزن يوم ذلك حزنا عظيما ... حرمت نفسك ومتعت نفسى ، ثم التقينا على أبواب الجنة ، يا عينى يا ابنى .

فقال يحيى :

— كلام فارغ ، لكل جزاؤه .

وقال عبد الوهاب بين ضحك رفاقه :

— اسمع يا عم .... نحن ذاهبون إلى النار ... أقصد إلى الجنة التى فى

الأرض ... أتجيء معنا ؟ أم تذهب أنت إلى السينما ؟

ــ لا ... سأذهب أنا إلى السينما واذهبوا حيث شئتم .

فقال يسرى :

ــ اسمع ... قبل أن تذهب ... أعندك خادمة فى البيت ؟

وأدرك يحيى ما يرمى إليه السؤال فقال :

ــ وما شأنك أنت ؟...

فقال يسرى :

ــ لا شأن لى ... وإنما أسأل فقط .

فقال يحيى :

ــ يظهر أنك سكرت قبل البار ؟!

فقال يسرى :

ــ لا والله أنا مفيق جدا ... المهم ... متى تحضر غدا ؟

فقال يحيى :

ــ فى موعدى ، وأرجو أن أجدكم قد أفقتم من سهرة الليلة .

فقال عبد الوهاب :

ــ لا يا أخى ... لا تخش شيئا ، نحن نشرب المحيط ولا يهمنا .

فقال يحيى :

ــ محيط يبلعكم جميعا ، سلام عليكم .

فقال عبد الوهاب فى جد ساخر :

ــ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وقد تقطعت تحيته بالضحكات العالية أو المكبوتة ، وخرج يحيى وتركهم يتهيأون لسهرتهم ، وقد طمأنهم عبد الوهاب أنه سيدفع عنهم النفقات جميعا .

أصر يسرى على أن يمر ببيته ليلبس حلته الأخرى ، ولم يستطع رفاقه أن يخالفوه . وحين سأله أخوه عما دعاه إلى ارتداء حلته النظيفة أنبأه فى عجلة أنهم تعبوا من المذاكرة ويريدون أن يذهبوا إلى السينما . ولم يشأ خيرى أن يسأله أى سينما . ولم يشأ أن يقول له إنه يريد أن يرافقهم مع أنه كان ينتوى أن يذهب إلى السينما هو الآخر ... لم يشأ أن يقول شيئا فقد كان يدرك أن وجوده معهم لا يروقهم ، كما كان يدرك تمام الإدراك أن أخاه فى أغلب الأمر يكذب وأن السينما لن تكون مقصده . أدرك هذا فسكت . ولم يدرك يسرى أن أخاه عرف كذبته وإنما هو يلقيها واثقا أن أخاه سيصدقها فهو واثق من ذكاء نفسه ، واثق أنه قادر على أن يجعل أخاه يصدق ما شاء له أن يصدق ... وانفتل يسرى إلى صديقيه اللذين كانا ينتظرانه أسفل البيت ، وما هى إلا بعض دقيقة حتى كانوا يأخذون سمتهم سعيا على أقدامهم من المنيرة إلى بار سبيت فاير بميدان الأوبرا .

سار الرفاق ، ووجدهم يسرى يتابعون حديثا بدأوه حين كان هو يرتدى ملابسه ، قال صبحى :

— ألم تقل لأبيك إنك لا تريدها ؟

فقال يسرى :

— ماذا ؟ هل جد جديد فى أمر زواجك يا عبد الوهاب ؟

— لا ... لا جديد إلا أننى اقتربت منه .

فقال يسرى :

— ولكنى أراك فى هذه الأيام غير غاضب كما كان شأنك يوم فرض عليك هذا الزواج .

فقال صبحى :

— والله إن أردت الحق يا أبا عبده ، أنا أيضا أراك فى هذه الأيام أقرب إلى

الانبساط .

فقال عبد الوهاب :

ــ والله إنكما خبيثان .

فقال يسرى فى لهجة الفاهم :

ــ قل الحق يا أبا عبده .

فقال عبد الوهاب :

ــ والله أنا وجدت المسألة معقولة إلى حد كبير .

فقال صبحى :

ــ أهكذا ؟!

فقال عبد الوهاب :

ــ البنت عندها مائتا فدان وحدها ، سترثها من أبيها الذى أصبح رجلا فى الدنيا وأخرى فى جنة عمك يحيى !

فقال صبحى :

ــ معقول يا ابنى ... الغنى يحب الغنى

فقال عبد الوهاب :

ــ الزواج شىء لا بد منه على كل حال ، ومسألة الجمال هذه ليست مهمة ... الجمال موجود فى سبيت فاير وغيره من البارات ، أما المائتا فدان فمسألة صعب وجودها .

فقال صبحى :

ــ رحم الله عمك أوسكار وايلد ، كان يقول إذا أطفئت الأنوار تساوت النساء .

فقال عبد الوهاب مسترسلا :

— فعلا ... هى زوجة على أية حال للبيت والأولاد ، وأما عن جمالها فأستطيع بمالها أن أجعل ألف جميلة تعوضنى عن قبحها خير عوض .

فقال صبحى :

— والله وأصبحت فيلسوفا يا ابن الكلب .

فقال يسرى فى نوبة تفكير :

— والله كلامه معقول يا صبحى .

فقال صبحى :

— وهل قلت غير ذلك ؟

وقال عبد الوهاب :

— ثم إن أبى سيرضى عن هذا الزواج لأنه وقع باختياره و ...

وقاطعه يسرى :

— وهل هذا المنطق الذى تسوقه منطق أبيك ؟

فقال عبد الوهاب :

— لا أبدا ... إنما البنت بنت أخيه وهو معجب بأدبها وخلقها ، ومسألة الجمال لا تهمه .

فقال يسرى :

— وما الجمال ؟ وما العيب أن تكون زوجتك غنية وغير جميلة ، ما أثر الجميلات اللواتى سيكن زوجاتك بأموالها ... الفلوس يا حبيبى ... الفلوس هى كل شىء ... إذا كان معك فلوس فمعك الجمال الذى تريد والمجد والعز والأبهة ... والله فلسفتك عميقة يا عبد الوهاب ... تزوج يا بنى على بركة الله .

وقال صبحى :

— العقبى لك يا يسرى .

(ثم تشرق الشمس)

فقال يسرى :

ـــ ومن أين آتى بفرصة كفرصة سى عبده ؟ إنه غنى ويستطيع أن يتزوج الغنية .

وقال صبحى :

ـــ فرصتك أنت أكبر ... أقاربك جميعهم أغنياء ، ما عليك إلا أن تضع يدك فى وسطهم تخرج بواحدة غنية ، وما دمت ترى أن الجمال لا أهمية له فالمسألة أصبحت غاية فى السهولة .

وصمت يسرى وفكر وأطال التفكير ، وانشغل الصاحبان ، وران عليهم صمت زاده عمقا الظلام المخيم على القاهرة ، فالنور يخرج إلى الشارع متخفيا فى حذر تذوده ألوان زرقاء قاتمة طلى بها زجاج النوافذ ، والسيارات تمضى واهنة تتحسس طريقها بالعلم لا بالرؤية ، فمصابيحها هى أيضا زرقاء داكنة تكاد لا تفيد شيئا إلا أن تنبه المارة أنها تمر . وكان الرفاق قد بلغوا ميدان الأوبرا وليس من دليل أنهم بلغوه ألا أنهم يعرفون أنه هو ، فهو هادئ ساكن شأنه شأن ضاحية فى طرف من المدينة قصى .. فلم يكن ميدان الأوبرا ـــ قلب القاهرة النابض ـــ نابضا فى هذه الأيام ، إنما هو متسع من الأرض يرين عليه ما يرين على العالم والنفوس من إظلام ، وصمت مقبض ، وخوف راعد ، وجهل للمستقبل ، وضيق بالحاضر ، وشوق إلى الماضى .

كان بار سبيت فاير شأنه شأن الميدان أجمعه ، فهو من الخارج صامت كالح ينبعث منه بصيص من الضوء يتلصص طريقه إلى الخارج ، ولكن ما إن دلف إليه الرفاق الثلاثة حتى وجدوا الحياة تمور فى داخله عربيدة تنتقم من الصمت فى الخارج ، ووجدوا الضياء باهرا ينتقم من الظلام فى العالم ، والعقول غائبة والأجسام حاضرة تثبت وجودها فى إصرار ، فى كل نأمة منها ، فى كل إشارة يشير بها

جندى من الجنود المحاربين أو تشير بها فتاة من فتيات البار ... أجسام بلا عقول ، وضحك بلا تفكير ، وحديث بلا منطق إلا الرغبة ، حديث أجسام تهتبل من إجازة الساعات فرصة لا يدرى أصحابها إن كانت تعود أو لا تعود ... أو متى تعود إن هى عادت ؟.. هم الجنود العائدون من القتل أذاقوه عدوهم ونجوا منه بأعاجيب ، ولم تكن عودتهم لأهلهم وذويهم بل إنهم يجهلون من أمر هؤلاء كل أمرهم ، فمن زوج ترك زوجته الشابة ، ومن ابن ترك أمه العجوز ، لا يدرى الزوج كيف تحيا زوجته ، ولا يدرى الابن أتحيا أمه أم هى فارقت الحياة . عادوا يريدون أن ينسوا الموت جميعه سواء منه ما جرعوه لعدوهم أو ما تعرضوا هم له وأفلتوا لا يدرون كيف ، ويرعبهم أنهم يعلمون أنهم ملاقوه ثانية وثالثة وعشرا . ثمّ يعجز تفكيرهم ... كيف يفلتون من الموت القادم ؟.. كيف ؟.. إنهم يريدون أن يحجبوا تفكيرهم عن هذا الطريق ويريدون أن ينسوا أوطانهم وما فيها فينكبوا على الخمر ، يريدون أن يسكروا ويريدون النساء اللواتى تعرض عليهم ولا يهمهم فى غمرة خوفهم من الماضى والمستقبل أنهم فى أرض غير أرضهم ، وبين قوم غير قومهم ، فقد أصبحوا يرون كل مكان ينزلون فيه مكانهم هم أصحابه بقوتهم وبسلاحهم ، وبالحق الذى يفرضونه لأنفسهم على غير المحاربين .

دخل الرفاق الثلاثة البار ، ووقفوا بجانب الباب بعض الحين ينفضون المكان بأعينهم متنقلين فى دهشة وبعض خوف بين النساء واحدة بعد الأخرى ، فإذا هن جميعا مشغولات عنهم . فراحوا ينقلون أبصارهم مرة أخرى بين المناضد عساهم يجدون واحدة خالية ، حتى إذا يئسوا من هذه أيضا تقدمهم يسرى فى تؤدة وأدب جم إلى البار واعتلى كرسيا ووقف صاحباه إلى جانبه ، وقال عبد الوهاب :

ــ ثلاثة ويسكى

وجاءهم الشراب فراحوا يشربون وهم سكوت مفكرين خائفين ، الصخب من حولهم منصب فى قلوبهم رعبا .

وكان إلى جانب يسرى من الناحية الأخرى جندى طويل القامة عريض المنكبين له ذراعان مفتولتان كل عرق فيهما يمور بالقوة العارمة ، وكان أحمر الوجه احمرارا صارخا لا عن خجل وإنما عن طبيعة زادتها الخمر وضوحا ، فهو كالذبيحة بين يدى الجزار يكاد رائيه يظن أن الدماء لن تلبث أن تنبجس من خديه فى عنف وانهمار . وكان الجندى يلف ذراعا له حول خصر فتاة لا تكاد تتماسك بين ذراعيه ، حتى يخيل ليسرى أنها تسيل وتسيل وتوشك أن تصبح مادة بلا قوام تحتاج إلى وعاء يقيم من أودها أو يبقى على مادتها ، وكانت ذراع الجندى الأخرى على البار تمسك بكأس ترفعها بين الحين والحين إلى فمه أو إلى فم فتاته ، ولعله كان يخيل إليه من شدة السكر أنه يسقيها وهو يسقى نفسه ، أو يخيل إليه أنه يسقى نفسه بينما هو يسقيها .

وظل الرفاق الثلاثة يشربون ، وظل يسرى ينظر إلى هذه الفتنة التى ترتكب بجانبه شاردا يفكر فيها حينا ويفكر فى حديث صبحى حينا آخر ، أو يفكر فى دولت حينا ثالثا ، أو تختلط الأفكار جميعها فى رأسه امتزجت بحميا الخمر فهو فى بحران .

مضى حين من الوقت لم يشعر البار بمضيه ، وغمز صبحى ذراع يسرى وأشار بذقنه إلى فتاة مالت على صدر جندى راح يعبث فى جسمها ويقبلها فى نهم . وأطال يسرى النظر إلى الفتاة والجندى . ثم التفت فجأة إلى جواره يريد أن يرى أثر هذه المغازلة الصريحة على الأسترالى وصديقته ، ولكنه وجد الأسترالى قد انصرف والفتاة تقف وحدها إلى البار . فظل ناظرا إليها وتنبهت هى إلى نظرته



فابتسمت له فابتسم ، فدعاها إلى كأس فأجابت وإلى أخرى فقبلت . وأوشك أن يدعوها إلى الخروج لولا أن عاد الأسترالى ، وكانت الفتاة قد تعتعتها الخمر كما تعتعت يسرى ، وكان الأسترالى كامل السكر غير محتاج إلى مزيد ، وما هى إلا ثانية واحدة حتى كان يسرى مقذوفا يحطم الزجاج المطلى باللون الأزرق خارجا هو والنور إلى الشارع ، وقبل أن تمر الدقيقة التالية كان الصديقان يخترقان لوحين آخرين من الزجاج الأزرق غير مقذوفين إلا بالرعب المرفرف فى قلبيهما ، وما إن بلغت أقدامهما أرض الميدان حتى أطلقا الزمام للجرى لا يلويان على صاحبهما .

أمسك يسرى بأول قدم مرت به فى مرقده خارج البار ، وامتدت إليه يدان تحملانه كطفل ، وسارع صاحب اليدين يترك المكان جميعه يتوخى الظلام الشديد ، حتى إذا بلغ مكانا مطمئنا تركته اليدان ، وطالعه صوت لم يختلط عليه :

ـــ يظهر أن الفيلم كان دراما عنيفة يا أستاذ يسرى .

٢٥

أفاق يسرى إفاقة تامة ، وواجه أخاه الذى طالعه وجهه من ثنايا الظلام الأغبر مبتسما حانيا صافحا مدركا ، وظل يسرى صامتا مستخزيا .

وقال خيرى :

ــ هل أصابك شىء ؟

ــ لا ... بسيطة .

ــ أتستطيع المشى ؟

ــ نعم ... أظن ذلك .

ــ اعتمد على ذراعى وامش .

ــ أين تريد الذهاب ؟

ــ إلى البيت .

ــ ... خذنى إلى مكان آخر .

ــ تعال .

ــ إلى أين ؟

ــ تعال .

ومشى الأخوان يعتمد يسرى على ذراع أخيه . تعثرت خطواته فى أول الأمر عض الحين ثم ما لبث أن استقام به المسير . وبلغا شارع قصر العينى ، ولم يمل خوه إلى المنيرة بل حاد يمنة إلى النيل ، وحين بلغا الحجارة البيضاء المشرفة على لنهر العريق جلس خيرى وساعد أخاه فأجلسه إلى جانبه ثم قال :

— هل فكرت يوما أن تجلس جلسة كهذه ؟

وقال يسرى فى سخرية تتردد بين الظهور والاستخفاء :

— جلسة شاعرية تعنى ؟

فقال خيرى مغضيا عن رنة السخرية فى صوت أخيه :

— مثلا .

— لا يا سيدى أنا لست من غواة الشعر .

— هل لا بد أن تكون من غواة الشعر حتى تتمتع بالطبيعة ... يخيل لى يا يسرى أنك لا تتمتع بالطبيعة أبدا .

— هذه متعة لا أعرفها ... إنما أعرف متعات أخرى .

— حتى هذه المتعات تحتاج إلى شىء من الجمال فى نفسك لتتغلغل إلى كيانك ، تستطيع أن تسكب على حياتك لونا من الجمال ... من الإحساس ... من المشاعر .

— إحساس ! مشاعر !.. الشعر أتلف الدنيا معك .

وقال خيرى فى بساطة :

— قل لى يا يسرى ... ألم تحس فى لحظة ... فى لحظة عابرة أنك تحب هذه الدنيا ... الدنيا كلها بكل ما فيها ومن فيها ؟ تحب الظلام والنور ، تحب العدو والصديق ، تحب الدنيا لأنك فيها ، وتحب الله لأنه صنع لك هذه الدنيا ... الدنيا كلها بجمالها بل بقبحها وقسوتها . ألم تحس فى لحظة — ولو لحظة — أن قلبك استطاع أن يحتوى العالم جميعه واستطاع أن يحنو عليه ويعطفه بما فيه من جمال ، بل ما فيه أيضا من بؤس ؟

قال يسرى فى نفس البساطة :

— لا .

— أبدا ولا أظن أننى سأفعل ... أى دنيا هذه التى أحبها ؟.. هذه الدنيا التى جعلتنا فقراء وجعلتك تترك تعليمك لتعلمنا أنا وأختى ، وجعلت غيرنا أغنياء لا يدرون ما يفعلون بمالهم ؟

— أليس جميلا أن تجد فى الحياة أخا مثلى ترك تعليمه لتعليمك أنت وأختك ؟.. أليست جميلة هذه الصلات القوية الرقيقة التى تصل الأخ بأخيه والصديق بصديقه ؟

— ليست جميلة أبدا ... ماذا كسبت ؟ إنك تفلسف حياتك فتقبلها مع أنها حرمتك من العلم والطموح والغنى ، أما أنا فلا أستطيع ...

— لقد حرمتنى الحياة مما قلت ، ولكنها وهبت لى الأصدقاء والحب والدفء والطمأنينة ، وإنى أرى فى هذه الأشياء غنى عن الطموح والغنى .

— ألم أقل إنك تفلسف حياتك وتقبلها ؟.. أنا لا أفلسفها .. أنا أنظر إلى الواقع الملموس فيها فأرانا فقراء وغيرنا أغنياء ... لماذا ... ماذا يفيد الدفء فى حل هذه المعضلة ؟

— طيب اسمع ... أترضى أن تكون فردا من عائلة عزت باشا بدل أن تكون فردا من أسرتنا هذه ؟

— أرضى !! أرضى يا أخى بل أتوق وأتمنى .

— أترضى أن تكون أختك ... صماء ؟

وأخذ يسرى هنيهة وقال :

— صماء ؟!

— نعم .

— لماذا ... ما معنى سؤالك ؟

— معناه أن لكل أسرة متاعبها ... أسرة عمك عزت باشا نعرف المصيبة التى

تكمن ببيتها ، أما الآخرون فلا نعرف مصائبهم ... دع الخلق للخالق يا يسرى واحمد الله على الصحة .

فقال يسرى ساخرا :

ـ الصحة ... نحمده ... أهذه كل ما نملك ؟

ـ أهي قليلة ؟ على أنك تملك أيضا الستر وإخوة يحبونك وأما ترعاك .

ـ يا سلام على الأملاك ... يا سيدى على الشفالك .

ـ ليست الدنيا كلها أملاكا وشفالك يا يسرى .

ـ آه ... صحيح ... الدنيا ذكريات الماضى التى لا تزال تجترها حتى تتماوج الدموع فى عينيك ، والدنيا شعر وخيال والنيل الهادئ والأحلام ... لا يا آبى خيرى ... الدنيا تغيرت ... تغيرت كثيرا عن هذا ... أصبحت واقعا مجردا ... أصبحت قيمتك تحدد بما تملك . إن كان ما تملكه يحويه جيبك فأنت لا تساوى أكثر من حجم الجيب الذى يحوى مالك ، وإن كانت أملاكك فى الأرض فقيمتك على قدر الأرض أو العمارة ... وإن كانت فى البنك فعلى ...

وقاطعه خيرى :

ـ قدر رصيدى فى البنك ... أهذه هى الدنيا كما تراها ؟.. أترى أنها تغيرت فأصبحت كذلك ؟

ـ لا شك .

ـ بل إن هناك شكا ... بل إن هناك يقينا أنها ليست كذلك ... هذه غمرة حرب يا يسرى ثم تنجلى وتعود الدنيا مرة أخرى إلى معان أخرى وقيم غير هذه القيم .

ـ معان وقيم ؟... لم تعد الدنيا تحتمل هذه الخرافات يا آبى خيرى .

ـ بل هى الحقائق يا يسرى وأنت لا تدرى . الحياة كلها فى الصلات الدقيقة

غير المرئية التى تربط الإنسان إلى الإنسان ... فى الحب ، فى العطف ، فى الإحساس بالجمال ، فى الإشفاق على البائس ، فى إيثار الصديق على النفس ، فى هذه التيارات الهينة العنيفة التى تسرى وتعصف فى طوايا الإنسانية ، دائما وفى كل جيل وفى كل زمن ... العملات تتغير والمذاهب الاقتصادية تتبدل ، والعواطف ثابتة منذ عرفت حتى الآن لم تتغير ولم تتبدل ، وهى هى فى جميع أنحاء العالم ، وهى هى منذ الأزل وإلى الأبد ... الناس تضحك إذا فرحت وتبكى إذا حزنت ، وتحتقر الحقير وتعجب بالنبيل ، لا يختلف فى هذا قوم عن قوم ولا دين عن دين ... هذا الإجمال العالمى هو الذى يرسى للعواطف والمعانى الكريمة خلودها ، فهى خالدة باقية .

— أين هى اليوم ؟

— فى النفوس ... ظاهرة فى بعضها خافية فى البعض الآخر ولكنها موجودة عميقة راسخة فى الأغوار البعيدة من نفس الإنسانية ، وستظل هناك وإن طغت عليها موجة عاتية من سعار الحرب ومادية الحياة ، إلا أنها لا بد ستظهر

— ما أسعدك ، تعيش فى أحلامك سعيدا بها .

— وما يمنعك يا أخى أن تخلق لنفسك أحلامها وتعيش فيها ؟..

— الحياة ... واقع الحياة وأنا أبصره أكاد أمسك به ... الحياة ... الحقيقة

— ما أملك فى الحياة !!

— الغنى .

— عن أى طريق ؟

— عن أى طريق !. ألا ترجو الغنى أنت أيضا ؟

— بل أرجوه ... ولكن ليس عن أى طريق .

— فعن أى طريق تريده ؟

ــ أريد أن أجهد وأحصل على المال ... لا أحب هذا المال الذى يجىء سهلا ... لا أحب المال الذى يعجبك فى يد الجزار الذى اغتصبه غصبا من الإنسانية منتهزا فرصة الحرب والقتل والدمار ليغنى ويثرى ، ولا هذا الذى اغتصبه اللبان ، لا ... لا أحب هذا ولا أريده .

ــ طيب ، وما رأيك فى مال يأتيك عن زوجة غنية ؟

ووجم خيرى وطالت وجمته بعض الحين ، ثم قال :

ــ ألا تعرف رأيى ؟... ألم تعرفه ؟

ــ صحيح ... هذا نوع من المال لم يعجبك .

وألحت الذكريات على خيرى فظل صامتا ، حتى قال أخوه أخيرا :

ــ هيا بنا .

٢٦

نجح يسرى فى عامه هذا وحصل على شهادة البكالوريوس ، وقد استقبل البيت الصغير النبأ فى فرحة غامرة فهى أول شهادة عالية يحصل عليها بيت همام . وقد أحس خيرى أنه أدى واجبه ورأى فى شهادة أخيه ثمار سعيه ، وكانت نادية فرحة بأخيها فقد أصبحت ترى فى كل نجح تصيبه العائلة خطوة ترنو بها إلى الآمال المنضورة التى بدأ الشباب يهيئها لها .

ومرت أيام قليلة عن نجاح يسرى ، ثم كان يوم اجتمعت فيه الأسرة حول مائدة الغداء يديرون الحديث بينهم رهوا فيه تكاسل السعادة وهدوء الأمن ، ودق الجرس فشخصت إلى الباب الحاجة زينب ، وانفرج الباب عن عزت باشا

يحمل فى يديه هو لا يدى السائق لفافة ضخمة ، ودخل عزت باشا ومن ورائه إجلال هانم ، ثم محسن يتبعهم السائق يحمل لفافة واحدة ، وقد خلت يده الأخرى .

وقامت سميرة هانم من جلستها فى فرح وشكر دون أن تطغى الفرحة أو يطغى الشكر على كبرياء طبعت به حركاتها ومخارج ألفاظها ، وقالت :

ـــ أنت يا باشا تحمل اللفافة ... ألا تتركها للأسطى عبده يحملها عنك ؟

وقال عزت باشا فى فرح صادق عميق :

ـــ إن لم أحمل تورتة نجاح يسرى فماذا أحمل ؟.. جئنا نشارككم فى الغداء فهل لنا متسع ؟

وكان يسرى وخيرى ونادية قد خفوا إلى عمهم وأسرته وقد أدهشتهم المفاجأة ، والتقت فى قلوبهم بخفقة شكر أحسها يسرى نفسه الذى طالما كفر بالعواطف . كانت المائدة هى مائدة همام وهى مائدة تعودت أن تمتد ولا تضيق بوافد ، فامتدت ووسعت القادمين ووسعت ما حملوه معهم من هدايا ، وانتهى الطعام وقاموا إلى غرفة الجلوس ، وقال عزت باشا فى صفاء :

ـــ مبروك ثانية يا يسرى .

ـــ بارك الله فيك يا عمى .

ـــ أتظن أننى لم أعرف إلا اليوم ؟

ـــ أظن ذلك .

ـــ إنى أعرف بنجاحك فى نفس اليوم الذى عرفت فيه أنت ، ولكننى تأخرت عامدا متعمدا .

وضحكت سميرة هانم وهى تقول :

ـــ لماذا يا باشا كفى الله الشر ؟!

وقال الباشا :

ـــ لم أرد أن أقول مبروك واحدة ... لا بد من مبروكين .

فقال خيرى :

ـــ فأما واحدة فنعرف أمرها ، وأما الثانية ...

فقال عزت باشا :

ـــ فأما الثانية فلأننى حصلت ليسرى اليوم على وظيفة فى وزارة المالية ... ما رأيك يا أستاذ يسرى ؟

وأحس يسرى دفء العطف ينهل عليه من هذا الرجل الكبير ، وقال دون أن يفكر فيما يقول :

ـــ أشكرك يا عمى ... أشكرك غاية الشكر .

وقال عزت باشا :

ـــ هذه كلمة لا أحب أن أسمعها منكم يا يسرى يا ابنى ... أبوك كان أخى ... وقد حاولت أن أؤدى واجبى نحوه فمنعنى خيرى ... منعنى مرتين . وأعجبت به فى المرتين وغضبت منه فى المرتين ، فأنا مهما أفعل الآن لا أحس أننى أديت واجبى نحوكم ... أنتم أولادى ...

وشاعت فى الحجرة موجة صامتة ، فيها شكر وفيها حنان وفيها مودة جمعت قلوبا على معان كريمة عميقة . وأحس خيرى أنه لا يستطيع أن يقول شكرا ، وأحس يسرى أن آراءه ليست جميعها سديدة وأن من الناس من يستطيع أن يكون ذا قلب كبير ، وأحس أيضا أن شكره إن حاول أن يقدمه فسينزل فى غير مكانه ، وقد يقطع هذه الموجة الحنون التى أظلت القوم فتركوا نفوسهم تلتذها وتنغمر فى أسكوبها .

٢٧

أصبح الصباح على يسرى وليس فى ذهنه إلا خاطر واحد يشغل تفكيره ... لا بد أن يذهب إلى بيت عزت باشا ليشكره .. إذن فسأذهب ولا سبيل لى أن أنكص عن الذهاب ... إذن فسأذهب دون أن أصل إلى غناه أو إلى غنى قريب من غناه ... بل سأذهب لأقول شكرا ... لقد غمرنى الرجل بفضله وعطفه ... أذهب إذن لأدفع ضريبة الفقر والعجز ، فلو كنت غنيا ما احتجت إلى وظيفة ، ولو كنت ذا سلطان ما احتجت إلى سعيه . ولكننى بلا مال ولا سلطان فلا بد أن أشكر وإلا أصبحت جاحد فضل ، وإن كانت هذه الصفة لا تغضبنى إن هى اتصلت بى . ولكننى إن امتنعت عن الذهاب ضاربا برأى أمى وأخى عرض الأفق فإننى قد أغضب هذا الرجل ذا المال وذا السلطان ، فيقف عنى فضل رضاه ، ولا أستطيع أن ألجأ إليه بعد ذلك إن احتاجت حياتى الجديدة فى ظل الوظيفة أن ألجأ إليه . لا بد من الذهاب إذن ... ذهابا خاضعا ذليلا أترضى به وأشكر فضلا سابقا وأرجو به أفضالا جديدة ... فهاتى أيتها الحقيرة هاتى ... هاتى مصائبك ... ما كان أغنانى عن الذهاب لو كنت غنيا ... أكنت أحتاج إلى وساطة أو كنت أحتاج إلى تقديم الشكر أو كنت أحتاج إلى عون أحد ؟.. المال ... المال وحدة يستطيع أن يكون عونى ووساطتى وكل شىء لى . ولكن أين هو لعن الله قلته ... فلأذهب إذن . أى انتصار لأخى خيرى .. إن ذهابى سيجعله يوقن أن آراءه الحالمة صائبة وقد يجعله يظن أننى أصبحت حالما عاطفيا مثله ... سيحس النصر ولكنه سيسكت مصطنعا نبل الكرام عند هزيمة

أعدائهم ... أعرف أنه لن يذكرنى بهذا العهد الذى قطعته على نفسى ألا أذهب أو أصبح فى غنى عزت . أعرف أنه لن يقول لى ساخرا ما أقوله أنا لنفسى الآن « أأصبحت غنيا ؟! » لن يقول بلسانه ولكن سيفرح فى نفسه أنه انتصر على ... ما شأنى بفرحته ؟.. إنها الحياة أمامى ولا بد أن أقتحمها بكل سلاح ؛ وليفكر أخى بشأنى ما شاء له التفكير ، وليفرح بنصره ما حلا له الفرح ، فأنا أنا لم يغيرنى فضل عزت أو ظن أخى أنه انتصر ..

كم يتوق أخى أن يسألنى الآن فى ابتسامته الحالمة : « أرأيت كيف تصل العواطف ما بين الناس ؟ ورأيت كيف سعى لك عزت باشا دون أن ينتظر منك شكرا أو يطمع فى عوض عن جميله ؟ » .

الجواب عندى ولكنى لو قلته له لصرخ فى وجهى وثار بى ولعنتنى أمى ... الجواب عندى ... أى عوض يطمح فيه عزت باشا أكثر من أن نظل نهارنا وليلنا نسبح بفضله وكرم أخلاقه ووفائه لصديقه المرحوم ولأسرته من بعده ؟.. أى عوض أعظم من أن نظل عمرنا أمامه صنيعة يديه وبعضا من فضله وقطعة من كرمه ؟.. أى عوض يرجوه أكثر من أن يتشدق الناس من حوله وحولنا بما صنعه لنا وما قدمه إلينا ؟.. ذلتنا أمام كبره وضعفنا أمام فضله وانحناؤنا أمام عطفه عوض له أى عوض ... المال عنده فما البأس به أن يجمع إلى المال ثناء الناس لعطفه علينا . لقد نال العوض وافيا بل زائدا ولكن لا بد مع ذلك من الشكر غاية الشكر ومن الذلة غاية الذلة ، ولا بد على كل حال من الذهاب .

كانت هذه الأفكار تدور فى رأس يسرى وهو يرتدى ملابسه ، وما زالت به حتى ارتداها ، وما إن هم بمغادرة الحجرة حتى دق جرس الباب الخارجى ودخل إليه محسن ابن عمه عزت باشا ... مشرقا كعهده مطمئنا فرحا :

— صباح الخير يا أستاذ .

— أهلا محسن ، صباح الخير .

وأدار يسرى عينيه فى الحجرة خجلا ، ثم ما لبث أن قال :

— تعال إلى الصالون .

— أى صالون ؟ وهل أنا غريب ؟ .. أراك متأنقا ... إلى أين تذهب ؟

— والله كنت أنوى زيارتكم لأشكر عمى الباشا .

— يا أخى عيب . أتظن أن عمك الباشا ينتظر شكرك ؟.. على كل حال لقد أرسلنى لأدعوك اليوم للغداء معنا ... عندئذ اشكره ما طاب لك الشكر .

— الغداء !

— نعم ... هل أنت على موعد ؟

— أبدا فقط ...

— فقط ماذا ؟.. هيا بنا الآن فقد أمرنى أبى أن أترك عملى اليوم لأذهب معك إلى وزارة المالية وأقدمك إلى الوزير .

— الباشا هو الذى أمرك بهذا ؟

— نعم ، وأى غرابة فى ذلك ؟

— لا ... لا غرابة ، ولكن لم أظن أنه سيذكر هذا جميعه .

— هل أنت عبيط ؟.. ألا تعرف حبه لكم ؟.. هيا ... هيا بنا .

* * *

عاد يسرى ومحسن إلى بيت عزت باشا قبيل الغداء ، وقبل أن يصعدا إلى الطابق الأعلى سمع محسن نفير سيارة أبيه ، فانتظره هو ويسرى فى البهو ، وأقبل عليهما عزت باشا وأشرق وجهه حين رأى يسرى وسأله عما تم فى وزارة المالية ، فأنبأه أنه سيتسلم عمله بدءا من الغد . وحاول أن يشكر عمه ولكن الشكر توقف على شفتيه مترددا بين الانطلاق والجمود حتى غلبه الحياء آخر الأمر ،

فقالها شكرا مستخذية غير مقتنعة ولا منطلقة ، واكتفى الباشا بجملة عابرة « يا أخى عيب » . ثم أخذ بذراع يسرى وتقدم به إلى السلم يصعدانه معا وقد تبعهما محسن . وما إن بلغا أعلى السلم حتى نادى عزت باشا :

ـــ يا إجلال ... إجلال .

وجاء صوت إجلال :

ـــ نعم يا عزت .

ـــ تعالى ... تعالى رحبى بالبك .

وظهرت إجلال من باب إحدى الغرف وهى تقول :

ـــ بالبك ؟!

فقال الباشا :

ـــ نعم البك الذى سيتسلم عمله غدا فى وزارة المالية .

وقالت إجلال هانم وقد رأت يسرى :

ـــ أهلا ... أنت محق يا عزت ... إنه بك فعلا .

وسيطر الخجل على يسرى فلم يجد ما يقوله إلا حمرة علت وجهه وهمهمة تشبه الحديث وما هى بحديث ، أو تشبه الشكر وما هى بشكر ، إنما هى لعثمة تتحرك بها شفتاه ولا يبين عنها صوته .

كان يسرى قد غاب عن البيت سنوات ، ولولا أن عزت باشا كان يراه كلما زارهم هو فى منزلهم لتبين هذا الغياب . ولكن إجلال هانم كانت تبينت هذه القطيعة منه ثم لم تجعل لها فى نفسها شأنا مقدرة أنه شاب ذو أصدقاء قد يلهونه عن الزيارة كما تلهيه المذاكرة ، دون أن يجنح بها الذهن إلى هذه الأفكار الثائرة التى تمور فى ذهن يسرى .

ودخلوا جميعهم إلى حجرة الجلوس اليومى ، وما كاد الحديث يدور حتى

أقبلت إلى الحجرة فايزة ... إنها سنوات قلائل التى غابها يسرى ... أتستطيع هذه السنوات القلائل أن تفعل كل هذا ؟.. أصبحت ريانة العود ، استوى نبتها واخضل ، واكتملت أنوثتها وكادت تطغى ، لولا هذه النظرة الحزينة ماثلة فى عينيها الزرقاوين وفى وجهها الهادئ المستسلم ، لا تمنع عنه غشاوة الحزن تلك البسمة التى ارتسمت على وجهها حين رأت يسرى ... ابتسامة طفلة كانت تلقاه بها حين كان يجيء ليلاعبها ... هناك فى هذه الأيام التى لم يكن يفكر فيها فى ثرائهم وفقره ... هى نفسها تلك الابتسامة البريئة لا تعرف الشباب ولا الأنوثة ، لا ولا هى تستشعر السنوات مررن فجعلن من الطفلة فتاة ومن الطفل ثائرا . وخالط عينيها بعض العجب ، لقد أصبح الطفل العربيد الذى كان يضع ملابسه على نفسه لا يعنى بموضعها أو مظهرها والذى كان يصر على الطربوش أن يكون فوق رأسه ثم لا يحفل به مائلا أو معتدلا ، منهارا أو مستويا ، والذى كانت عيناه الغريرتان لا تومضان إلا إذا همست فى ذهنه لعبة خطرة من لعب الطفولة تستهدف تسلقا أو قفزا ، أو تستهدف معاكسة لخادم أو تقليدا لمشية كبير من كبار البيت ... أصبح هذا الطفل أنيق الملبس يختار رباط العنق ملائما للحلة ، وأصبح بلا طربوش إنما هو شعر كثيف يغطى رأسه وقد جرى فيه المشط فهو مستو مستقر المكان ، وأصبح وهو ذو عينين عميقتين فيهما ذكاء وفيهما وقار وإن بدا مصطنعا ، وأصبح هو ذو وجه بارحته آثار الطفولة فهو صلب محدد المعالم . ولكن الأيام لم تستطع أن تغير لون عينيه السوداوين ، ولا أن تغير تلك السمرة التى تشوب وجهه ، ولا أن تغير شفتيه الغليظتين بعض الشيء ، وإن كانت الأيام قد عدت على تلك البساطة التى كانت تتسم بها شفتاه فإذا هما اليوم شفتان فيهما عزم يؤيده ذلك البريق المصر الذى يشع من عينيه ... عينين تعرفان طريقهما وترودانه فى تشبث ، وإن يكن تشبثا حائرا قلقا .

قالت فايزة بعد هنيهة :

ـــ أهلا يسرى .

ووقف يسرى وفى وجهه بعض دهشة :

ـــ أهلا فايزة .

ولم تسمع فايزة ما يقول وإن كانت فهمته ، وقبل أن يعود الحديث إلى أفواههم أقبلت دولت تتبع فايزة ، فقد تعودت أن تلازمها وأن تكتب لها ما يراد لها أن تسمعه . ووقف يسرى يسلم على دولت لم تختلج يده ولا يدها ولا طرفت عينه ولا عينها ، وإنما هى تحية طبيعية لا تنم عما كان بينهما فى اللقاء القريب . ودار الحديث بعد ذلك شتى مناحيه ، ولاحظ يسرى ما تقوم به دولت من عون لفايزة ولكنه لم يظهر أنه لاحظ ، وما لبثت خاطرة أن هفت إلى ذهن يسرى ... ماذا لو تزوج فايزة ؟! إنها صماء ؟ وهذا هو طريقه الوحيد إلى الزواج بها .. أفكان يقبله عزت باشا لو لم تكن صماء .. وما البأس بالصمم ؟ أيريدها مراقبة فى الإذاعة أم يريدها زوجة ... ويريدها غنى وعزا ؟! ماذا عليه لو تزوجها وعاش فى هذا القصر خلت حياته من الفقر وفرغ إلى الغنى والبلهنية ؟ الوحيد الذى سيدرك الدوافع التى حدت به إلى هذا الزواج هو خيرى ... بل وقد تدركها أمه أيضا ، ولكن ماذا عليه إن أدركا ؟.. ومنذ متى أقام لرأيهما أو أدراكهما وزنا ؟.. إنها حياته وإنها فرصته وما كان ليتركها ... إن الأغنياء الذين ولدوا فقراء لم يصلوا إلى الغنى إلا بخطوة من هذه الخطوات الحاسمة فى حياتهم ... يقدمون على تجارة يظنها الناس بائرة فإذا هى رابحة ، فما لى لا أتخذ هذه الخطوة فى حياتى ؟. إن أحدا لم يطلب فايزة لأنها صماء ... جهل من الخطاب وحمق ... أتترك هذه الثروة جميعا لأن العروس صماء ... وكانت نظرته مثبتة على فايزة ودولت ، فما لبثت دولت أن أوحت إليه بحجة أخرى ... إنه سيتزوج

كلتيهما ... أما فايزة فعلى سنة الله ورسوله لأن الثروة لا يمكن أن تأتيه إلا على سنة الله ورسوله ، وأما دولت فعلى مألوف ما جرى بينهما ولن يحتاجا بعد ذلك إلى بيت أخيها ، فسيكون بيت فايزة مكانا لهما يلتقيان فيه ما شاء لهما اللقاء ، ويصخبان به أيضا فإنها لن تسمع ...

إن للصمم فوائد كبرى فهو سيتيح لى هذه الزيجة التى ما كنت لأطمع إليها أو أصبو ، وهو سيتيح لى أيضا أن أحادث دولت أمامها ما شئت من حديث ، ومن يدرى فقد يتيح لى بعد ذلك مكاسب أعظم وأضخم ... أما لو تحقق هذا الأمل ؟ إذن فوداعا للفقر ، ووداعا للحلة الواحدة والشقة الضيقة .

وقبل أن يدعوهم الخادم للغداء أقبلت وفية فى سمتها الرفيع الجميل وقد أمسكت فى يدها بابنها عزت ، ورحبت بيسرى ترحيبا بالغا وعاتبته على غيبته عتبا هينا لا مرارة فيه ، ولم تجلس وفية فقد دعى الجميع لتناول الغداء .

وعلى المائدة ظل يسرى يحملق فى فايزة ودولت ، ولم يلحظ الأب ولم تلحظ الأم ولم يلحظ محسن فقد شغلهم الحديث والطعام . وكانوا قد يئسوا أن ينظر أحد ــ أى أحد ــ إلى فايزة على أنها فتاة تصلح للزواج ، اثنتان لحظتا هذا الإنعام الصامت الذى ينظر به يسرى إلى فايزة ... دولت ووفية ... فأما دولت فقد ظنت أنه ينظر إليها ويصطنع النظر إلى فايزة حتى لا يفتضح أمره وفرحت بهذا الظن وارتاحت إليه مطمئنة واثقة .

وأما وفية فقد دهشت أول الأمر ثم تملكها الذعر . ماذا يريد هذا الفتى من أختى الصماء ؟! ماذا يريد ؟!

٢٨

انفرد يسرى بأخيه خيرى وقد كسا وجهه جد واهتمام :

ــ آبى خيرى ! إنى أريد أن أتزوج .

ودهش خيرى من هذا الحديث ، ثم ما لبثت موجة من الفرح أن طغت على محياه . إذن فقد أدى الأمانة التى حملها وكبر أخوه الأصغر وتقدم يطلب الزواج .

ــ ما أحب هذا إلى يا يسرى ... هل اخترت الزوجة أم هى فكرة عامة وتريد أن نبحث معا عمن تليق بك ؟

ــ بل اخترت .

ــ حقا !؟ من هى ؟

ــ فايزة .

وانتفض خيرى كالملسوع صائحا فى دهشة وخوف :

ــ من ؟!

ولم يحفل يسرى انتفاضة أخيه ولا دهشته وخوفه ، وإنما أعاد الاسم فى هدوء ثابت واثق :

ــ فايزة .

وقال خيرى كما لو كان قد أخطأ السمع :

ــ تقول فايزة يا يسرى ؟

ــ نعم يا آبى خيرى ، وما البأس ؟

وصمت خيرى بعض الحين بعد أن وثق أنه لم يخطئ السمع ... لقد كان يعرف أن يسرى يحب الغنى ولكنه لم يتصور أنه يحبه إلى هذا المدى . ولم يعد يفكر فى يسرى فهو يعلم أنه يستطيع أن يفعل ما يشاء ، ولكنه أصبح يفكر فى فايزة وفى وفية وفى عمه عزت ... فى هذا البيت الذى لم يصيبوا منه إلا الخير كل الخير . وقد ملأت الخشية قلبه أن يرد لهم أخوه خيرهم جحودا ونكرانا ... فهو يعلم أخاه . صمت مفكرا وأطال التفكير حتى قال أخوه :

— هيه ... ما رأيك ؟

وقال خيرى يائسا :

— أيفيدك رأيى كثيرا ؟

— إنك أخى الأكبر وأنت من ربيتنى .

— أتأخذ برأيى إذا قلته ؟

— هذا يتوقف على رأيك .

— إذن فلا قيمة له .

— عفوا أنا لم أقل .

— بل قلت ... أنا أعرف أنك لن تعمل إلا برأى نفسك ، أما إن شئت رأيى فأنا غير موافق .

— ولماذا ؟

— أنت تعرف لماذا

— لا ... لا أعرف .

— لأن فضل عزت باشا كبير علينا ، ولا يجوز لك أن ترد فضله بأن تطمع فى ثروة ابنته ، فإنك لا تريدها إلا لثروتها . وحين تصبح هذه الثروة بين يديك ستذيقها ألوان العذاب وإنى أراك ظالما ؟

ــ أهو ظلم أن أتقدم لفتاة لن يتزوجها أحد وأتزوجها ؟

ــ إنك تتزوج مال أبيها وستظلمها وهى مسكينة عاجزة لا تستحق ما تدبره لها .

ــ ولماذا تظن أنى أدبر لها شيئا ؟

ــ هل تحبها يا يسرى ؟

ــ يا سلام يا آبى خيرى ؟ أتظن أن الزواج لا يقوم إلا على الحب ؟

ــ لا ولكنى أعلم أنه لا يقوم على الطمع .

ــ ألست أولى من الغريب ؟

ــ بل لا ... أنت تعرف أن أحدا لن يطلب فايزة ، وإذا فكر أحد المحبين للغنى من أمثالك فى التقدم لها ، فإن ذكاء أبيها سيحول دون هذا الزواج لأنه يعلم أن من يتقدم لها إنما يطمع فى مالها لا غير .

ــ أتراه يظن بى هذا الظن ؟

ــ لا ... فإنك ابن همام صديقه ، ولا يمكن أن يفكر فيك على أنك طامع فى مال ابنته .

ــ فمالك أنت تفكر هذا التفكير إذن ؟

ــ لأنى أعرفك يا يسرى ... لأنى أعرفك ... لقد توهمت لفترة أنك تكثر من الذهاب إلى بيتهم لتعبر عن شكرك ، وإذا بى مخطئ ، وإذا أنت لم تتغير . المال بالنسبة إليك كقطب البوصلة لا تتجه إلا إليه .

ــ وماذا يضيرك فى هذا ؟

ــ أخاف أن نسىء إلى هذا البيت .

ــ لا تخف .

ــ أتنتظر أن يزول خوفى لمجرد قولك لا تخف ؟.. لا .. لا أستطيع القبول .

ــ إذن فلن تخطبها لى .

ــ أنا ... موتى أهون .

ــ إذن فلا تغضب أن أطلبها أنا .

ــ أنت حر .

ــ لا أظن مثاليتك ستجعلك تذهب إلى عزت باشا تخبره أنى طامع فى مال ابنته .

ــ لا أستطيع فأنت أخى ، ثم إنى غير واثق أنك ستسيء إليها ، فليس لى أن أسبق المستقبل .

ــ هذا كل ما أطلبه منك .

ــ إنه ليس هينا ما تطلب ... كان الأجدر بى أن أنبه الرجل ... ولكن ماذا أقول له ... ماذا أقول ؟

٢٩

اعتنى يسرى بهندامه أقصى ما تكون العناية وكرر النظر إلى المرآة ، وأطال التحديق فى كل مرة حتى اطمأن أن ليس بعد عنايته زيادة لمستزيد ، وترك غرفته إلى حجرة أمه فنظرت إليه مليا ثم قالت :

— إلى أين ؟

— إلى بيت عمى عزت باشا .

— أنويت تفاتحه اليوم ؟

— نعم ما دمت مصممة ألا تفاتحى أنت إجلال هانم .

— أنا والله يا ابنى أخجل أن أفعل .

— هل فى الزواج ما يخجل !؟

— لو لم أكن أعرف حبك للمال وطمعك فى العروس ما خجلت .

— هل معنى ذلك أن تقاطعى الزيجة بأكملها ؟

— بالطبع لا .

— إذن فماذا ستفعلين ؟

— إذا قبلوا فسأذهب وأقدم الشبكة وأفعل كما تفعل أم تفرح بأول زواج يتم فى بيتها ، وسأظل بعد ذلك أدعو الله أن يهديك ويسترك ، ويكرمنا مع هذه العائلة التى لم نر منها إلا كل خير .

— إن شاء الله كل خير ... أمصممة أنت على عدم الذهاب ؟

— طبعا .

— إذن أستأذن أنا .

— ربنا يوفقك .

وبهذا الدعاء الهين الفاتر ترك يسرى أمه واستقبل الطريق يقطعه فى عزم وإصرار ، حتى إذا بلغ بيت عزت باشا وجد حجرة مكتبه منيرة ووجده بها منفردا يقرأ ، فحياه فى أدب وجلس إلى كرسى مقابل له ، وعاد الباشا إلى القراءة لحظات ثم ترك ما بيده وقال ليسرى :

— لعلك مرتاح فى عملك يا يسرى .

— مرتاح يا عمى كثر خيرك .

— إن أردت أى شىء أنت تعلم طبعا أننى دائما مستعد لأدائه .

— أعلم يا عمى .

وانقطع الحديث فترة ، وران الصمت على الحجرة ثم قال يسرى فى بعض لعثمة :

— يا عمى إن لى عندك أمنية .

— قلها .

— لقد أصبحت بفضلك موظفا وأنا أحمل شهادة عالية ، وأملى كبير أن أرتفع فى الوظيفة أو أشق طريقى فى الشركات إن سنحت الفرصة .

— هذه مقدمة طويلة ... خير .

— عمى إننى أريد ...

وانقطع السيل المتدفق كما لو كان آلة أصابها العطب فجأة ، وتلعثم يسرى ووجد أن الأمر ليس باليسر الذى ظن .

وقال عزت باشا وقد خيل له أنه يعرف ما يريد :

— يسرى قل ماذا تريد ؟

وعلت وجه يسرى حمرة وازداد اسانه لعثمة ووقف به الحديث ، فقد وقف عقله عن العمل أو كاد وراح يردد فى خجل :

ـــ أريد ... أريد .

وقال عزت باشا :

ـــ شكلك يدل على أنك تريد الزواج .

وكأنما وجد يسرى ضالته فقال فى سرعة وفى صوت خفيض :

ـــ نعم .

واستطرد عزت باشا :

ـــ وتريد سلفة ؟

وقال يسرى فى حزم :

ـــ لا .

ـــ من العروس ؟

وعادت اللعثمة إلى يسرى مرة أخرى :

ـــ إنها ... إنها ...

وقال عزت باشا وقد كاد يضيق :

ـــ يا أخى قل ... مم تخجل ؟

. . كانت هذه الجملة سريعة المفعول ، فقد وجد يسرى نفسه يقول فى سرعة :

ـــ أريد فايزة بنت معاليك .

ووجم عزت باشا فما كان يظن أنه سيسمع أحدا يخطب فايزة أبدا ، ولم يذهب به الظن أن هذه المقدمة الطويلة التى ساقها يسرى كانت تمهيدا لهذه النهاية ، واختلطت مشاعره بين فرح وقبول ، وبين خوف وإشفاق ، وبين حذر

وريبة ، ولم يجد شيئا آخر يقوله ليسرى إلا :

ــ يا ابنى أنا لم يخطر لى هذا التفكير على بال . وعلى كل حال فايزة أختك ، ولكن أتمانع أن تترك لى بعض الوقت لأسألها وأسأل أمها ؟

وقال يسرى :

ــ أنا تحت أمرك يا عمى . متى أجىء ؟

ــ وهل تجىء إلى بمواعيد ؟.. تعال فى أى وقت شئت ، وسأجيبك حالا .

ــ أشكرك يا عمى ... أشكرك .

وقام يسرى واستأذن وانصرف ، لم يخالجه الشك أن عمه سيقبل .

ولماذا يرفض وأين يجد مثلى لمثلها ؟.. قال أختك ... أختى لأنها صماء ... أتراها كانت تظل أختى لو لم يكن بها ما بها ؟.. أختى ... مفهوم يا معالى الباشا مفهوم . أتريد فترة للتفكير ؟.. لك ما تشاء من فترات فإنك ستقبل يا معالى الباشا ، سيقول عنك الناس وخاصة أقاربنا إنك رجل عظيم رعيت القرابة والصداقة القديمة وأنت فى نفس الوقت ستزوج ابنتك التى لم تطمع أن تزوجها فى يوم من الأيام فتجمع إلى زواج ابنتك ثناء الناس . فلك من فترات الزمن ما تشاء ولكنى أعلم أنك ستقبل .

* * *

مكث عزت باشا فى مكانه يفكر فى هذا الأمر الجديد ... أتراه يحبها أم تراه يطمع فى مالها ؟ أم تراه يطمع فى مكانتى أن تظله ؟ أم تراه يريد الزواج مجرد الزواج فوجد فى فايزة المال والسلطان وتغاضى عما بها من مرض ؟.. ولكن كيف ؟.. إنها لا تسمع مطلقا ... لعله يريد أن يشكرنى على تعيينى له ، ولعله لم يجد ما يعبر به عن شكره إلا أن ينقذ ابنتى أن تكون عانسا ؟ أما هذا فلا ... إننى أقبل أن يتزوجها يسرى بن همام حتى وإن كان طامعا فى مالها ولكننى لا أقبل أن

يتزوجها أحد على الإطلاق لمجرد أنه يريد أن يقدم شكره لى ... لا أرضى لابنتى هذا المكان ، ولا أرضى ليسرى أيضا أن يقدم حياته كلها لى لمجرد شعوره بالجميل نحوى ... أما هذا فلا أقبله ...

وقام عزت باشا متثاقلا يقلب الآراء جميعها فى ذهنه حتى بلغ إجلال هانم وجلس إليها مفكرا ما يزال ، وتركته هى لصمته بعض الحين ثم قالت :

ــ مالك يا عزت ؟

فقال دون ريث تفكير ، فقد كان يريد أن يقول دون سؤال :

ــ يسرى خطب فايزة .

وتمعنت إجلال هانم الخبر هنيهة ، ثم أشرق وجهها بالفرح وقالت :

ــ صحيح !

ــ ما رأيك ؟

ــ وهل نجد لها خيرا منه ؟

ــ ألا تخشين شيئا ؟

ــ أن يكون طامعا فى مالها ؟!

ــ لا ... ليس هذا ما أخشاه .

ــ إذن ؟!

ــ ألا تخشين أن يكون يسرى يحاول أن يضحى بنفسه ليشكرنا ؟.

ــ يا أخى ما هذا الكلام ؟.. إنك لم تقدم له ما يجعله يضحى بنفسه من أجلك . إنك عينته وليست هذه بالخدمة التى يضحى من أجلها شاب فى سن يسرى بمستقبله كله ... لو لم يكن يريدها ما طلبها ... دع عنك هذا التفكير .

ــ لعلك على حق ولكننى على كل حال سأسأله .

ــ أنت حر ، ولكن ألا تسأل فايزة ؟

— بالطبع ... ولكن سأنتظر حتى أتأكد من رغبته فإننى أخشى ألا يكون واثقا من شعوره أو يكون مندفعا فى تيار التضحية فتصدم البنت صدمة عنيفة .

— ما ترى .

* * *

جاء يسرى إلى البيت بعد يومين ، وانفرد به عزت باشا وبدأه قائلا :

— يسرى هل أنت واثق أنك تريد فايزة ؟

وقال يسرى فى جرأة ، فقد أصبح الأمر ميسورا بعد الحديث الأول :

— بالطبع يا عمى ... إنها أمنيتى .

— يا ابنى أنا لم أفعل لك شيئا يذكر . وإنى سعيت من أجلك لتعين أمر لا يستحق منك أن تبذل أى تضحية ، فإن كان طلبك هذا مبعثه شكران أو إحساس بالمعروف فأعف بنتى العاجزة أن تكون وسيلة لشكرانك ، وأعف نفسك من مستقبل طويل فى ظل زواج لا يقوم على أسس سليمة .

وأحس يسرى وخزة ألم أن يظن به عمه هذه المثالية التى لم تخطر فى ذهنه على بال ، ولكن سرعان ما استجمع نفسه وهو يقول :

— إنك يا عمى قد قدمت لنا أفضالا كثيرة ، وقد رعيتنا خير رعاية بعد وفاة المرحوم والدنا ، وقد عينتنى وعينت أخى خيرى من قبل ... لقد بذلت لنا الكثير ولكن زواجى من فايزة أعتبره أنا إذا سمحت به أكبر فضل أضفيته علينا .

— أنت واثق من شعورك هذا ؟

وقال يسرى فى حزم :

— كل الثقة يا عمى .

— إذن فأنا موافق على الزواج ومرحب به ، وكذلك إجلال ، ولكن لا بد أن أسأل فايزة ... وقريبا ستسمع الجواب .

* * *

جلس عزت باشا وإجلال هانم فى حجرة النوم وطلبا فايزة أن تحضر إليهما . وما إن استقر بها مجلسها حتى لاحظت هذه الإشراقة على وجه أمها ، وتلك الابتسامة المترددة بين الخوف والفرح على فم أبيها ، فانتظرت حتى ترى ما يخفيان . وقدم إليها أبوها ورقة مكتوبا عليها « يسرى يريد أن يخطبك » . وامتقع وجهها فى اندهاشة المبدوه الذى لا يتوقع ، وسارع لسانها يقول فى عجب :

— أنا ؟!

وهز أبوها رأسه وهزت أمها رأسها أن نعم . وقالت الأم « نعم » . وفهمت فايزة الإيماءة واستنتجت حركة الشفاه استنتاجا ، ثم سكتت وما لبثت الدموع أن أشرقت من عينيها وهى تغالبها فى حيرة وذهول وقد انعدمت مشاعرها لا تدرى أخير ذلك الذى يعرض عليها أم هو شر ، فهى لم تقرر من أمر نفسها شيئا منذ أدركت الأشياء ، وها هى ذى تواجه هذا الأمر ... أهم ما يؤخذ فيه رأى فتاة ... إنها حياتها ... فكرت بعض الحين ثم قالت :

— وأترككما ؟!

وأشار أبوها أن لا ، وقالت الأم « لا » فقالت فايزة :

— ما رأيكما ؟

وكتب لها أبوها أنهما موافقان ، فقالت :

— لماذا يخطبنى ؟!

وكتب لها أبوها « ابن عمك ويريدك ، ما الغرابة فى هذا ؟ » .

وقالت :

— إننى صماء ... كان يستطيع أن يجد خيرًا منى .

وقالت الأم « ليس فى العالم خير منك » فلم تسمع وكتب أبوها « إنه يريدك ويلح » .

وقالت :

— ألا تخشى أن يكون وراء رغبته شيء آخر ؟

وكتب لها أبوها « لقد تأكدت من حقيقة شعوره » .

فأطرقت هنية وفاض دمعها وهى تقول :

— الأمر أمركما ، افعلا ما تشاءان .

وخرجت فايزة من الحجرة ولجأت إلى حجرتها ولحقت بها دولت ، فطلبت إليها أن تتركها بعض الحين . وما إن غادرت دولت الحجرة حتى انخرطت فايزة فى بكاء عنيف ... أهكذا يا يسرى ؟.. أتطمع فى مالى وتنتهز فرصة مرضى حتى لا أستطيع الرفض ؟.. كيف أرفض ؟ ماذا أقول لأبى وماذا أقول لأمى ؟.. إن الفتاة حين ترفض تكون واثقة من نفسها عالمة أن الكثيرين سيتقدمون إذا هى لم تتزوج ممن ترفض ، أما أنا فماذا أنتظر ؟ ومن يتقدم إلى إذا لم أقبل يسرى ؟ ولكن أيقبل هو هذا ؟.. أينتهز مرضى ليتزوج منى ؟.. كيف أقتل هذه الفرحة النشوانة فى نفس أبى ؟ وكيف أقسو عليه وأقضى على هذا الأمل الذى ظل زمنا طويلا يراوحه ويغاديه ضعيفا يائسا حتى أصبح حقيقة ؟ كيف أقضى على هذا الأمل بعد أن تجسم أمامه واكتمل فى شخص يسرى ؟.. كيف أستطيع الرفض ؟.. هى حياتى البائسة . آمالى آمال الآخرين . وقدرى يخطه أبى وتخطه أمى والغريب عن الدار ولا يد لى فيه ... بماذا أقرر لنفسى مصيرها ؟ بأذنى التى تعزلنى عن الناس ، وتضعنى فى عالمى وحدى بلا شريك ولا أنيس ؟ بأى حق أقول لا أو نعم ؟ إنما أنا ما يريدان لى أكون لا أملك من أمر نفسى أمرا ... فليفعلا ما يشاءان ، ولبس لهما منى إلا أن أطرق كما أطرقت وأسلم إليهما أمرى كما أسلمت .

واشتد بكاؤها فدخلت إليها دولت وفى عينيها من السؤال ما يغنى عن السؤال ، وجلست دولت ولم يطل بها الجلوس بل قالت فايزة تجيب السؤال

المطل من عينيها :

— يسرى يريد أن يخطبنى ؟

ودقت دولت صدرها وهى تقول :

— من ؟

ولم تسمع فايزة وإنما ارتسمت على وجهها ابتسامة ساخرة وهى تقول :

— يطلبنى ويلح فى طلبى .

وازدادت نبرات صوتها سخرية وهى تقول :

— وأين يجد خيرا منى ؟... أذنان تسمعان الهمس وصحة مكتملة ... إنه يريدنى لذاتى لا لمالى ... أليس كذلك ؟.. قولى إنه كذلك .

ولم تقل دولت شيئا إلا :

— ابن الكلب السافل .

ولم تسمع فايزة شيئا ، بل استمرت فى ثورتها المريرة الساخرة :

— بنت عمه ، وماله لا يخطب بنت عمه ؟.. وماذا تستطيع أن تقول بنت عمه ؟.. هل عندها خطاب غيره ؟! إنه الوحيد الذى وازن بين مالها وصممها فوجد المال أعظم فخطبها ... أتستطيع أن ترفض ؟.. وماذا تقول إن رفضت ؟.. إنها ما زالت صغيرة ، ومن سيخطبها حين تصبح كبيرة ؟.. إنها لا تريد الزواج ، وماذا تصنع الفتيات إلا الزواج .. إن الوقت متسع أمامها ، ومن سيسأل عنها فى هذا الوقت المتسع ؟.. لا بد أن تقبل بنت عمه ... وإن كانت تعرف أنه يخطب مال أبيها ... نعم وإن كانت تعرف ... ولتقم الأفراح والليالى الملاح ، فسيتزوج ابن العم من ابنة عمه الصماء ... فوافرحتاه .

وارتمت فايزة على السرير باكية فى نشيج عال أليم حتى لم تستطع دولت إلا أن تنسى ما أصابها من هذا الخبر ، فراحت تربت فايزة فى إعزاز وحب وإشفاق ،



وأحست حينذاك أنهما كلتيهما طعينتان بسكين واحدة ... هى يسرى .

ودق جرس التليفون وظل يدق فترة حتى وافاه أحد الخدم ، ثم لم تسمع دولت الخادم يتكلم وإنما سمعته يضع السماعة مكانها ، فعرفت أن يسرى يطلبها ، فعزمت ألا تجيبه فى المرة التالية ، ودق جرس التليفون ثانية وترددت وسارع الخادم ، فكان حظه من الحديث كحظه فى المرة الأولى ، ودق الجرس ثالثة فقصدت هى إليه وسمعت يسرى يقول ردا على صوتها :

— غدا فى الساعة السادسة .

ووضعت السماعة وعادت إلى فايزة واحتوتها بين ذراعيها ، وتفجرت دموعهما معا .

٣٠

أكنت أطمع فى الزواج به !؟... إذن فمالى قد غضبت هذا الغضب ؟. شاب متعلم موظف ابن ناس ... أكنت فكرت حين أسلمت نفسى له أنه سيتزوجنى ... لعل هذا التفكير راودنى عن أخيه ، أما عنه هو فلم أكن أفكر فى الزواج به على الإطلاق . لماذا لم أفكر ؟ لست أدرى ... فما هذا الغضب الذى تولانى ؟.. ألعلى غاضبة لأنه لم ينبئنى ... أم لعلى غاضبة لأنه سيكون فى أحضان غيرى ... بعلمى ... أم لعلى مشفقة على فايزة ... أم ترانى غاضبة وإنما كنت مأخوذة بالنبأ حين سمعته ... ماذا أقول له حين ألقاه ؟.. وماذا تراه يقول هو ؟.. إننى لا أستطيع عنه غناء ... إنه الرجل الوحيد الذى عرفته فكيف أغنى عنه ؟.. سأقبل عذره ... أى عذر يلقيه ...

ولكن أترى ألقاه كما عودته فى بهجة أم أصطنع الغضب ؟. لأترك هذا إلى ما تمليه على نفسى عند اللقاء . وإلام يدوم بى هذا الحال ؟.. ألا من نهاية ؟.. لقد ضمنت الآن على أية حال أننى سألازم فايزة حتى بعد زواجها ، وأين أجد زوجا مثل يسرى ، ولكن ماذا بعد ؟.. إننى أكبر مع الأيام وأخشاها ... إنها رفيق غادر هذه الأيام فماذا تخبىء لى ؟ لو أن أخى بذل بعض الاهتمام بى ، ولكن كيف ؟ لقد قطعت رحلته ما كان بيننا من صلة هينة وازداد التباعد بيننا حين استقل ببيته وتركنى فى هذا البيت ... أما كنت خليقة أن ألقى واحدا من زملائه فى بيته فيطلبنى ؟ ولكن أأستطيع اليوم الوصول إلى زواج كهذا ... وكيف ؟ ألا يجدر بى أن أبحث هذا الأمر مع يسرى ؟. نعم ... لا بد من ذلك ... مبلغ يسير من المال أعود فتاة كما كنت فإنى أعرف الحاجة توحة ، وهى ما زالت تقوم بهذه العمليات ... سيستطيع بعد زواجه أن يدبر لى ما أريد ... لا شك أنه سيستطيع .

بلغت دولت بيت أخيها وفتح لها عم إدريس الباب ، وما هى إلا هنيهة حتى كان عم إدريس فى طريقه إلى مقهاه وفى جيبه خمسة وعشرون قرشا .

ولم يتأخر يسرى ووجد الباب مفتوحا ، فدخل ووجدها جالسة فى البهو على الأريكة التى شهدت أول الصلة بينهما . وكانت لا تزال تدير فى رأسها هذه الأفكار عن مستقبلها وماضيها وقد غشيت وجهها سحابة من الحزن ، لا قاها هو بابتسامة عريضة :

ــ لا ... لا ... لا أطيق هذا الوجوم ... إنه لا يتفق وهذا الجمال .

ولم تستقبل الدعابة إلا بنظرة غير مبالية وهى تقول :

ــ أكنت تنتظر الزغاريد ؟

وكان مدركا ما بها فقال :

— أنت غاضبة ؟

— ذكى ... عرفتها وحدك .

— مالك ؟

— ولد ... ألا تعرف مالى ؟

— لا والله .

— يسرى أترانى ساذجة ؟

— العفو ، من قال ذا ؟

— أنت ... ألا تعرف مالى ؟

— افهمينى .

— يسرى ... حط مخك فى رأسك ... ألا تعرف إلى من تتكلم ؟

— ألأننى خطبت فايزة ؟

— هأنتذا تعرف .

فقال يسرى وابتسامة تعلو شفتيه :

— وماذا يغضبك فى هذا ؟

— ألا تعرف ؟.. ألا تعرف ماذا يغضبنى فى هذا ؟

— اسمعى يا عبيطة ... إننى حين أتزوج فايزة سأكون معك دائما .

— ماذا كسبت أنا ؟

— غدا تعرفين ماذا كسبت ... هل أنت مجنونة ... ألا تدرين الفوائد التى نجنيها من هذا الزواج ؟.. لقد طلبتك اليوم لتقنعيها بالزواج إن كانت غير راغبة .

— وأنا يا يسرى ؟

— أنت فى عينى ... ألا تعرفين مكانتك عندى ؟

فقالت ساخرة :

— أعرفها تماما .

— لا والله ، أنت لا تعرفين شيئا ... غدا تعرفين ... المهم الآن أن تقنعيها .

وصمتت دولت . لم تنبئه أن فايزة قد قبلت الزواج مرغمة ، فقد أرادت أن تنتهز الفرصة لتظهر له أنها صاحبة الفضل فى هذا الزواج عسى أن ينفعها هذا فى أيامها القادمة . ولم يتركها يسرى لصمتها بل قال :

— هيه ! ماذا قلت ؟

— وماذا عساى أقول ؟

— هل سأل الباشا فايزة عن رأيها فى الزواج ؟

— نعم .

— وماذا قالت :

— لم تقل شيئا .

— كيف ؟

— تركته وخرجت إلى حجرتها ، وقد ظلت تبكى طول يومها أمس .

— أهى التى أخبرتك بالخطبة ، أم كنت معها حين أخبرها أبوها ؟

— هى التى أخبرتنى .

— ولماذا تبكى ؟

— ألا تعرف ؟!

— ألا تريد الزواج ؟

— إنها تعتقد أنك تريدها لمالها .

— وماذا قلت لها ؟

— وماذا كنت تريدنى أن أقول ؟!

— ماذا قلت ؟

ــ أنا أعرف أنها ساذجة وضعيفة .

ــ إذن فقد وافقت على زواجها بى .

ــ أنت والله لا تستأهل هذا العطف منى .

ــ أبقاك الله لى .

ــ أبعد يدك .

ــ أنت أعظم إنسانة فى العالم ... غدا ترين كيف أعوضك عن هذا .

ــ كلام !!

ــ غدا ترين .

٣١

وأقيم الفرح ... فرحا متألقا ، وجلست فايزة إلى جانب يسرى يحف بهما الورد أكداسا ، وكان يسرى فرحا غاية الفرح ، وكانت فايزة تعسة يملأ الخوف قلبها رعبا تكاد تثق أن زوجها هذا لم يتزوجها لذاتها ، وإنما لمالها ، ومع ذلك لا يزال وامض من الأمل يراوحها ويغاديها تذوده عن نفسها باليأس القاتل المرير . حتى إذا بارحها هذا الوميض المتهافت وخلت إلى اليأس وحده خالصا عادت تسترجع وامض الأمل تجد فيه راحة ، ثم ما تلبث أن تجد فى الشك عذابا يعدل عذاب اليأس أو يزيد ، فتظل تتقلب بين نيران الأمل ولواذع اليأس يملأُ الرعب قلبها على الحالين ، ويسرى بجوارها ينظر إلى الراقصة نظرات جريئة وينظر إلى المستقبل نظرات مقتحمة ، يطمئن نفسه أنه يبلغ من الحياة ما يريد أن يبلغ . وتلتقى عيناه بعينى أمه فيجد فيهما الخوف فيشيح عنها إلى الدكتور حامد ،

فيجده فرحا مطمئنا مبتسما مقبلا ، وإذا التقت عيناه بعينى دولت وجد فيهما تساؤلا ووجد فى شفتيها ابتسامة المتفضل إلى المفضول ، وابتسامة حامل السر يبديها لمن يحمل سره .

وبحث يسرى عن أخيه خيرى فلم يجده ، فخطر فى ذهنه أن يبحث عن وفية فلم يجدها أيضا ، فقال فى نفسه « لعلهما التقيا ولعلهما الآن يتذاكران الهوى القديم ، ثم يبتسم ساخرا من أفكار أخيه الخيالية ويعود إلى الراقصة ينعم النظر فى جسمها اللدن يتأود أمامه فيرى فيها فرحة الدنيا التى يقبل عليها .

ولم تكن وفية ولا كان خيرى فى البهو الذى أقيم فيه الفرح ، فقد انتهزت وفية خلسة من الناس وأومأت إلى خيرى أن يتبعها فتبعها ، وصعدت إلى الطابق الأعلى وهو وراءها . حتى إذا اطمأنت إلى نجوة من العيون جلست وجلس وقالت وفى عينيها خوف ولهفة :

— خيرى ... لقد أردت أن أراك منذ وقت طويل .

وقال خيرى فى هدوء :

— نعم أعرف .

— لماذا لم تأت ؟

— لأننى أعرف ما تريديننى فيه .

— هل أخوك مثلك ؟

— أتريه كذلك ؟

— بل أرى فيه صنفا من الناس يختلف عنك كل الاختلاف .

— إذن فقد أدركت .

— لا شك .

— أنا لا يد لى فى الأمر .

— وهذا أدهى .

— وماذا تريدينني أن أفعل ؟

— أما كان جديرا بك أن تحذر أبى ؟

وأطرق خيرى مليا وقد ران الصمت على الحجرة فقالت :

— لماذا لا تجيب ؟

— يا وفية قدرى ظرفى ... ماذا ترين كنت أقول ؟ وكيف أعتمد على مجرد الاستنتاج لأطلب إليه أن يرفض يسرى ؟... لعله ... لعله — من يدرى — يدرك الفضل الذى أسبغه عليه أبوك فيحسن معاملتها ؟

— أتضيع أختى من أجل لعله ؟... لعله ... أنت تعرفه ... إن شخصا يتقدم ليتزوج من فايزة الصماء ... ماذا أقول ماذا أقول ؟... لماذا يا خيرى سكت ... لماذا سكت ؟

— كان الأمر أقوى منى يا وفية ... إنه أخى .

— أليست فايزة أختك ؟... وهى عاجزة يا خيرى ... ماذا سيصنع بها ؟

— نسأل الله اللطف .

— إن اقتصر الأمر على المال هان ، ولكن أخشى أن يعذبها .

— لا تخشى .

— أهو طيب ؟.. أهو شفوق ؟.. ألا يؤذيها ؟

— إنه يطمع أن يساعده أبوك فلا تخشى .

— وهل سيعيش لها أبى دائما ؟

— دعينا نؤمل الخير فى حياته على الأقل ، وبعد ذلك يتولاها الذى لا تغفل له عين .

ـــ كيف ؟

ـــ قد ينجبان ... وقد يحب أولاده فيكرمها من أجلهم .

ـــ أكثر من زيارتنا يا خيرى .

ـــ ألا أحرجك بكثرة الزيارة ؟.. ألا يعرف جميل ما كان بيننا ؟

ـــ إنه يعرف ، ولكن السنين مضت . وهو يقدرك ولا يخشى جانبك ، فزرنا لتطمئن على فايزة . إنها أختك وهى وديعة بين يديك ... إن فايزة لن تخبر أحدا منا بعذابها إذا تعذبت ، ولكنها قد تخبرك أنت ... فزرها وأكثر ولا تخف أن تحرجنى ... لقد سكتّ فتزوجها فلا تتركها فى هذه الأمواج من الطمع التى ألقيتها إليها .

ـــ أمرك يا وفية ...

ـــ أنت أخونا يا خيرى ... أنت دائما أخونا .

ـــ أعرف يا وفية وسأظل دائما ... دائما تحت أمرك .

وأمسكت وفية بيده فى كلتا يديها وشدت عليها فى إعزاز وإكبار وأمل :

ـــ لا أمل لى إلا أنت يا خيرى .

ـــ ربنا معنا ... إن شاء الله خير .

ـــ أرجوك يا خيرى ... إنها أختك .

ـــ هى أختك ... إن لم يكن من أجلها وأجل أبيها فمن أجلك أنت ... فأنت دائما عندى وفية ... وفية التى ...

وانهمرت الدموع من عينيه وعينيها ، ثم هوى على يديها فقبلهما فى حب وإعزاز .

* * *

انتهى الفرح وصعد العروسان إلى الحجرة التى خصصت لهما ،

وجلست فايزة مطرقة وجلس يسرى بجانبها ، وطال بينهما الصمت فمد يسرى يده وربت كتف زوجته وحاول أن يحتويها فى ذراعيه ، فرفعت إليه عينين مخضلتين بالدموع وقالت :

— لماذا تزوجتنى ؟

كان السؤال نافذا مباشرا لا لف فيه ولا دوران ... نوع من الكلام لم يتوقعه يسرى وحار فى الإجابة ، وحاول أن يتكلم ليجيب ، ثم تذكر أنها لن تسمع فحمد الصمم مرة أخرى فإن الكتابة ستتيح له وقتا للتفكير . أمسك القلم وكتب على الورق الذى يظل دائما قريبا من فايزة فهو أذناها ... كتب « لأنى أحبك » ونظرت إليه فى ألم ويأس وقالت :

— إننى صماء ... صماء ... ألا تعرف ؟

وكتب يسرى : « أعرف ولكن ما أهمية هذا ؟ » .

— أتشفق على ؟!

وكتب « إن بنت عزت باشا الأزميرلى الوزير الغنى لا تستحق الإشفاق » .

فقالت فى ألم :

— أتتزوج عزت باشا الأزميرلى والوزارة والغنى ؟

فكتب : « بل أتزوج فايزة ... فايزة وحدها ... بلا إشفاق وبلا تفكير فى وزارة أبيها أو غناه » .

ونظرت إليه فايزة مليا وقد رقأت دموعها وأطالت التحديق ثم قالت :

— أنت لا تعرف مدى لهفتى إلى تصديقك

فكتب : « فصدقينى » .

— يا ليت !

فكتب : « ستجعلك الأيام تصدقيننى »

فقالت :

— لا تستهن بالأيام فهى تأتى من قريب ، وعن قريب أعرف مقدار صدقك ... لا تجعل الأيام تؤيد خوفى وتزيل أملى فأنا لا أستحق هذا ... ولا أستحقه منك أنت بالذات ، أنت أخ لنا ... وأنا ... وأنا ... وأنا لقيت من الزمان ما يكفى .

وكتب : « ستعرفين مدى صدقى » .

فأطرقت فايزة وأطالت الإطراق ، وعاد يسرى يربت كتفها ، وما لبثت أن قالت :

— يا رب إن كان كاذبا فلا تجعلنى أرى كذبه .

٣٢

نعم يسرى بحياته الجديدة واستطاع أن ينسى فايزة مخاوفها ، فكان يقبل عليها مشرقا وينصرف عنها ملاطفا ، واستكانت هى إلى هذه الحياة الجديدة مقبلة عليها فى سعادة لم تعرفها منذ كانت طفلة لا هية ، وأوشكت أن تنسى ما بها . وشهد أبوها وأمها وأختها هذا الإشراق الجديد الذى أصبح يشيع فى أجوائها ، وكان خيرى لا ينى عن الزيارة وكان يشهد هذه السعادة التى استطاع أخوه أن يهيئها لزوجته ، وكان يرى آثارها على العائلة جميعها ولكنه لم يطمئن كما اطمأنت عائلة عزت باشا فقد كانت معرفته لأخيه أعمق ، ولم يشأ أن يكدر هذا الصفو فهو يظهر لهم فرحه ويخفى خوفه ، يخفيه عن وفية التى ما تكاد تختلس خلوة به حتى تظهر رضاها غاية الرضا عن أخيه ومعاملته لزوجته ، وكان خيرى يلاقى

فرحها بفرح يصطنعه متكلفا فى اصطناعه غاية الجهد .

ومرت الأيام بيسرى وهو بها هانئ ، وكان عزت باشا لبقا كيسا فاستطاع أن يمد عونه ليسرى دون أن يجرح كبرياءه ، فقد طلب إليه أن يشرف على حسابات الزراعة وحدد له لقاء هذا أجرا كبيرا قبله يسرى فى صمت كحق مفروض له. وهكذا أصبح هذا الأجر وما يناله كمرتب من وزارة المالية مالا خالصا له هو غير مطالب منه بشىء إلا هدايا قليلة يقدمها لأخته نادية أو لأمه ، وحين حاولت أمه الرفض غضب وكاد يقاطع البيت فقبلت مرغمة . وأراد يسرى أن يقدم لأخيه خيرى بعض هذه الهدايا فأقنعه خيرى ألا يفعل ، ولكن دون أن يغضب ودون أن يتيح له فرصة للغضب ، مشيرا إليه أن واجبه يقضى عليه بأن يقدم الهدايا لزوجته ، ففرح يسرى بهذه الإشارة ونفذ مضمونها فى إقبال وغدق .

لم تطل أيام يسرى الهانئة فإن نفسه لم تعفه من الضيق .

ها هو ذا المال يجرى بين يدى ... وهأنذا لا أشتهى شيئا ، فمالى ضيق النفس لا أستقر على حال من القلق والملل ؟ إنى أعمل ... ماذا أعمل ؟.. ألا أذهب كل يوم إلى الوزارة ؟.. وماذا أفعل بها ؟.. إننى هناك كما أنا فى البيت زوج بنت عزت باشا ولا عمل ... ألم يكن المال هو كل ما أشتهى ؟.. ألم أكن أحسد الجزار وبائع اللبن وعزت باشا على غناهم ؟.. وهأنذا أكثر غنى منهم ... فإن المال يأتينى ثم أنا غير مطالب بشىء ... دفتر حساباتى فيه الوارد وليس فيه الصادر ... ربح خالص بلا رأس مال ... وعزت باشا يشقى ويكدح طول عامه ، يسافر إلى العزبة مرات فى الأسبوع ، ويتابع أمواله فى كل مناحيها ، وأنا ما على إلا أن آكل من شقائه وأسعد ابنته ، وإن إسعادها هين يسير . ولكنى أرى عزت باشا سعيدا فى سفره سعيدا فى شراء الأسهم وبيعها ولا أرى نفسى سعيدا ... يبدو لى أن السعادة ليست فى المال ذاته وإنما فى بذل الجهد للحصول عليه ... فأى جهد

أستطيع أن أبذله ؟.. آه لو شهد أخى خيرى هذا الضيق الذى يزحم نفسى لأحس الانتصار على مرة أخرى ... وكيف له أن يشهد ؟! إننى لا أبدو أمامه إلا سعيدا هانئا فمن له بما يركد فى نفسى من ضيق وملل ؟. ولو أننى حكمت منطقى وحده لوجدت هذا الضيق سخفا خالصا ... لقد طلبت الغنى فنلته ، والسلطان فتحقق لى بفضل عزت باشا .. فما هذا الضيق ؟ وما حيلتى فيه وأنا أحسه يملأ كيانى ، ويهصر سعادتى ، ويدمر أيامى تدميرا ؟

حتى دولت لم أعد أجد بين أحضانها ما كنت أجد ، حتى الويسكى لم يعد يمدنى بهذه النشوة التى كنت أحسها منه حين كنت أشربه مع عبد الوهاب وصبحى ... ترى أيحس عبد الوهاب ما أحسه أنا ؟.. لا أظن ... ولماذا لا أظن ؟.. ما لى أظن الناس جميعهم سعداء إلا أنا ؟.. فيم يختلف عنى عبد الوهاب ؟.. حاله كحالى ولعله يظهر الرضى ويخفى الضيق الذى أخفيه ... ألا يحس عبد الوهاب حاجة إلى السعى ؟. ألا يحس بشوق عارم للعمل ؟.. ألا ينظر لما يدخل فى جيبه من مال نظرة باردة لا حرارة فيها ؟.. ألم يفقده سروره بهذا المال ؟ ألا تهدر فى نفسه عواصف من رغبة العمل ؟... ألا يريد أن يمسك مالا كسبه عن عمل لا عن وساطة ؟.. وبعد ... ماذا لى من أمل فى الحياة بعد هذا ؟.. إلى أى مدى أتشوف للمستقبل ؟.. ماذا أريد من هذا المستقبل ؟ ما لذة اليوم الجديد ؟ ماذا لى فى طوايا الغيب ؟.. سكون راكد كالمستنقع .. إن لى مالا ... وإننى آمن من الفقر . ولكن ماذا بعد أن يزيد مالى ؟ وماذا أفعل به ؟ وما لذته وأنا لم أجهد للحصول عليه ؟ ماذا أفعل بشبابى جميعه ؟ طلبت الغنى فهأنذا أناله فى أول خطواتى من الحياة ، ثم ها هى ذى الحياة بكاملها تمتد أمام ناظرى بيضاء باهتة بلا حياة فيها ولا أمل ولا عمل ... ألمثل هذا كانت ثورتى ؟.. واخيبتاه ... لا حياة لى ... لا حياة .

٣٣

كان الدكتور حامد عبد الكريم جالسا بين رهط من إخوانه الأساتذة فى جروبى ، وكان الحديث يدور بينهم هينا لا يمس إلا أمورا تكرر تناولهم لها مرات ومرات ولكنهم لا يجدون غيرها ليديروها بينهم ، وأقبل عليهم فى جلستهم زميل لهم هو الدكتور أنيس عوض ، وما إن حياهم وجلس حتى سأله صديقه الدكتور فهمى صدقى :

ـــ خير يا أنيس ؟

ـــ خير إن شاء الله .

ـــ هل تمت المسألة ؟

ـــ أعتقد أنها ستتم قريبا .

وسأل حامد :

ـــ ماذا يا أنيس ؟

وقال الدكتور أنيس محاولا أن يغير موضوع الحديث :

ـــ لا ... لا شىء ... مسألة بسيطة .

وقال حامد فى ثقة مدركا ما هدف إليه صديقه من محاولة البعد عن هذه المسألة :

ـــ هى سر إذن .

وقال الدكتور فهمى محاولا أن ينقذ صديقه مما أوقعه فيه :

ـــ يا أخى ألا تترك شيئا إلا وتحاول معرفته ؟.. هل انتهيت من طبع كتابك ؟

ولم يجب حامد بل فكر قليلا محاولا أن يعرف ما يخفيه صديقه ، ولكن فهمى لم يتركه يفرغ لتفكيره بل أعاد سؤاله مرة أخرى فى صوت أقوى ، فانتبه حامد من سرحته ليقول :

— آه ... ماذا ... آه ... نعم ... كدت أنتهى من طبعه .

وضحك الزملاء من إجابة صديقهم المترددة وعادوا إلى حديثهم الذى قطعه عليهم مجىء الدكتور أنيس . ولم تطل بهم الجلسة وبدأوا ينصرفون الواحد بعد الآخر ، وكان حامد يعرف أن زميلهم الدكتور محمد وحيد صديق للدكتور فهمى صداقة وطيدة فحرص أن يكون انصرافه فى رفقة الدكتور محمد ، فما كاد هذا يستأذن فى الانصراف حتى استأذن حامد معه وخرجا إلى شارع المناخ معا . وسأل حامد :

— أذاهب إلى البيت ؟

— نعم .

— خذنى معك ... إنى أريد أن أزور صديقا فى جهتكم .

— أهلا . .

وهكذا أتاح حامد لنفسه فترة طويلة يحاول فيها أن يستخلص هذا السر الذى أخفاه عنه أنيس وفهمى . ولم يكن الوصول إلى هذا السر يحتاج إلى كثير مداورة ولا كبير عناء فما أسرع ما عرفه ... وما أعظم الفائدة التى توقعها لنفسه من معرفته .

* * *

قصد الدكتور حامد من فوره إلى بيت تلميذه السابق وصديقه الدائم يسرى ... وكان هو نفسه بيت عزت باشا . وكان يسرى بالبيت فدعاه حامد أن يخرجا معا ليجلسا فى سان سوسى . وما إن استقر بهما المكان حتى قال

حامد :

— مسألة يا يسرى لو تمت نلنا بها السعادة والغنى والجاه .

وكأنما كان حامد يعلم ما بنفسه من شوق إلى العمل ، وما أسرع ما قال يسرى فى فرح :

— صحيح .

— صحيح جدا ... اسمع . المسألة تحتاج إلى عناية ومثابرة واهتمام وأنا واثق أنها ستتم .

— ماذا ؟

— منصب عضو مجلس الإدارة المنتدب لشركة التأمين الوطنية .

— ماله ؟

— خال ... ويريدون أن يعينوا فيه أستاذا جامعيا .

— ما المناسبة ؟

— المناسبة أنهم يريدون أن يضفوا ثقة على الشركة ... أو أى سبب آخر ... المهم أن زميلا لى مرشح له وتجرى معه مفاوضات .

— من زميلك ؟

— الدكتور أنيس عوض .

— ولماذا اختاروه ؟

— له قريب فى مجلس الإدارة .

— وماذا تريد منى ؟

— لو أن الباشا كلم وزير المالية فرشحنى لأصبحت أنت سكرتيرا عاما للشركة بمرتب تحدده أنت .

— ولكن الباشا لو عرف أننى سأعمل بالشركة لاعتبر هذا رشوة .

ــ ومن الذى سيخبره ؟

ــ ألست سأعين ؟!

ــ بعد أن أعين أنا وحينئذ لن يكون للباشا عندنا كلام .

ــ معقول .

ــ خدمة يقدمها لى الباشا كما تعود أن يقدم من خدمات .

ــ توكل على الله .

ــ وعليك .

ــ إن شاء الله .

* * *

عاد يسرى إلى البيت والأمل يداعب نفسه عن هذا المنصب الجديد . ووجد الباشا جالسا وحده فى المكتب فألقى إليه رجاء الدكتور حامد فى لهجة خلت مما يخالط نفسه من آمال يعلقها به ، ووجد عند الباشا قبولا كشأنه دائما كلما سنحت له فرصة لخير يقدمه إلى حامد . واطمأن يسرى وظل مع عمه يدور بينهما الحديث فى شتى مناحيه . ثم قام العم لينام وصعد معه يسرى .

وكان جناح يسرى وفايزة مستقلا عن البيت لا يشركهما فيه إلا دولت فى حجرة مقابلة لحجرتهما . وحين بلغ يسرى جناحه وجد حجرة نومه مظلمة وبابها مقفلا ، ووجد باب دولت منفرجا ورأى ضوءا خافتا ينبعث منه ، فدلف من الباب المنفرج إلى الضوء الخافت .

٢٤

أصبح يسرى بعد تعيين حامد بشهور قليلة سكرتيرا عاما للشركة ، ورأى يسرى نفسه وهو فى بواكير الشباب الأولى ذا حجرة منفردة وذا نهى وسطوة وسلطان ، وأدرك الباشا عند تعيين يسرى أنه كان آلة فى يد يسرى يحركها إلى حيث يشتهى . وقد غضب لهذا الوضع الذى أراده له يسرى ولكنه لم يستطع أن يظهر غضبه واضحا فقد كان يرى حب فايزة لزوجها ، ولم يكن قلب الأب فيه ليتيح له أن يعنف بيسرى العنف الذى يراه يستحقه . ولكن لم يشأ أن يسكت بل انتهز أول فرصة بعد تعيين يسرى وقال له :

ــ أظن يا يسرى أن عملك فى الشركة سيأخذ وقتك كله !

وقال يسرى وقد أوجس :

ــ أظن ذلك يا عمى !

فقال الباشا فى حزم :

ــ إذن فاترك حساباتى ليتفرغ لها شاب أقل من سكرتير عام الشركة الوطنية للتأمين .

وأطرق يسرى خجلا وهو يقول :

ــ أمرك يا عمى .

وبهذه السخرية اللاذعة وبهذا الحزم القاطع استطاع الباشا أن يبدى ليسرى أنه فهم اللعبة التى دبرها له هو وحامد ، وأنه أيضا غير مرتاح لهذا التصرف ، كما استطاع بهذه المحادثة القصيرة الحاسمة أن يقطع عن يسرى المرتب الذى كان يعطيه

إياه .

ولم يكن يسرى فى حاجة إلى المرتب فقد كان مرتب الشركة ضخما ، كما أنه أصبح إلى حين فى غير حاجة إلى عون عمه ... وطمأن نفسه « إنه رجل طيب وما أسرع ما أستطيع إرضاءه » . فاطمأنت نفسه إلى هذا الظن .

ولم يمر كثير وقت على تعيين يسرى بالشركة حتى كان قد دبر هو والدكتور حامد أمرا ، وارتاح إليه وقصد إلى أخيه خيرى فى البيت فوجده فى حجرته جالسا يقرأ فى إنعام ، فقال له :

— جئتك اليوم فى أمر هام يا آبى خيرى .

وقال خيرى فى هدوء لا يزايله :

— خير ؟

قال يسرى :

— كم بلغ مرتبك فى الوزارة ؟

وقال خيرى :

— ما المناسبة ؟

— أليس لى الحق أن أعرف ؟

— لا أرى مانعا أن تعرف ولكنى أيضا لا أرى موجبا لذلك ، فقد بلغ مرتبى القدر الذى يكفينى ويجعلنى أعيش المعيشة التى أرضاها لنفسى فلا أشكو ضيقا .

— وحياتى عندك يا آبى خيرى أن تترك هذا الخيال ... لكل إنسان طموح ولا يعقل ألا تكون أنت طموحا مثل كل الناس .

— ومن قال لك إننى لست طموحا ؟.. إننى بغير طموحى هذا ما كنت أستطيع أن أواصل تعليمك وتعليم أختك والإبقاء على أسرتنا فى ستر ورضا ...

ألم يكن هذا جميعه طموحا ؟

— عظيم ... عظيم ولكن أليس لك طموح شخصى ؟.. أليس لك آمال تبنيها لنفسك ؟

— أنت أمل من هذه الآمال ... وأختك نادية أمل آخر لى ... وثق أننى حين أزوج نادية سأنظر إلى نفسى وأتزوج ، وقد أخرج من الوظيفة ، وقد أحقق آمالا أخرى يعود نفعها على وعليكم .

— لم تحدثنى أبدا عن هذه الآمال .

— أحب أن أنفذها ولا أتحدث عنها .

— ألا تتحدث عنها لى ... أنا أخوك ؟..

— أعلم أنك أخى ، ولكن حديثى عن آمال قد يجعلها أمام عينيك حقائق بينما أنا لا أزال أراها آمالا ... هى بعد فى نفسى لم تكتمل عناصرها ومقوماتها ، والحديث عنها قد يجعلها تبدو كاملة قائمة .

— قل لى يا آبى خيرى وحياتى ... ورحمة أبى إلا قلت ؟

— المسألة لا تستأهل كل هذا الإلحاح ... أريد أن أترك الحكومة وأذهب إلى البلد فأقيم فى بيتنا هناك ، وأستأجر أرضا من حولنا أربى ماشية وأنمى ثروتنا البسيطة ...

وفكر يسرى قليلا ثم قال :

— والله مشروع لا بأس به ! وماذا يؤخرك عنه ؟

— أنا الآن مطالب بالتزامات إزاء والدتنا وأختنا ، ولا أستطيع أن أترك مرتبى الثابت المضمون لمشروعات لا أدرى نتائجها .

وأطرق يسرى هنيهة ثم قال :

— ما رأيك لو ارتفع مرتبك هذا إلى ضعفيه ؟

وصمت خيرى لحظة ثم قال :

ــ ماذا تتوقع أن أقول ؟

وقال يسرى على الفور :

ــ أن توافق طبعا .

ــ طبعا ولكن فقط أحب أن أعرف كيف يرتفع ؟

ــ تترك الوزارة وتعمل معنا فى الشركة .

فقال خيرى فى تؤدة :

ــ الشركة التى تعمل بها سكرتيرا عاما ؟

وبهت يسرى من الإجابة ، وما لبث أن قال فى لعثمة :

ــ نعم .

ــ أترضى لى ذلك ؟

ــ ماذا ؟

ــ أن أكون مرؤوسك .

ــ وهل تعتقد أننى سأكون رئيسا حقا ؟

ــ وهذا أدهى ... سأجعلك بين أمرين لا أرضاهما ... إما أن تكون رئيسا حقا وهذا لا أحبه لنفسى ، أو لا تكون رئيسا حقا وهذا لا أحبه لك .

ــ يا آبى خيرى إنها فرصة ... وقد تستطيع أن توفر منها مبلغا ينفعك فى مشروعك الذى تنتويه .

ــ إن كان مشروعى سيجعلنى أفعل ما لا أرضاه فإنى سأنصرف عنه .

ــ يا آبى خيرى إنه مشروع عظيم .

ــ ألم أقل لك إنك ستراه كاملا قائما بينما هو لا يزيد عن مجرد أمل فى نفسى .

ــ وهل الأمل شىء بسيط ؟.. أليست الآمال هى التى تحدد خطوط سيرنا فى

الحياة ؟

ـــ الآمال أهداف وأخلاقنا وتركيب نفوسنا هى التى توجهنا فى الطريق ... إن طريقا لا ترضاه أخلاقى طريق لا أسيره وإن لم يكن غير مؤديا إلى هدفى ... هكذا أنا ... هكذا ركبت نفسى منذ كنت صغيرا حتى الآن ... لا أظن أننى قادر على تغيير نفسى .

ـــ كنت أظن يا آبى خيرى أن مثاليتك لا تستطيع الصمود أمام الحقيقة ... نعم أعرف ما فعلته مع عزت باشا فى أول حياتك ، ولكننى خيل لى أنك مع مرور الأيام أسفت على ما كان منك ، وخيل لى أنك قد تلين أمام المنفعة إذا كنت ماثلة أمامك بلا أوهام ولا خيالات ... للأسف ... ما زلت تتحدث عن الأخلاق والمثالية والتعفف والقناعة حتى أصبحت تطبقها فى حياتك أيضا ولا تكتفى بها فى أحاديثك .

ـــ عجيبة يا يسرى ... أكنت تظن أن آرائى مجرد كلام فقط ؟

ـــ كنت أظن أن الحياة علمتك أكثر مما فعلت .

وضحك خيرى ضحكة صغيرة فيها بعض سخرية وقال :

ـــ لا عليك يا يسرى ... أمرك إلى الله ... ربنا بلاك بأخ عقله فارغ ... تحمل .

وسارع يسرى يقول وقد احمر وجهه خجلا :

ـــ العفو ... أنا لم أقل هذا .

ـــ لم تقله ولكنك تعتقده ... لا عليك ولكن ... اسمع ... أنا أشكرك ... فإن وفاءك لى وحرصك الدائم على أن تقدم لى ما تظنه خيرى أمر أحبه فيك وأكبره ، وهو أيضا يطمئننى أنك يوما ما ستعرف أن ما آخذ به نفسى ليس مثالية ولا أوهام تقاليد بالية ... ويجعلنى أيضا آمل أنك فى يوم ما سترى الدنيا شيئا

آخر غير المال يستحق أن نحيا له .

وأطرق يسرى هنيهة وقد تأثر بحديث أخيه واختلج قلبه بعواطف الحب له ، وإن كان عقله لم يعفه من الإلحاح عليه أن هذا اليوم لن يأتى ، وأن اليوم الذى قد يأتى هو يوم يعلم أخوه القيمة التى يحتلها المال فى الحياة .

٣٥

كان يسرى جالسا بمكتبه بالشركة حين دلف إلى المكتب سكرتيره ينبئه أن بالخارج صديقه صبحى الملوانى ، وقال يسرى فى لهفة :

ـــ دعه يدخل ...

ثم سارع يقول فى نفس اللهفة :

ـــ بل اجعله ينتظر قليلا .

فقد ومض فى ذهنه خاطر سريع لا يدرى مأتاه ... لقد أحب أن يشعر زميل دراسته بالفارق الذى أصبح بينهما ... وخرج السكرتير لم يبد ملاحظة ولم يشغل ذهنه باللهفة التى أرسلت رئيسه سامحا فى دخول الزائر ، ثم اللهفة التى أتبعتها فى أن يتريث به ... لم يفكر فليس من عمله أن يفكر وإنما عليه أن يسمع فيطيع ، وقد سمع وأطاع وخرج . ولبث يسرى يتشاغل بالأوراق التى أمامه بعض الحين ، ولم يطل به التشاغل فقد دق التليفون المجاور له وإذا هى دولت تخبره أن جميلا ووفية سيصحبان فايزة إلى السينما وأنهم يسألونه إن كان يريد أن يرافقهم ليشتروا له تذكرة ، فيسألها :

ـــ وأنت هل تذهبين ؟

— لا .

— إذن فأخبريهم أننى سأتأخر فى الشركة ولا أستطيع صحبتهم .

— ومتى تجىء ؟

— فى الساعة الرابعة .

وانتهت المكالمة ولكن التليفون الآخر الذى يصل حجرات الشركة بعضها ببعض دق ، فرفع يسرى السماعة ليصله صوت حامد يطلب إليه أن يجىء إلى مكتبه .

وفكر يسرى أن يمضى إلى حامد دون أن يلقى صديقه صبحى ، ولكنه خشى أن تطول غيبته وينصرف صبحى ، ففضل أن يراه واقفا ، لم يغب عن ذهنه ما فى هذه المقابلة الواقفة من إظهار مدى مشاغله ومن أثر هذا فى نفس زميل الدراسة .

ودق يسرى الجرس وطلب إلى السكرتير أن يدخل صبحى ودخل صبحى ... ونسى يسرى ما أراد أن يأخذ به نفسه من وقار وعظمة وإظهار مشاغل وإثبات أهمية ، ووجد نفسه حين رأى وجه صديقه يفتح ذراعيه ويحتضن صديقه وكأنه يحتضن نفسه والأيام التى قضياها معا ، ووجد نفسه يقول فى سجية مواتية لا تكلف فيها :

— أين أنت يا ولد ؟.. أين أنت طول هذه المدة ؟

وأطرق صبحى قليلا ثم قال :

— أشكرك يا يسرى ... يا يسرى بك .

وكأنما أفاق يسرى من غفوة ... أيقظته « بك » يسمعها من صبحى ، وأوشك أن يقول « لا تقلها » ولكنه التذها ... أحس فيها بما وصل إليه من غنى وسلطان فوجد نفسه يتجاهل « البك » وكأنها أمر مفروض وقال لصبحى :

— علام الشكر ؟

— على هذا اللقاء .

وقال يسرى فى صوت يغاير مضمون كلامه ٠

— نحن أخوان .

قالها فى عظمة متواضعة تستطيع أن تحمل فى طواياها أى معنى غير معنى الأخوة ، ثم ما لبث أن قال :

— صبحى ... عضو مجلس الإدارة يطلبنى وأنا مضطر للذهاب إليه ... هل هناك أى خدمة أستطيع أن أؤديها ؟

وقال صبحى فى ارتباك :

— أجىء فى وقت آخر .

— أهلا ... ولكن ماذا تريد ؟

— وظيفة .

وبهت يسرى فهو لم يكن يتوقع هذا الطلب من صديقه ... وطاف به الصمت هنيهة ثم قال :

— والله يا صبحى المسألة ليست سهلة ... أتعطينى فرصة من الوقت ؟

— طبعا ... ولكن أرجو ألا يطول هذا الوقت .

— كن على اتصال دائم بى .

— سأجىء كثيرا .

— وهو كذلك ... اترك لى هذا الموضوع .

واستأذن صبحى وانصرف ، وقصد يسرى إلى مكتب الدكتور حامد ... وحين دخل وجد فى الحجرة رجلا أنيق الملبس قدمه إليه حامد قائلا :

— عبد السميع بك فتحى مندوب شركة النقل بالسيارات .

وحيا عبد السميع بك يسرى فى أدب وافر ، لاحظ يسرى عناية الرجل

البالغة بحركاته جميعا وتحريه أن تكون كل حركة فائقة الأدب والجمال ، وحرصه كل الحرص أن تظل ابتسامة على فمه ثابتة لا تزيد ولا تنقص إلا عند ضحك شديد إذا ما بدا فى الجو مشروع نكتة وإن لم يكن المتحدث يقصد إليها ... وظل الحديث بينهم فى أمور عامة لا صلة لها بالعمل ، ويسرى يشارك فى الحديث طورا ويرقب هذا الوافد الجديد طورا آخر ، أو هو يرقب الأدب البالغ الذى يصطنعه الدكتور حامد أيضا فى الحديث ، أو يحاول أن يعرف هدف هذه الزيارة ، أو على الأقل السبب الذى استدعاه من أجله الدكتور حامد ، ولكن محاولاته لم تنته به إلى رأى يرتاح إليه . وبدا ليسرى أن كلا من حامد وعبد السميع بك يتباريان أيهما أكثر صبرا وأشد مداورة من الآخر ، فكل منهما يلوب فى الحديث مبتعد عما اجتمعا من أجله . وقد فاز حامد فى هذه المباراة وهزم عبد السميع ، فقد حرص حامد أن تشيع فى الحجرة فترة من الصمت أعقبها بكلمة واحدة ...

— شرفت ...

وقال عبد السميع :

— الله يحفظك ... ترى أتخبر أنت يسرى بك بالمسألة أم تفضل أن أقول أنا ؟

— أظن من الأفضل أن تخبره أنت .

— أمرك ... لقد اتفقت يا يسرى بك مع حامد بك على صفقة ستعود عليكم بخير عميم ...

وقال يسرى مشجعا :

— عظيم .

— أنا رئيس مجلس الإدارة والعضو المنتدب لشركة الأمانة للنقل ، وأملك فيها أكثر من ٦٠/ من الأسهم .

وقال يسرى :

ــ أهلا وسهلا .

ــ لدى الشركة ما يقرب من الخمسين سيارة نقل ، وحوالى ثمانى سيارات خاصة للمديرين ولى .

ــ عظيم .

ــ نريد أن نؤمن تأمينا كاملا على هذه السيارات .

وبدا على يسرى كأنه فهم ما يراد به ، فقال فى تفكير :

ــ تأمينا كاملا ؟

ــ نعم .

ــ السيارات جديدة طبعا .

وأصاب السؤال مكانا دقيقا من الموضوع فوجم عبد السميع ووجم حامد ، وسارع عبد السميع يتخلص من وجومه فى سرعة حاذقة :

ــ طبعا ... طبعا .

ــ عظيم .

ــ كل ما فى الأمر أنها ليست حديثة .

وازداد يسرى فهما للأمر فقال :

ــ كيف تكون جديدة وليست حديثة ؟

ــ جديدة بمعنى أنها فى حالة جيدة ، وإن كانت ليست حديثة الشراء .

فقال يسرى فى مداورة :

ــ على كل حال هذا أمر يقوم به مهندسو الشركة .

فقال عبد السميع فى سرعة :

ــ هذا ما أردناك فيه .

وقال حامد :

ـــ عبد السميع بك لا يثق فى مهندسى الشركة

وقال يسرى :

ـــ أيهم ؟ فسعادتك تعرف أنهم أربعة نتعامل معهم ، نستطيع أن نستبعد الذى لا نثق به وإن كانوا جميعا موضع ثقة الشركة .

وقال حامد :

ـــ إنه لا يثق بأى واحد منهم .

وقال يسرى فى دهشة :

ـــ الأربعة ذمتهم خربة ؟!

فقال حامد فى حزم .

ـــ هذا رأيه .

فقال يسرى :

ـــ وما رأى سعادتك ؟

فقال حامد موجها حديثه إلى عبد السميع :

ـــ وعلى كل حال يا عبد السميع بك اعتبر المسألة منتهية ، وتستطيع سعادتك أن تمر بالشركة بعد غد ، وستجد الأوراق جاهزة .

فقال يسرى محاولا إبداء رأيه :

ـــ ولكن ...

فقال حامد فى حزم الرئيس :

ـــ انتهينا يا يسرى .

فقال يسرى فى استخزاء داهش :

ـــ أمرك .

واستأذن عبد السميع بك وانصرف يودعه حامد إلى باب الغرفة ، وحين عاد من توديعه وجد يسري متجهما يأخذ طريقه إلى الباب ، فقال له :

ــ إلى أين أنت ذاهب ؟.. اقعد .. أنت عبيط .

فقال يسرى :

ــ أنا دهش .

ــ فيم الدهشة ؟

ــ يبدو أن المسألة ليست سليمة .

ــ وما يهمك أنت ... أتمانع أن تقبض أربعمائة جنيه دون أى تعب ؟

وفهم يسرى الأمر على تمام حقيقته .

ــ لا أمانع أبدا ... كيف ؟

ــ تأتى لى بمهندس صديقك يأخذ فى هذه العملية ضعفى ما يأخذ مهندسو الشركة ويعتبر السيارات جديدة ، ونأخذ مقابل ذلك ألف جنيه لى منها ستمائة ولك أربعمائة ... ما عيبها ؟..

وقال يسرى مفكرا :

ــ أما عن الأربعمائة جنيه فلا عيب بها ، أما عن الطريقة ..؟

وقال حامد فى سخرية :

ــ نعم يا سيدى ... مالها الطريقة ؟.. لا تجعلنى أظن بك العبط كأخيك ... أنا دائما أحترمك لأنك واقعى ، ذهنك تخلص من المخلفات الراكدة للتقاليد والتفكير الضيق العقيم .

ــ ولكن هذه المسألة يا حامد بك لا شأن لها بالتفكير العقيم . ولا مخلفات الماضى ... إنها ... إنها ...

ــ هيه ... قل سرقة ... قل ... قلة ذمة ... كرر هذه الألفاظ الجوفاء التى

سيطرت على الأجيال الماضية وكبلت التفكير فيها .

ــ يا حامد بك أنا لا أرى صلة بين الأجيال الماضية وهذه المسألة أبدا .

فقال حامد فى حزم :

ــ إذن فأنت لا تريد الاشتراك معى فيها ؟

ــ والله إذا أعفيتنى أكون شاكرا .

ــ أنت حر ... طبعا أنت اليوم غنى ولم تصبح فى حاجة إلى المال . أصبحت تختار نوع المال الذى يصل إليك ، فهذا تقبله وهذا ترفضه ... معلوم ... لك حق ... ولكننى يا سيدى لست كذلك . وإن لم أحصل على المال من حنك السبع فلن أجده ... أنت حر .

ــ الواقع يا حامد بك أنا خجلان أن أرفض لك أمرا ولكن لا أستطيع .

ــ انت حر ... أنت ... ولكن فقط لا تعطل الورق .

وأصابت يسرى بغتة أخرى .

ــ ماذا ؟... هل سيمر بى هذا الورق ؟

ــ طبعا ...

وفكر يسرى قليلا ثم قال :

ــ ألا يمكن أن يأتيك هذا الورق مباشرة ؟

ــ بالطبع لا ... أنت سكرتير عام الشركة ... وحين يمر موضوع من غير تأشيرتك سيثير كثيرا من التساؤل والدهشة . وأنا لا أحب التساؤل أو الدهشة ... أو التعطيل .

ــ إذن ...

ــ إذن فلا تعطل الورق .

وأطرق يسرى وفكر ... يمكن أن يقال لم ينتبه ، وهذا خير من أن يقال

لص ... لعلهم سيقولون لص أيضا ... لا يهم ما دمت أنا مقتنعا أننى لم أسرق ... إن لم أوقع فسأرفت ... فهو لا يحب التعطيل ...

وقاطع حامد تفكيره قائلا فى حزم ونغمة خالية من التهديد :

— هيه .

فقال يسرى :

— حاضر ... سأوقع .

وضحك حامد ساخرا وقال :

— تقبل أن يقال مغفل لا يفهم شغله ، ولا تقبل أن تأخذ أربعمائة جنيه ...

وحاول يسرى أن يعتذر عن أمانته ثانية ولكن حامدا سارع يقول :

— لا ... لا ... لا ترغم نفسك على شىء ... أنت حر ... أنت دائما حر ... تقبل ما تشاء ولا تقبل ما تشاء ... أنت حر ...

وأطرق يسرى وهو يقول :

— أشكرك .

ثم خرج من الغرفة يفكر فى هذه الحرية التى يتيحها له رئيسه .

(ثم تشرق الشمس)

٣٦

نزلت فايزة ترافق أختها وفية وزوجها جميل إلى السينما فى حفلة الساعة الثالثة ، وكان جميل قد جاء فى إجازة قصيرة سيعود بعدها إلى عمله بسفارة فرنسا . وقد كان يحرص فى إجازاته أن يعوض زوجته عن غيابه بالإكثار من النزهة ، وكان يحرص فى أغلب الأوقات أن يصحب فايزة التى أصبح عمل زوجها الجديد يشغله عنها وقتا كبيرا .

كانت سيارة جميل التى يقودها بنفسه تسير بشارع فؤاد متخذة طريقها إلى السينما ، وكانت وفية تجلس إلى جانبه وإلى جانبها تجلس فايزة . وكانت وفية تكتب لفايزة كلاما تمنعه السيارة أن يتضح فلا تستطيع فايزة أن تقرأه فلا تملك هى وأختها إلا أن تضحكا من هذه الأشكال العجيبة التى لا تستطيع أن تكون شيئا مفيدا . وأخيرا قالت فايزة :

ـــ اسكتى حتى نصل ... ألا تتوقفين عن الكلام أبدا ؟..

وقبل أن تضحك الأختان انتابت فايزة حالة غثيان وحملقت فى وجه أختها ثم انثنت وقد وضعت يدها على وجهها وهى تتأوه فى ألم ، فقالت أختها فى ارتباك :

ـــ مالك ؟

وراحت فايزة فى دوامة ولم تعن بأن تخبر أختها عما بها وإنما راح عقلها يفكر أين تفرغ غثيانها فى منجى عن عيون جميل بالذات ، وفجأة فتحت حقيبة يدها وأفرغت ما بها دفعة واحدة فى فستان وفية ، ثم زادت من انثناء ظهرها وجعلت من الحقيبة وعاء .

أوقف جميل السيارة على جانب من الطريق ، وقصد إلى مقهى وطلب كوب ماء ، وعاد به إلى فايزة فتناولته فى شكر .

وقالت وفية :

ــ جميل ، ألا تعرف طبيبا نذهب إليه ؟

ــ أعرف طبعا ولكن الآن ... الساعة الثالثة والنصف .

ــ ألا تعرف بيته ؟

ــ سأكلمه بالتليفون .

وعاد جميل بالكوب الفارغ ليتكلم من تليفون المقهى ، باحثا عن صديقه الطبيب .

وكتبت وفية لفايزة « مالك » ؟

فقالت فايزة :

ــ لا أدرى ... أحسست فجأة بهذا الغثيان .

وقالت وفية وقد أشرق وجهها بالفرح :

ــ فايزة أنت حامل ؟

ظلت فايزة رانية إليها لم تفهم شيئا لأنها لم تسمع شيئا ، فانتبهت وفية وكتبت لها « أنت حامل ؟ » .

وقالت فايزة :

ــ غالبا .

وقالت وفية فى فرحة متوثبة :

ــ حقا ؟

ثم انتبهت وكتبت : « مبروك » .

وقفزت من السيارة وثبا ، وسارعت تقتحم المقهى الذى دخله جميل غير

عابثة بالأنظار التى أحدقت بها بين عاجبة وبين معجبة وبين مستهجنة ، وحين وجدت زوجها قالت له دون أن تترك له فرصة أن يذكرها بأنهما فى مصر وليسا فى باريس :

— جميل هل صديقك طبيب أمراض نساء ؟

وقال جميل دهشا :

— لا .

— إذن فابحث عن طبيب أمراض نساء .

وقلب جميل صفحات دفتر التليفون يبحث عن الطبيب المطلوب .

* * *

خرجت فايزة من عيادة الطبيب فرحة نشوانة تشاركها فى فرحتها أختها وركبتا السيارة ، وقبل أن يقودها جميل قال لوفية :

— اكتبى لها أننى أطالب بالحلاوة .

وكتبت لها ما أراد . فأخرجت فايزة قرش صاغ وأعطته إياه فقال لوفية ضاحكا :

— اطلبى على الأقل ثمن تذاكر السينما التى لم ندخلها .

وكتبت وفية وغرق ثلاثتهم فى ضحك سعيد هانئ ، وسارت السيارة وخلت فايزة إلى نفسها ، إلى عزلتها وقد أحست بهنائها ... هنائها بكل شىء حتى بهذه العزلة ، ففى ظلها وبسببها تستطيع أن تستمتع بفرحتها كاملة بلا صخب من الطريق ولا حديث من وفية أو جميل ... كانت تحتمل صممها فى صبر ولكنها لم تر فيه نعمة إلا اليوم وفى هذه اللحظة ... أحمدك يا رب ... هل آن لى أن أسعد كما يسعد الآخرون ؟ أأرى ابنى فأسمع بأذنه وأفرح بفرحه وأبدأ به حياة جديدة من غير صمم ومن غير هذه الآلام التى أعانيها فى حياتى القديمة ؟.. أحمدك

يا رب ... فإن أحدا فى العالم لا يستطيع أن يقدر السعادة كما يقدرها من عرف الشقاء ... وقد عرفته . ثم هأنتذا تهب لى حياة جديدة هى حياة ابنى ، فإذا أنا ... وأنا وحدى أدرى مدى هذه السعادة التى سكبتها على بحياتى الجديدة فيه ... فقد كانت حياتى يا رب شقاء ... ولكننى الآن ... الآن فقط أحمد هذا الشقاء الذى أحاط بى لأننى أستطيع به أن أدرك أى سعادة تحيط بى اليوم ، ولا يستطيع الذين لم يروا شقائى أن يلتذوا السعادة كما ألتذها أنا الآن . فلك الشكر ... سبحانك .

وكانت وفية تحذر جميلا طوال الطريق أن يسرع ، وتحذره أن تهتز السيارة حتى قال جميل آخر الأمر :

ــ ما رأيك أوقف الآلة وأدفع أنا السيارة وتقودينها أنت ... سنصل غدا ولكن لن نهتز ... نعملها ؟

وضحكت وفية ضحكة عالية حتى لقد طرحت رأسها إلى الخلف ، ورأتها فايزة فأدركت أنها تضحك ضحكا عاليا فقالت لها :

ــ ماذا بك ؟

فكتبت لها وفية ما قاله زوجها ، فغرقت فى الضحك هى الأخرى .

وحين وصلت السيارة إلى باب البيت كتبت لها وفية : « انزلى أنت ولكن على مهلك ، واصعدى السلم درجة درجة ، واستريحى حتى نحضر لك الدواء ونعود » .

وابتسمت فايزة ودلفت إلى البيت . وحين بلغت الطابق الأعلى تذكرت أنها لن تجد أحدا إلا دولت فقد كانت أمها مدعوة إلى الغداء خارج البيت مع أبيها ، وكانت فايزة تعلم أن يسرى بالشركة ، ولكنها أصرت أن تخبره فورا فقصدت إلى دولت لتجعلها تطلب يسرى فى الشركة ليأتى من توه .

بلغت فايزة حجرة دولت وفتحتها ثم جمدت ... لحظات ... ثم أدركت أن الاثنين اللذين بالغرفة لم يرياها فأقفلت الباب بهدوء محاذرة أن يند عنه صوت ، وقصدت إلى حجرتها وألقت بنفسها إلى السرير وقد انطبق فكاها فى إحكام ، كأنها تمنع الصرخة التى تعربد فى كيانها أن تنطلق ، وتولاها حريق من العذاب ، فعقلها لهيب ونفسها نيران وتفكيرها موقوف جامد وعيناها لا تريان إلا الصورة التى طالعتها من حجرة دولت ... ورفعت فايزة يديها ووضعتهما على عينيها ثم تمتمت :

ـــ أما زال هناك نوع من العذاب لم أعرفه يا رب ؟... ثم وجدت نفسها تقول :

ـــ لن يعرف أحد ... لا ... لن يعرف أحد ... لن أجعل من نفسى سخرية ولا موضع شفقة بعد اليوم ...

ثم صمتت حينا وعادت تقول :

ـــ ولكن لا بد أن تترك هذا البيت .. كيف ؟.. أأخبر وفية ؟.. وماذا ستفعل ؟.. إذا طلبت هى طردها عرف الجميع .. لا بد أن تطلب هى الخروج ... واحد فقط يستطيع أن يقول لها اطلبى ترك البيت ... هو يسرى ... ولكن لن أخبره ... ماذا أفعل ؟.. لمن أقول ؟؟.. نعم هناك حل .

وخرجت فايزة من الحجرة فى خفة وسعت على أطراف أصابعها ونزلت إلى الطابق الأسفل ودخلت إلى مكتب أبيها ، وجلست حتى ليظن من يراها أنها جاءت إلى هذه الحجرة من الخارج مباشرة ، فكأنها ما صعدت وكأنها ما رأت وكأنها ما زالت تحيا فى تلك الفرحة المنتشية التى صحبتها من عند الطبيب ، والتى فقدتها عند دولت .

دقت فايزة الجرس وكتبت على ورقة كلاما . وحين جاء الخادم قالت له :



ـــ خذ سيارة أجرة واذهب بها إلى بيت خيرى بك ... أعطه هذه الورقة وارجه أن يأتى معك فى السيارة ... وإذا لم تجده فانتظره حتى يعود ... لا تعد من غيره .

وأومأ الخادم أن نعم ، وخرج فى طريقه إلى خيرى ، والتقى فى فناء الدار بوفية وجميل . كانت وفية تحث الخطى فى سعادة متوثبة ضاحكة استخفها الفرح حتى لم تملك نفسها أن تسأل الخادم :

ـــ هل جاء الباشا والست ؟.

مع أنها تعلم أنهما لن يعودا قبل المساء . ولم تنتظر الإجابة بل واصلت سيرها الحثيث حتى بلغت البهو الداخلى تريد أن تواصل سيرها إلى الطابق الأعلى حيث تتوقع أن تجد فايزة . ولكن مكتب أبيها ذا الباب المفتوح استرعى انتباهها فالتفتت فوجدت فايزة جالسة ، فذهبت إليها ودون أن تلحظ ما بها كتبت لها : « هل أخبرت يسرى ؟ » .

فقالت فايزة فى جفاء وإصرار وألم ومرارة :

ـــ لم أره .

وأحست وفية ما فى صوت أختها فكتبت وهى تعجب فى نفسها : « إذن لم يأت ؟ » .

وأجابت فايزة فى نفس النغمة المريرة :

ـــ لا أعرف .

وكتبت وفية : « ألم تصعدى إلى الطابق الأعلى ؟ » .

وقالت فايزة فى حزم وتماسك وقد أوشكت أن تنهار :

ـــ لا .

ولم تملك وفية أن تكتم عجبها فكتبت : « ما بك » ؟

ولم تجد فايزة شيئا تقوله إلا ...

ــ متعبة .

فكتبت : « فتعالى نصعد إلى أعلى » .

ــ لا ...

فكتبت : « لماذا ؟... ماذا بك يا فايزة » ؟

ــ يا سلام يا أبلة وفية .. متعبة .. متعبة .. اتركينى هنا .. فإنى هنا مرتاحة .

ولم تكتب وفية شيئا وإنما قالت فى صوت مسموع وفى نغمة الخبير الذى يعرف بواطن الأمور :

ــ هيه ... لقد بدأ معك الوحم فقلب مزاجك ... بسيطة ... يا دولت .. دولت .

وخرجت وفية من الحجرة تنادى حتى أجابها صوت دولت .

وكان جميل بالبهو ما يزال وقد وضع ما حمله من دواء على إحدى المناضد ، فقالت له :

ــ لماذا تجلس هنا ...؟ تعال .

فقال وهو يقوم من كرسيه :

ــ لا ... سأذهب أنا إلى بيت أبى وأعود فى المساء لآخذك ،أم ستبيتين هنا ؟

ــ سأبيت هنا مع فايزة . ولماذا لا تبيت أنت أيضا هنا ؟

ــ كما تشائين .

وخرج وعادت إلى غرفة المكتب ، وكانت فايزة قد أحست أنها قست على أختها وخشيت أن تكون غضبت ، فقالت لها فى صوت يحاول الرقة فيمنعه عنها ألم مرير يخالط كل كيانها :

— أين ذهبت ؟

فكتبت لها : « أنادى دولت » .

وانتفضت فايزة دون أن تحس :

— لا .

وقالت وفية :

— ماذا ؟... ما بك ؟

ولكن فايزة لم تسمع واستطاعت فى لحظة أن تملك أمر نفسها ، فأقرت جسمها المحموم وأطبقت يديها على مقابض كرسيها فى تماسك ، كأنها تخشى أن يقذفها شىء من عليه ، وكتبت لها وفية :

— ما بك ؟

فقالت فايزة فى تشنج :

— لا شىء .

ثم أقرت نفسها على الكرسى ثانية وثبتت من مقامها عليه ، وقالت وكأنها تستعد لصراع كبير :

— نادیها ... نادى دولت .

وقالت وفية :

— إنها آتية .

ولم تسمع فايزة شيئا ولم تكن فى حاجة إلى أن تسمع ، فقد دخلت دولت ، وقبل أن تخبرها وفية بالنبأ السعيد وجدت فايزة نفسها مقذوفة عن الكرسى ، واقفة تسارع خطوها إلى مكان الحوض ، وقد عاودها الغثيان بصورة أشد .

وبهتت دولت هنيهة ، ثم نظرت إلى وفية فوجدتها ترنو إليها فى نظرة من يحمل أخبارا فرحانة ، ثم غمزت لها بعينها وقالت :

— اذهبى إليها ساعديها ... ألم تدركى ما بها ؟.. إنها حامل .

وظهر الفرح على دولت وقالت فى سرور مخلص :

— حقا ؟

وقالت وفية فى نغمتها السعيدة المرحة :

— اذهبى إليها ... اذهبى .

وذهبت دولت إلى فايزة ولكنها وجدتها قد أوصدت من دونها الباب ، وهمت أن تطرقه ثم تذكرت ألا فائدة من طرقه فعادت إلى وفية ثانية . وراحت وفية تعطى الأدوية لدولت واحدا بعد الآخر وتخبرها عن مواعيدها فى دقة وتحذرها أن تنسى أو تهمل .

وعادت فايزة بعد قليل وقد استعادت جأشها أو كادت ، ووجدت آثار النبأ الجديد على وجه دولت وعجبت أن ترى منها هذا الفرح الخالص الصافى الصادق العميق ، حتى لكادت تشك فيما رأت عيناها . ولكنها سرعان ما سخرت من نفسها وشكها « قد أكون صماء ولكننى على أية حال أرى ... ولقد رأيت ... رأيت بعينى » وأوشكت أن تعود إلى ثورتها ولكنها تماسكت وجلست إلى أقرب كرسى منها .

وقالت فى لهجة توشك أن تكون بريئة :

— هل جاء يسرى يا دولت ؟

وأرتج على دولت هنيهة ، تستطيع العين البريئة ألا تلحظ ارتباكها ولكن العين التى رأت ... عين فايزة لم تكن تستطيع ألا تلحظ ، وتمالكت دولت نفسها وقالت :

— نعم .

ثم أتبعت الكلمة بإيماءة لتفهم فايزة ، ولم تكن فايزة فى حاجة إلى الإيماءة بل

خيل إليها أنها سمعت ، فقد كانت تدرى بماذا ستتحرك شفتا دولت فقالت لها :

ـــ أين هو ؟

ومرة أخرى لم تكن فى حاجة إلى الإجابة ، ولكن دولت أشارت إليها أنه بالطابق الأعلى . وصاحت وفية :

ـــ صحيح ؟... أين هو ؟...

وخرجت تجرى من الحجرة وهى تصيح :

ـــ يسرى ... يسرى .

وجاءها صوت يسرى يجيب نداءها ، وما لبث أن أشرف عليها من أعلى السلم :

ـــ ماذا هل جئتم ؟.. ألم تذهبوا إلى السينما ؟

وقالت وفية فى مرحها :

ـــ أية سينما ... تعال ... انزل ... أسرع .

وسارع يسرى ينزل السلم وثبا وهو يقول فى فرح بعثه إليه فرح وفية :

ـــ ماذا ... ماذا حصل ؟

وقالت وفية :

ـــ لا ... لن أخبرك أنا ... فإن هذا من حق زوجتك وحدها .

وكاد يسرى يعرف ولكنه قال فى سرعة :

ـــ أين هى ؟

ـــ فى المكتب .

وسارع يسرى إلى فايزة وهو يقول :

ـــ فايزة ... فايزة ... ماذا ؟

ورأت فايزة زوجها فعادت تمسك بكرسيها وأنعمت فيه النظر ذاهلة تمور فى

نفسها أعاصير من الغضب والألم ، وخيل ليسرى أنها ذاهلة لأنها لم تسمع فلم يعن بالكتابة فقد أدرك من الجو المحيط به أنها تحمل ابنه . ولكنه أراد أن يتأكد فنظر إلى دولت يسألها :

ـــ قولى أنت فلا وقت عندى للكتابة .

وقالت دولت فى إشراق :

ـــ اسألها ... ألم تقل وفية هانم إن هذا من حق زوجتك وحدها ؟

وانكب يسرى على جبين فايزة يقبلها ويقول :

ـــ أظننى أعرف ... أظننى أعرف ...

وما إن لامست شفتاه فايزة حتى عادها الغثيان فانتفضت عن كرسيها وأسرعت الخطى تخرج من الحجرة .

وقالت وفية :

ـــ ها قد أجابت ... إنها فى الوحم .

وقال يسرى وقد اختلج قلبه فى فرح غامر :

ـــ حقا ... فلماذا لم يرها الدكتور ... لماذا لا تأخذ الدواء ... لماذا تتركونها فى هذا التعب ؟؟

وقبل أن تجيب دخل خيرى متوجسا ، وما أن رأى ما هم فيه حتى اطمأن ، فقد خيل إليه أن فايزة استدعته لتخبره بهذا النبأ السعيد ، فراح يشارك الجميع فى فرحهم . وحين عادت فايزة لم يحاول أن يسألها لماذا أرادته فقد اطمأن إلى الظن الذى خامره . وطالت الجلسة بعض الحين ، وأمسكت فايزة خلسة ورقة وراحت تكتب عليها كلاما . وحين رأت الأنظار متجهة إليها راحت ترسم على الورق أشكالا لا معنى لها ، ثم تقطعه وتلقيه إلى السلة . حتى إذا اطمأنت أن الجالسين ظنوا أنها تتسلى قامت وهى تقول :

— إنى متعبة ... سأنتظركم بالدور الأعلى ... أظنك لن تصعد يا آبى خيرى ... أراك بخير .

وتقدمت منه ومدت إليه يدا مطبقة الأصابع ، وما إن انفرجت يدها فى يده حتى أحس ورقة صغيرة تنتقل إليه ، فأدرك أنها تريده فى أمر لا تحب أن يعرفه غيره . فأمسك بالورقة فى خلسة وواراها عن الآخرين ، وانتهز فرصة العيون التى تبعت فايزة فى خروجها ووضع الورقة فى جيبه .

وتبعت دولت فايزة ، ولكن صوت فايزة سرعان ما بلغهم مناديا :

— أبله وفية ، تعالى إنى أريدك .

وخرجت وفية وبقى الأخوان معا ، وقال خيرى :

— مبروك يا يسرى .

وقال يسرى .

— مبروك أنت أيضا ... إن ابنى هو ابنك .

وقال خيرى :

— الله يجازيك أحس نفسى عجوزا ... أحس كأننى جد .

وضحك يسرى ، ولكن خيرى لم يكن خالص الفرحة فقد أفسدت هذه الورقة المطوية فرحته . وأوشك أن يسأل أخاه إن كان قد أغضب فايزة ولكنه خشى أن يفشى بهذا السر الا تريد صاحبته له أن يذيع ، فلم يجد شيئا يقوله إلا أن يستأذن وينصرف .

وحين بلغ خيرى الشارع وقف عند أول عمود نور ، وأخرج الورقة المطوية من جيبه وقرأ « أريدك غدا فى الصباح » .

١٢

حين بلغ خيرى عزت باشا وجد فايزة قد أعدت العدة لتنفرد به ، وما أن خلت بهما الحجرة حتى أقفلت الباب بالمفتاح ووضعت الورق والقلم على منضدة جعلتها بينها وبين خيرى . ثم راحت تقص على خيرى ما رأته باذلة أقصى جهد تطيقه إنسانة طعينة تحرص ألا يرى أحد الدماء النازفة أو الجرح الغائر ... وقد زاد جهدها ألدماء نزيفا والجراح غورا أمام عينى خيرى الإنسان الكبير ... رأى فى وجهها العذاب نيرانا ، ورأى فى وجهها جهادها أن تخفى هذه النيران ، ولم تبك ولكن خيرى بكى . وما إن رأت دموعه حتى انهارت عزيمتها الصلبة فوجدت نفسها تميل على المنضدة بينهما ، ثم وجدت نفسها تنطلق فى نشيج يندلع من أقصى حيات قلبها ، حتى لخيل لخيرى أنه سيرى عن قريب قلبها يتسرب من عينيها . ولكنه لم يشأ أن يذكرها بوجوده ... لم يربت كتفها ولا كتب لها أن اصبرى ... لم يفعل شيئا فقد رأى أن خير ما تفعله هو أن تبكى وخير ما يفعله هو أن يسكت .

حتى إذا هدأ نشيجها ورفعت وجهها المخضب بالدموع نظر إليها خيرى نظرة طويلة فيها حنان وفيها أخوة وحرص ألا يبدو فى نظرته عطف أو إشفاق ... ثم كتب « ماذا تريدين أن أفعل ؟ » .

وقالت :

ـــ لا أريد دولت ... ولا أريد أن أطردها أنا .

وأومأ خيرى أن نعم ... إيماءة فيها حزم وفيها وعد لا شك فى تنفيذه . ثم كتب

« هل تريدين شيئا آخر ؟؟ » .

وقالت فى حزم :

ـــ لا ... اترك الباق لى ... لا أريد يسرى أن يعرف أننى رأيته .

وأومأ أنه لن يعرف . ثم كتب « اطلبينى فى أى وقت ... وسأنفذ لك ما تشائين » ثم قام فقامت وأمسكت يده بكلتا يديها وراحت تربتها وهى تقول :

ـــ أنت دائما أخونا ... أنت عندنا مثل محسن ... وأنت تعرف .

وأطرق خيرى ولم يقل شيئا ، وربت يدها بيده ثم أخذ طريقه إلى الباب ، فأدار فيه المفتاح ثم أخرج المنديل من جيبه ومسح دموعه ووقف هنيهة يتهيأ للقاء الناس ، تنحنح وخرج يجاهد نفسه ألا يلتفت إلى فايزة .

* * *

قصد خيرى من فوره إلى الشركة ، وحين دخل حجرة السكرتير وجد بها شابا فى سن يسرى إلا أنه كان مهمل الثياب ، ووجد السكرتير ينظم أوراقا على مكتبه كأنه لا يجد شيئا يعمله . وقال خيرى :

ـــ البك موجود ؟

فانتبه إليه السكرتير وحدق فيه هنيهة ثم قال :

ـــ هل هناك موعد ؟

فقال له خيرى فى هدوء :

ـــ قل له أخوك يريدك .

وانتفض السكرتير يفتح باب يسرى ، ونظر الشاب الجالس إلى خيرى وهمّ أن يقول شيئا . وانتظر خيرى هنيهة أن يسمع ما يريد الشاب أن يقول ولكنه رأى فى عينيه أنه عدل عما يزمع قوله ، فعبر خيرى الباب إلى يسرى .

ودهش يسرى لحظة من قدوم أخيه ، ثم ما لبث أن وثب إليه يرحب به مبالغا

ى الترحيب فقد كان فرحا حقا بزيارة أخيه .

وقال خيرى :

— استطعت أن أجد فرصة لترك المكتب فقلت أزورك فى شركتك التى لم أرها .

— أهلا ... أهلا ... كم أنا فرح بزيارتك هذه يا آبى خيرى .

ولم يترك السكرتير لهما فرصة للحديث ، فقد دخل يحمل دوسيه أوراق وعاجله يسرى قائلا :

— ألا تستطيع الانتظار ؟

فقال السكرتير :

— إنها عملية عاجلة يا سعادة البك .

فقال خيرى :

— لا تعطل عملك ... انظر الدوسيه .

وتقدم السكرتير إلى يسرى ووضع الدوسيه أمامه ، وقرأ يسرى عنوانه ... إنها عمليّة شركة النقل . وأوشك أن يقول للسكرتير اتركه ولكنه سرعان ما أدرك ألا فائدة ترجى من تركه ... وسرعان ما أدرك أنه سيوقع ، وقال فى نفسه « خير البر عاجله » ، ثم ابتسم ابتسامة ساخرة وهو يقول فى نفسه « الأولى بى أن أقول خير الشر عاجله ... ربنا يستر » ... ثم نظر إلى أخيه وقال فى نفسه « ترى ماذا يفعل بى لو عرف أى عملية هذه التى أوقعها ؟ » ، وكان خيرى متشاغلا بالنظر فى أرجاء الغرفة الأنيقة فلم ير ما مر بأخيه فى هذه اللحظات من سخرية بنفسه ومن حيرة وقلق .

وأعاد يسرى عينيه إلى الورق ثانية وهو يقول فى نفسه « الأمر لله » ، ثم سخر من نفسه وهو يقول دون أن ينطق : « بل الأمر للشيطان » ... ثم سمعه أخوه

يقول :

ــ هيه !!

ثم أجرى قلمه فى سرعة على الورق وكأنه يدفع بخنجر إلى جسم ... وخيل ليسرى أنه يطعن ضميره ولكنه وقع ورفع الورق إلى السكرتير فى سرعة يريد ألا يراه ثانية . وعاد إلى أخيه يرحب به .

ودار الحديث بينهما ... حتى قال خيرى فجأة :

ــ يسرى ما صلتك بدولت ؟

وامتقع وجه يسرى وجف ريقه ، وتولاه ذهول طغى على تفكيره ، وظل شاخصا إلى أخيه باهتا لا يدرى بماذا يجيب ، حتى أكمل جملة جمع حروفها من شتى النواحى .

ــ ما المناسبة ؟

وأدرك خيرى ما يمر به أخوه من حيرة واضطراب ، فقال وقد عزم أن يزيد من حيرته واضطرابه :

ــ لا فقط أريد أن أعرف ؟

وصمت يسرى لحظات ثم قال :

ــ علاقة عادية .

وتوغل خيرى فى أخيه بعينيه وأطال التحديق ، ثم قال :

ــ هيه ... أهكذا ؟

ثم صمت فصمتت الحجرة إلا من صوت واهن هو صوت يسرى يحاول أن يعيد إلى لسانه ليونة فارقته ... ولما طال الصمت قال يسرى :

ــ هل هناك شىء ؟

وقال خيرى فى حزم :

ـــ والله نعم ... هناك شيء .
واستجمع يسرى نفسه ليقول :
ـــ خير ؟
وقال خيرى :
ـــ لا والله ... ليس خيرا .
ـــ ماذا ؟... ماذا حدث ؟
ـــ ألا تعرف ؟
ـــ آبى خيرى هل هناك شيء ؟.. أرجوك . لا تعذبنى ؟
ـــ اسمع يا يسرى ! هل تصر أن تبقى دولت بالبيت ؟
وأطرق يسرى طويلا ثم قال :
ـــ ماذا أفعل ؟
ـــ ألا تذهب إلى أخيها ؟
ـــ وما شأنى أنا ؟... إنه ليس بيتى
ـــ يسرى ... أرجوك لا تلف على
ـــ أنا ؟!
ـــ نعم أنت ...
ـــ آبى خيرى ... هل سمعت شيئا ؟.. هل قال لك أحد إن هناك شيئا .
ـــ يسرى إننى واثق أن بينك وبينها أشياء .
ـــ هل أخبرك أحد بذلك ؟
ـــ هل رآكما أحد حتى يخبرنى ؟
وأدرك يسرى أن أخاه يريده أن يعترف ، أدرك أنه لو قال « لا » اعترف ، فصمت هونا ثم قال :

— ليس بيننا ما نخفيه .

وصمت خيرى ثم قال :

— إذن فأقوم أنا .

واضطرب يسرى وخشى أن يتركه أخوه هكذا معلقا دون أن يطلعه على حقيقة ما يعرفه ، فتشبث ببقائه قائلا :

— لماذا ؟... لماذا تقوم ؟

— لأنك تصر على أن تدور على وتلف .

— ماذا تريد ؟

— لا أريد دولت أن تبقى فى البيت .

— هل سمعت شيئا ؟

— إنى أعرف دولت وأعرفك .

وارتاح يسرى بعض الشيء واطمأن أن علم أخيه قائم على الاستنتاج فاستقر مضطربه . وكان ترك دولت للبيت أمرا يفكر فيه هو بل إن دولت أنبأته فى الأمس أنها تريد خمسين جنيها لتعود فتاة عند الحاجة ... الحاجة ... قالت الحاجة من .. لا يهم ... فلماذا لا يعطيها ما طلبت ، ويزوجها ؟.. والله فكرة ... من يتزوج بها ؟.. إنها هى أيضا لا تريد البقاء وتريد أن تستقل ببيت فلماذا لا ينفذ هذا ؟.. ولكن من يتزوج بها ؟.. من ... من ؟ وقبل أن يبدأ أخوه الحديث ثانية دخل السكرتير ليقول :

— الأستاذ صبحى ... هل ينتظر ؟

وانتفض يسرى عن مقعده وهو يقول :

— هو ... إنه هو .

وقال أخوه :

ـــ ماذا ... ما بك ؟

فقال لأخيه وقد استعاد ثباته :

ـــ لا .... لا شيء .

ثم قال للسكرتير :

ـــ اسأله أن ينتظر فسأطلبه حالا .

وخرج السكرتير وقال خيرى :

ـــ هيه ... أأتركك لتفرغ لعملك ، أم أنتظر دقيقة أخرى لأسمع منك كلاما مستقيما لا لف فيه ولا دوران ؟

وقال يسرى وقد اطمأنت فكرة فى ذهنه :

ـــ ماذا تريد منى ؟

ـــ اطلب إلى دولت أن تخرج .

ـــ وما الحجة التى تقدمها لتخرج ؟

وأرتج على خيرى هنيهة ثم قال :

ـــ هذا شأنها وشأنك ... لتقل إنها ستتزوج ... أو لتقل إن أخاها يريدها ... أو لتقل ما تشاء ... المهم ألا تبقى فى البيت . فإن نظرات الخدم أمس لم تعجبنى ، وأخشى أن تنتقل نظرات الخدم إلى السادة .

فقال يسرى :

ـــ سأطيعك يا آبى خيرى ... وستسمع حالا أنى أطعتك .

وقام خيرى دون أن يشكره على هذا الأدب ولا على الترحيب الذى لاقاه به فقد كان لقاؤه مع فايزة لا يزال مسيطرا عليه .

وهم خيرى أن يخرج من الباب الذى دخل منه ولكن يسرى عاجل يسبقه قائلا :

— بل من هنا يا آبى خيرى ... فهذا بابى الخاص ... لا تزرنى بعد اليوم إلا منه .

ولم يقل خيرى شكرا بل واصل طريقه إلى باب الشركة الخارجى ، ويسرى من خلفه يتبعه حتى خرج إلى الطريق .

وعاد يسرى إلى مكتبه مسرعا ، واستقر على كرسيه وطلب أن يدخل إليه صبحى . ورحب يسرى بصديقه ترحيبا بالغا وراح يسأله عن زملائهما ، وراح صبحى يجيب فى لعثمة أول الأمر ثم انطلق لسانه فى ظلال الذكريات ، ووجد نفسه دون أن يحس قد عاد مرة أخرى زميلا لهذا الجالس على الكرسى الأنيق لا يفصله عنه منصب كبير حين هو بلا منصب على الإطلاق ، ولا يفصله عنه غنى وجاه حين هو بلا غنى ولا أمل فى الجاه ... تحادث الصديقان وجمحت بهما الأحاديث حتى لقد نسى يسرى نفسه هو أيضا ، وراحت الذكريات ترفرف عليهما بجناحين فيهما حنان ولها فى القلب وجيب قوى الأخذ آسر . وكاد يسرى ينسى ما انتوى أن يقوله لصديقه بل كاد صبحى نفسه ينسى ما جاء له وقد جاء لحياته . قليلا ما ترفرف هذه الأجنحة ، وقليلا ما يدوم هذا الحنان فى حجرة اجتمع فيها اثنان لكل منهما عند الآخر نشيدة ترتجى وأمل مرموق . غير أن يسرى عجب من نفسه أن أحست هذا الدفء ، وعجب من نفسه أن تسيطر عليه الذكريات فيلتذ أسكوبها . وسرعان ما أفاق إلى مجلسه ومنصبه فحرص أن يشيع فى الغرفة صمت ، وحرص ألا يفاتح صبحى فيما جاء له فقد أراده أن يكون هو البادئ بالطلب . وسرعان ما استرد صبحى نفسه من الأيام الغابرة ليعيش فى حاضره ويذكر ما نسيه من فوارق ومن فراغ ومن فقر وشظف عيش :

قال صبحى :

— ماذا عملت لى ؟

واصطنع يسرى النسيان فقد كان يعلم كيف يصطنع النسيان :

ــ فيم ؟

ــ فى مسألتى .

ــ آه ... الوظيفة .

ــ نعم .

وأطرق يسرى ليقول :

ــ والله يا صبحى المسألة معقدة .

ــ ألا أمل يرجى ؟

ــ كل شىء ممكن ... إلا أن المسألة صعبة جدا ... فالوظائف معدومة والشركة تشكو كثرة الموظفين . وقد نبهنا مجلس الإدارة مرات إلى تضخم اعتماد الوظائف حتى إننا نفكر فى هذه الأيام فى توفير بعض الموظفين .

وأطرق صبحى صامتا آسفا يرى أمله يصرع بعد أن كان قد أنشأه فى نفسه فكبر حتى كاد يصبح حقيقة ، ولم يجد ما يقوله إلا :

ــ أى وظيفة يا يسرى ... يا يسرى بك ... لا يهمك أننى أحمل شهادة عالية فقد أصبحت الشهادات اليوم عقبة أمامنا ، وضاق بى أبى وأصبح فى كل يوم يصبحنى ويمسينى بقوله : « ها قد تعلمت فهل جئت بالسبع من ذيله . لو تعلمت الصنعة مثلى لكنت اليوم تأتى بأكلك على الأقل » . وحياتى أصبحت لا تطاق حتى أمى أصبحت تضيق بى ، اللقمة التى أتناولها فى بيتى لا أستطيع أن أبتلعها فإنى أحس أنها حق إخوتى الذين يعملون مع أبى ، أو حق أبى الذى يشقى نهاره وليله ليأتى بها ... وإنى أحس أنظار البيت جميعه تحدق باللقمة فى طريقها إلى فمى فتمسك أنظارهم بها وأعيدها إلى الطبق وأقوم ... جوعان ، أرى الأكل ولا أطيق أن آكله ... تعافه نفسى وأحتاج إليه ... أى عمل يا يسرى ...

يا يسرى بك :

وانهار صبحى باكيا فى نشيج مكتم لا يعلو ، ولم يملك يسرى إلا أن يقول :

ــ الله صبحى ... ما بك يا رجل ؟... تشجع إنك رجل !

فقال صبحى :

ــ لا رجولة مع الحاجة أبدا .

فقال يسرى وقد قام يقف إلى جانب صبحى ويربت كتفه :

ــ تهون يا صبحى ... تهون إن شاء الله ... اسمع .

ــ نعم .

ــ هل أنت متزوج ؟

وأفاق صبحى إلى صديقه إفاقة تامة :

ــ نعم ... ماذا قلت ؟

ــ هل أنت متزوج ؟

ــ وهل أجد طعامى حتى أتزوج ؟ إن كان أهلى لا يحتملوننى وحدى فهل يحتملون معى فما آخر ؟!

ــ ما رأيك لو تزوجت ؟

ــ وهل هذه وظيفة ؟

ــ نعم .

ــ لا أفهم .

ــ أخت عضو مجلس الإدارة المنتدب ... تتزوجها اليوم تصبح غدا من كبار موظفى الشركة .

ــ ولكن ؟!

ــ ماذا ؟!

ــ هل بها عيب ؟

ــ أبدا .

ــ إذن فلماذا تتزوجنى ؟

ــ تركها أخوها وسافر إلى أوروبا ، وطال غيابه بها فلم تتزوج ، وسنها اليوم كبيرة بعض الشيء ولكن الفارق بينكما لا يذكر .

ــ أهى عجوز ؟

ــ سأجعلك تراها !

ــ ومن أين آتى بالمهر والملابس ؟

ــ الملابس يسهل تدبيرها .

ــ والمهر ؟

ــ أسلفك .

ــ ومن أين أسدد ؟

ــ من مرتب الشركة .

ــ إذن ؟

ــ سأجعلك تراها غدا .

ــ غدا ؟!

ــ غدا .

ــ وهو كذلك .

وخرج صبحى على موعد فى الغد ، وكان الموعد بجزيرة الشاى فى حديقة الحيوان يراها هناك مع يسرى .

وما إن أقفل صبحى الباب من خلفه حتى أمسك يسرى بسماعة التليفون وطلب بيته ، وحين أجابته دولت قال لها :

— الآن فى بيت أخيك .

وتأكد أن الدكتور حامد بالشركة ثم نزل .

* * *

وحين التقى يسرى بدولت بادر فأعطاها ورقة بخمسين جنيها وهو يقول :

— غدا سيراك العريس بحديقة الشاى معى ، ثم تذهبين من فورك إلى الحاجة ... الحاجة ...

فقالت دولت :

— توحة ... الحاجة توحة ... ولكن من العريس ؟

— شاب متعلم سأعينه فى الشركة بعد زواجك مباشرة .

— أكبير هو فى السن أم صغير ؟

— فى سنى أنا ... سترينه غدا ... قومى الآن ، فإنى سأعود إلى الشركة .

ونظرت إليه مليا ثم قالت مفكرة :

— طيب ، اذهب أنت .

٣٨

لم يكن فرح دولت كبيرا فقد حرص الدكتور حامد أن يكون فى أضيق الحدود الممكنة ، وقد حضر عزت باشا الفرح وفاء منه لدولت كما شهدته وفية ومحسن ونادية وإجلال هانم وسميرة هانم ، إلا أن فايزة استطاعت أن تجعل من حملها سببا قويا للاعتذار فلم تحضر ، كما استطاع خيرى أن يجد عذرا فلم يشهده هو الآخر ، فهو لا يعرف صبحى ولا يحب أن تقوم بينه وبين دولت صلة من بعد ، ولم ينتبه أحد إلى غياب الاثنين غير يسرى ، إلا أنه سرعان ما نفض عن ذهنه أن زوجته تعرف شيئا ... وكان العروسان قد استأجرا شقة صغيرة بالغة الصغر ، فما إن انتهت الليلة حتى انتقلا إليها وانفض السامر الصغير فى شقة الدكتور حامد الفاخرة .

* * *

كان يسرى فى مكتبه صبيحة الزواج حين اقتحم صبحى عليه الباب وهو يقول فى غضب وسخرية :

ــ صباح الخير يا أستاذ .

ووقف يسرى محاولا أن يتجاهل ما كان واضحا فى الاقتحام والصوت من معان مخيفة :

ــ أهلا وسهلا ... أهلا بالعريس .

وقال صبحى دون أن يهدأ غضبه أو تخف سخريته :

ــ أهلا بك ... من العريس ... أنا ؟

وقصد يسرى إلى الباب فأقفله ، والتفت إلى صبحى قائلا :

— ماذا بك يا صبحى ؟.. اجلس .

— لن أجلس .. أريد مقابلة عضو مجلس الإدارة المنتدب .

— لماذا ... خير ؟

— خير طبعا ... وأى ... أخبره عن أخته وعن الحاجة توحة والعملية الفاشلة التى أراد الله لها أن تفشل حتى أفتح عينى ولا أصبح ما أردت لى أن أكون .

وأدرك يسرى كل شىء ، ولكنه سرعان ما تمالك أمر نفسه وقال :

— اجلس ... اجلس أولا .

قال صبحى :

— ولماذا أجلس ؟.. أنا نسيب البك عضو مجلس الإدارة ... أريد أن أقابله ... أنا أقرب إليه منك وهو أقرب إلىّ منك ... أنا نسيب البك ... لا بد أن أقابله .

وقال يسرى فى جرأة :

— اجلس يا أخى ... ماذا تريد أن تقول له ؟

— ماذا أريد أن أقول له ... ألا تعرف ؟

— وماذا تنتظر أن يفعل لك ؟.. تظنه سيحتضنك ويشكرك ويقدم إليك الوظيفة التى تريدها ؟!

وحين سمع صبحى لفظة الوظيفة جلس وصمت ، وقال يسرى :

— اهدأ هكذا ولنتفاهم ... إن أمورا مثل هذه التفاهم فيها مهم ومفيد .

— مفيد ... مفيد ؟!

— نعم مفيد .

— أهكذا ... أرنى يا سيدى كيف يكون التفاهم مفيدا ... فمنك

نستفيد ؟

ــ نعم منى تستفيد ... وما المانع ؟

ــ تفضل قل .

ــ المشكلة أنك وجدت عروسك ليست فتاة ... أليس كذلك ؟

ــ هأنتذا تعرف !!

ــ كيف يمكن أن تصبح فتاة ؟

ــ حاولت الحاجة توحة فلم تفلح .

ــ قد يفلح غيرها .

ــ لا أفهم شيئا .

ــ ألا تفهم ؟

ــ أفصح .

ــ ألا تستطيع أنت ؟

ــ أنا ... أنا .

ــ نعم ... من سيعلم بالحقيقة ... هذه مسألة بينك وبين زوجتك لا يعرف بها غيركما . وأنت لم تتزوجها حبا فيها وإنما حبا فى الوظيفة ، والوظيفة مضمونة مادام بينكما الزواج .

ــ وأسكت ؟!

ــ فإذا أضفنا إلى الوظيفة مبلغا صغيرا من المال يكون رأس مال لكما ولأبنائكما ، ألا يعوضك هذا عن زوجة فتاة ؟

وسكت صبحى وأطرق وانهلت من عينيه دمعتان وكأنما تسربت فيهما سخريته التى صحبها ، فأخرج المنديل الأنيق الذى أهداه إليه يسرى وأزال دمعتيه ، وأزال معهما البقية الباقية من غضبه وقال :

ـــ لا بد أن يكون التعويض كبيرا .

ـــ سيكون مجزيا .

ـــ خمسمائة جنيه .

ـــ فإن كان مائتين .

ـــ اجعله ثلاثة .

ـــ مائتان ، ولا ترد المائة جنيه التى اقترضتها منى

وأطرق صبحى وصمت ، وأخرج يسرى دفتر الشيكات وكتب شيكا جعله لحامله وأعطاه صبحى الذى وضعه فى جيبه وهو يقول :

ـــ متى أتسلم الوظيفة ؟

ـــ ألا ترى أن تنتظر بضعة أسابيع حتى لا تحرج الدكتور حامد ؟

ـــ على ألا تصل إلى شهور .

ـــ توكل على الله ... فترة أسبوعين أو ثلاثة وأكتب قرارا بتعيينك وأجعله يوقعه .

ـــ وهو كذلك .

وخرج صبحى غير غاضب ولا ثائر ولا حائر أيضا ، فقد علمته أيام الشظف التى عاشها مع أبيه وأمه ألا يغالى فى غضبه ، كما علمته أن الطريق وعر على رواده ، كما علمته النقود أن يكون هادئا ما وسعه الجهد .

وحين خلا يسرى بنفسه راح يفكر فى هذه الوظيفة التى وعد بها صبحى . لم تعد هينة المأخذ كما كان يظن حين وعده بها أول الأمر ، فقد كثرت الصفقات المريبة التى عقدها الدكتور منذ ذلك الحين ، وأصبح مجلس الإدارة كثير التشكك ، وكثر التساؤل بين أعضاء المجلس والدكتور حامد لا يريد أن يكف عن صفقاته ولا يريد أن يستمع إلى تحذيره ، بل هو ماض فى سبيله لا يكترث

بأحد ولا بشيء فكيف يستطيع اليوم أن يعين زوج أخته ، وكيف يوافق المجلس على هذا التعيين ؟

* * *

مرت شهور بعد الأسبوعين والثلاثة وصبحى يقدم فى كل حين يستنجز يسرى وعده ، ويسرى يستمهله ، ويلجأ إلى حامد فيستمهله أيضا مدركا ما يحيط به من حرج . وكان صبحى لا يستطيع أن يطلب مالا من حامد ، وما كان ليعطيه لو هو طلب فقد كان يجهل كل شيء .. ولكن صبحى كان يلجأ إلى يسرى فيعطيه عشرة ثم خمسة ثم جنيهين ، ثم جاء يوما إليه وهو يقول :

ـــ وبعدين يا يسرى ؟

ـــ وبعد فيم ؟

ـــ الوظيفة ؟

ـــ نحن فى موقف غاية فى الدقة ... وما إن نخرج منه حتى تعين على الفور !

ـــ وأنا ماذا أفعل ؟

ـــ وأنا ماذا أفعل ؟

ـــ لقد طال الوقت وطال ...

ـــ ألا أعطيك ما تطلب ؟

ـــ أتمن علىّ بما تعطى ؟.. إنك مضطر لذلك

ـــ وما يضطرنى ؟

ـــ ألا تعرف ؟

ـــ آه ! هذه الحكاية القديمة ؟

ـــ ماذا !! أصبحت قديمة ؟

ـــ ألم تعرف هذا ؟.. ألم يمر على زواجك شهور ؟.. أتريد بعد هذه الشهور

أن تقول ؟..

وأدرك صبحى الموقف على حقيقته ، وقال يسرى :

— أتظن أننى مضطر لإعطائك ... لا يا أخى ... أنا أعطيك لله ... لا لأننى مرغم !!

وأطرق صبحى ، وقام صامتا وخرج .

٣٩

كان خيرى جالسا فى حجرة أمه ، وهى تصلى جالسة على كرسى جاعلة ركوعها وسجودها على نضد اتخذته أمامها ، وكانت نادية تقرأ شعرا على أخيها وهى مأخوذة بجمال الشعر ، فهى تلقيه فى إعجاب وقد صعدت الدماء إلى وجهها فزادت براءتها جمالا وروعة ، يتهدل شعر ذهبى على جبينها فترفعه فى غير كلفة ولا اصطناع ، وعيناها بريق أخضر أودعهما حب الفن شعاعا من نور فهما تتألقان ، وينساب الشعر من بين شفتيها موسيقى رخية النغمات عميقة فيخيل إليك أنه نبض قلب أو نبض شباب ، وخيرى ينظر إليها بإنعام مأخوذا بقوامها الأهيف وجمالها الطاغى الهادئ وصوتها الناغم الندى ، ويجد فى نفسه لهفة أن يضمها بين ذراعيه فيناديها إليه ويطويها فى حنان أب بين أحضانه ويقبلها وهو يقول :

— أنت خير قصيدة رأيتها أو سمعتها ...

وتقول فى خجل :

— وبعد لك يا آبى خيرى ... ألا تجعلنى أكمل القصيدة ؟.

— كم أغار من ذلك الشاب الذى سيأتى يوما ليأخذك منا .

وقالت نادية وقد ازداد خجلها :

— آبى خيرى .

وتفرغ الأم من صلاتها وهى تقول :

— ستفسد البنية يا ولد بكثرة مديحك لها .

— نادية لا تفسد أبدا ... ربنا يحميها .

وضحكت الأم ونادية فى جذل ، ودق جرس الباب فقالت الأم :

— افتح الباب يا خيرى دادة زينب لم تعد قادرة على المشى فى سهولة ... يا ابنى أين بنت عبد التواب التى قلت إنك ستحضرها من البلد ؟

ولم يستطع خيرى أن يجيب أمه فقد شخص إلى الباب ، وما إن فتحه حتى وجد نجيبا واقفا به وكان قد غاب عنه فترة طويلة ، فصاح به :

— أهلا ... أين أنت يا ولد ؟

— ألا تسأل أنت ؟.. النهاية ... أريد فنجان قهوة .

وقاد خيرى صديقه إلى غرفة الجلوس وأقفل الباب ، وعاد إلى نادية يطلب إليها أن تصنع لهما قهوة .

وحين استقر المجلس بالصديقين راحا يديران بينهما الحديث ، ونجيب يقص على خيرى ما يعرض له فى مهنة المحاماة التى احترفها والتى أصبحت تدر عليه ربحا مرضيا ... وبعد قليل وقت سمع خيرى طرقا على الباب فقام يحضر القهوة من نادية ، وقال نجيب وهو يشربها :

— أين تذهب اليوم ؟

— أمرك .

— عندى لك هدية .

ـــ خيرى ؟

ـــ بيت جديد عرفته

ـــ كبيت مصر الجديدة !!

ـــ والله عمك كان رجلا عظيما ... ماذا فعل الله به ؟!

ـــ مات وتزوجت الآنستان من شابين موظفين محترمين

ـــ أتعرف العناوين ؟

ـــ يا حبيبى لذة العيش فى التنقل ... التنقل يا حبيبى التنقل ... البيت الذى ستذهب إليه اليوم فيه امرأة لا تراها ولا على الشاشة الأمريكية .

ـــ وفيه لك عم أيضا ؟!

ـــ لا ... أخ ... فزوجها رجل طيب ، وابن حلال ويرضى بالقليل .

ـــ وما القليل ؟

ـــ جنيهان !

ـــ جنيهان ؟! ألا تذكر القروش ؟

ـــ الحرب يا سيدى رفعت أسعار البضاعة ... كانت أيام ومرت ولن تعود ... ولكن الحق أن الجنيهين ثمن بخس بالنسبة للجمال الذى ستشاهده هناك .

ـــ سنرى

* * *

نزل الصديقان فى ميدان الدق وأخذ سمتهما إلى الشارع المفضى إلى الجامعة ، ولم يطل بهما المسير فقد أمسك نجيب بذراع خيرى وحاد به إلى عمارة حديثة . وصعد بهما المصعد إلى الطابق الأعلى فوجدا شقة لا تقابلها شقق أخرى ، فدق نجيب الجرس وفتح الباب شاب أنيق الثياب جرىء النظرة جبان المظهر ، وحدق



فيه خيرى يريد أن يتذكر أين رآه ... فقد كان واثقا أنه رآه ولكن أين ؟ لم يذكر .

وقاد الشاب الصديقين إلى حجرة للجلوس عبر ردهة صغيرة ضيقة ، ولم يتكلم وإنما غاب عنهما لحظات وعاد فوجد على المنضدة أربعة جنيهات لم يكن فى حاجة إلى عدها فوضعها فى جيبه ، ثم ترك الغرفة وما لبث الصديقان أن سمعا صوت الباب الخارجى يفتح ثم يغلق ، فقال نجيب لخيرى :

— قم .

فقام خيرى غير محتاج إلى دليل ، فلم يكن بالبيت إلا حجرة أخرى ففتحها ثم تولاه ذهول ... وصاح :

— دولت ؟!

ونظرت إليه دولت مشدوهة كأنما مسها صاعق ، ثم سارعت تضع يديها كلتيهما على وجهها ، وارتمت على الأريكة تبكى فى خزى وألم .

وترك خيرى الباب مفتوحا لم يقفله ولم يذهب إلى نجيب ، وإنما قصد إلى الباب الخارجى وانصرف .

٤٠

كان خيرى جالسا فى مكتبه بالوزارة منكبا على بعض أوراق حين أحس ظلا يلقى على الورق أمامه ، فرفع رأسه ليرى وجها حاول أن يتذكر صاحبه ، ولكن صاحب الوجه لم يمهله :

ـــ خيرى بك ... أنا سكرتير يسرى بك .

وقام خيرى ليحيى ضيفه ويسأله :

ـــ نعم ... هل هناك خدمة ؟

فنظر السكرتير إلى الموظفين الجالسين مع خيرى فى الحجرة ثم قال :

ـــ تسمح ... كلمة على انفراد .

ويخرج خيرى من مكتبه إلى الردهة الخارجية ويريد أن يقف ، ولكن السكرتير يمضى به تاركا الردهة ومبنى الوزارة جميعا ، حتى إذا آنس من الطريق مكانا منعزلا وقف وقال لخيرى :

ـــ أرجوك أن تسمع ما سأقوله لك فى هدوء ، كما أرجو أن تتصرف ، فالوقت أشد ما يكون حاجة إلى الحكمة .

ـــ قل ... ماذا هناك ؟

ـــ النيابة قبضت اليوم على يسرى بك وقد أرسلنى إليك .

ـــ ماذا ؟

ـــ مجلس الإدارة وجه إليهما التهمة بعد أن فصلهما من الشركة .

ـــ وهل عرف بيت يسرى شيئا ؟

— أمرنى أن أجىء إليك .

— وما رأيك ؟!

— لا علم لى بالعقود موضوع الاتهام ، ولكنى أعرف أن يسرى بك لم يكن يقبل مليما حراما منذ دخل الشركة . وقد رفت السكرتير الذى كان يعمل معه قبلى لأنه قدم إليه عميلا يريد أن يرشوه .

— أنت واثق ؟!

— من أمانته ؟ نعم ... ولكن الدكتور حامد دخل فى صفقات كثيرة ، وأخشى أن يكون قد أرغمه على الاشتراك فيها .

— طيب ... أشكرك .

وركب خيرى سيارة أجرة إلى منزله وصعد إلى أمه ، وقال لها وقد اصطنع الهدوء :

— نينا ! الدكتور حامد متهم فى اختلاس ، وقد قبض عليه !!

وفغرت سميرة هانم فاها وقد أوشكت أن تستنتج الخبر التالى :

— ماذا ؟

— وبالطبع قبض على يسرى معه .

ونظرت سميرة هانم إليه مليا وقالت :

— خيرى ... هل سرق يسرى ؟

— لا أظن !

— وماذا تنوى أن تفعل ؟

— أريد جزءا من حليك لأرهنه وأدفع أتعاب المحامى .

— هاك المفتاح .

* * *

وقصد خيرى إلى لطفى بك محمد أستاذ القانون الجنائى ، واصطحبه إلى مقر النيابة ، فوجد التحقيق جاريا مع حامد ، ووجد يسرى جالسا خارج غرفة التحقيق ، وحين اقترب منه وجد فى عينيه دمعات تبدو وتغيض ، وقال يسرى فى حزم وإباء :

— أنا لم أسرق يا آبى خيرى .

وأنعم خيرى فيه النظر ثم قال :

— نعم ... أعرف .

وجلس المحامى إلى جانب يسرى وراح يسأله عن الاتهام ، وما هى إلا لحظات حتى رأى يسرى زوجته فايزة قادمة يصحبها عزت باشا ووفية وعبد السلام بك هنداوى المحامى الكبير .

وتقدمت منه فايزة لم تسأله شيئا ولم تهتم بشيء إلا أن تقول :

— لا تخف يا يسرى ...

وانضم المحامى الكبير إلى زميله الذى جاء مع خيرى ، وراح ثلاثتهم يتحدثون ، وابتعد عنهم رهط الأقارب . وكتب خيرى لفايزة :

« ما كان لك أن تأتى يا فايزة » .

وفهمت فايزة ما يعنيه لكنها قالت :

— فمن يأتى ؟.. لماذا لم تقل لى ؟

وكتب « خشيت أن أتعبك » .

وقال عزت باشا وقد قرأ الورقة :

— لا تخش شيئا يا خيرى ... ولا تخجل من شيء ... فقد أديت أنت واجبك كاملا وللشباب طيشه .

وقالت وفية :

— يسرى لا يسرق .

وسكت أربعتهم ، ولاحظت وفية أن خيرى ينظر إليها نظرات فيها سؤال لا يريد أن يبوح به فقالت :

— جميل مشغول مع الوزير لم يستطع أن يجىء .

وفهم خيرى أن جميل خشى على منصبه وهيبة السلك السياسى ... فمهد له فى نفسه العذر وانطوى على خجله وصمت .

لم يمض وقت طويل حتى استدعى يسرى إلى التحقيق ، وصحبه المحاميان الكبيران .

وبدأت أسئلة النيابة تنهمر على يسرى وهو يجيبها فى حذر ، محاولا ما وسعه الجهد أن يحمى نفسه ويحمى الدكتور حامد ما أمكنته الوقائع من حمايته . وراح ممثل النيابة يستدرجه ويحيط به بما مرن عليه من مهارة وخبرة ، حتى إذا وجده صلبا فى دفاعه عن نفسه وفى دفاعه عن رئيسه فاجأه قائلا :

— وما قولك فى التهمة التى يوجهها إليك عضو مجلس الإدارة المنتدب ، من أنك وحدك المسئول عن كل العمليات محل الاتهام ، ومن أنه لم يوقع ورقة واحدة منها إلا بعد توقيعك ؟

وروع يسرى وخيل إليه أن ممثل النيابة يحاول أن يوقع ما بينه وبين الدكتور حامد ليعترف كلاهما ، ونظر يسرى إلى حامد نظرات متسائلة أشاح عنها حامد غير عابئ ، فقال يسرى :

— هو قال ذلك ؟!

وقال ممثل النيابة للكاتب دون أن ينظر إلى يسرى :

— أعطه المحضر ليطلع عليه .

وقرأ الاتهام صريحا واضحا ، بل قرأ سؤال النيابة للدكتور حامد « هل تشك

فى ذمة سكرتير الشركة ؟ » وقرأ إجابته : « لم أكن أشك فيها ولكننى بعد أن تبينت الآن ما كان فى هذه الصفقات من تلاعب أصبحت على يقين أن ذمته تقبل أى شىء » .

وأعاد يسرى الأوراق للكاتب مفجوعا حريصا ألا ينظر إلى حامد مرة ثانية مجاهدا نفسه ألا تتحول عيناه إلى حيث يجلس ... أطرق يسرى وسكت ... إذن فهذه هى الحياة التى يعرفها الدكتور حامد ولا يعرف غيرها ... النجاح عن أى طريق ، والكسب من أى سبيل ؟ فإن اعترض طريقه عارض فيده إلى أقرب شخص تصل إليه يده ويضعه تحت قدميه ليعبر هو ... وإن انهدم المعبر بعد ذلك ... نعم وإن انهدم وانهار وأصبح لا شىء إلا ذرا من الغبار . تلك هى مثله ، وتلك هى العقلية الناضجة المتحررة من تقاليد الماضى المتوثبة إلى آفاق المستقبل الثائر على القيم والأخلاق وكل الخرافات التى يقول بها خيرى ... أهى خرافات ؟. أم ترانى أنا الذى كنت أعيش فى خرافة يقودنى ويقدم خطاى فارس من فرسان اللاأخلاق واللاقيم واللامثل واللاشىء على الإطلاق إلا اهتبال الفرص السانحة وتحطيم كل ما يعترضنى ومن يعترضنى لبلوغها ؟ أما آن لخيرى أن يسخر ؟.. وأحبب بسخريته إن فعل ... ولكنه فى نبله لن يسخر ... بل ها هو ذا خارج الغرفة يصحب أكبر المحامين ، الله وحده يعلم كيف دفع له أتعابه ، ومعه الرجل الذى سكب على فضله فلم ير منى إلا استغلال اسمه واستغلال منصبه ، ومعهما الزوجة التى تزوجتها لمالها وخنتها ... أتعلم بخيانتى لها ؟.. لا ما كانت لتجىء لو كانت تعلم ... لا فلا يمكن أن تصل بها الملائكية إلى هذا المدى ، فقد يكون بين الناس من وصلت أرضيتهم إلى ما وصلت إليه ولكن ليس بين الناس من تصل بهم الملائكية إلى الحد الذى أتصوره ... لا يمكن أن تكون قد علمت بما كان بينى وبين دولت ثم تجىء ... ولكن أليست رائعة فى مجيئها إلى هى

وأختها وأبوها ؟.. وأبوها من هو اسما وقدرا ، وهى وأختها من هما شرفا ... لم يقل الرجل ولم تقل واحدة منهما : بعيدا عن العفن ... بعيدا عن المستنقع الذى تردى فيه هذا الذى غال حمانا ، ودنس اسمنا ، وهوى بما كافحنا فى بنيانه من شرف ومجد ورفعة ... لم يقل واحد من ثلاثتهم هذا وإنما جاءوا ليقفوا إلى جانبى ولأراهم لى ركنا ، فى حين أرى من سعيت به إلى مكانته ... أرى ذلك الذى أحاول أن أحميه ... أرى ذلك المثل الذى جعلته أمامى وتتبعت خطاه يرمى بى إلى الوحل محاولا أن يدوسنى ليمر هو وأموت أنا فى الطين .

حرص يسرى مرة أخرى ألا ينظر إلى حامد فقد تمثل له شيطانا من ماضيه قائما أمامه ، فهو يريد أن ينساه أو يعمى فلا يراه .

طال الصمت فى غرفة التحقيق ، وترك ممثل النيابة يسرى لصمته لم يقطعه مقدرا ما أصابه من التهمة التى وجهها إليه حامد ، يمنعه العطف أن يلح عليه بالأسئلة فى غمرته هذه ، مرتئيا أن التفكير الذى يتجه له الصمت قد يهديه إلى الاعتراف ...

وقال ممثل النيابة آخر الأمر :

— ما أقوالك ؟

وانتبه يسرى إلى واقعه ، وصمت هنيهات أخرى ثم قال :

— أرجو تأجيل التحقيق إذا كان ذلك ممكنا .

— إذا تأجل التحقيق فسيستمر حبسك حتى نواصل التحقيق .

وقال الأستاذ عبد السلام :

— ألا تستطيع الإجابة الآن ؟...

وقال يسرى فى انهيار :

— أفضل أن يتأجل التحقيق ... لا أستطيع الإجابة ... حالتى لا تسمح

وأصدر ممثل النيابة أمره بالقبض على يسرى وحامد على ذمة التحقيق .

واقتيد يسرى إلى الحبس وفايزة والهة لا تدرى ماذا تم فى أمره ، لا تجد أحدا يكتب لها ما انتهى إليه التحقيق حتى سارع إليها خيرى ينبئها ، وانصرف الجميع تحيط بهم أشجان وحيرة .

وفى الصباح الباكر كان خيرى وفايزة أول من حضر إلى دار النيابة وتبعهما المحاميان ، وجىء بيسرى وحامد من الحبوس . وحين حاول أن يقول شيئا ليسرى أشاح عنه بوجهه فكأنه لم يعرفه يوما ، أو كأنه يريد ألا يذكر أنه عرفه يوما .

كان يسرى قد استقر على رأى ... وحين ابتدأ التحقيق معه أصر على خطته من الدفاع عن نفسه وعن حامد معا ، ولم تجد النيابة أدلة قوية تسمح لها أن تأمر باستمرار الحبس فأفرجت عن المتهمين بكفالة قدرها خمسون جنيها لكل منهما ... وخرجا ... وأراد حامد أن يحادث يسرى ثانية فلم يلتفت إليه ، بل سارع إلى السيارة يريد ألا يلقاه فكأنما يهرب من ماضيه كله ومن آرائه ومن الأيام التى عاشها فى ظلال هذا الرجل .

وفى السيارة جلست فايزة وإلى جانبها يسرى وإلى جانبه خيرى ... ولم يملك يسرى أن يسكت ، ولم يأبه بالسائق الذى يقود بل التفت إلى أخيه يسأله :

— أبى خيرى ... هل تعلم فايزة شيئا عن ...

ثم نظر إلى السائق ومال على أذنه يسأله :

— عن دولت ؟

ودهش خيرى من السؤال ، وعجب أن يكون هذا هو أول سؤال يلقيه عليه بعد هذه المحنة التى مرت به فسأل :

— ما المناسبة ؟

ــ أريد أن أعرف .

ــ لست فى حل أن أقول .

ــ فهى إذن تعلم .

وصمت خيرى فقال يسرى :

ــ فهى التى أنبأتك .

ولم يجد خيرى محيدا عن إفشاء السر فقال هامسا :

ــ لقد رأتك فى حجرتها فى اللحظة التى أرادت أن تنبئك فيها أنها تحمل لك ابنك .

وانهمرت الدموع من عينى يسرى ، ولم يجد شيئا يفعله إلا أن يمسك بيد فايزة ويرفعها إلى فمه يقبلها قبلة المعترف بالفضل . وأحست فايزة بغريزتها نوع القبلة وإن كانت لم تسمع من الحديث شيئا ، فأبعدت يدها عن فمه وربتت بها رأسه فى حدب وقد انهمرت الدموع من عينيها . ورأى خيرى دموع يسرى ورأى قبلته ليد زوجته ، فانتظر حتى عاد يسرى يرفع رأسه فأمسك بيده وشد عليها فى ابتهاج وقد تماوجت الدموع فى عينيه ، وقال فى فرح غامر :

ــ مبروك يا يسرى .

وقال يسرى :

ــ نعم يا آبى خيرى ... إننى الآن أستحق التهنئة .

نزل يسرى من السيارة حين بلغت البيت ، وأحاط زوجته بذراعه وعبر بها البهو إلى الطابق الأعلى ودخلا حجرتهما ، وأقفل يسرى الباب وكانت فايزة قد جلست على الكرسى ترنو إليه فى إعزاز ، فتقدم منها وركع على الأرض وانكب على قدمها يقبلها فصاحت :

ــ لماذا يا يسرى ؟... لماذا ؟

وكتب لها « اغفرى لى » .
وأدركت أن خيرى قد أباح سرها فقالت :
ــ لقد غفرت .
وكتب « كنت فى ظلام » .
فقالت :
ــ ثم تشرق الشمس .

ثروت أباظة

غزالة فى ٢١ نوفمبر ١٩٥٩

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه